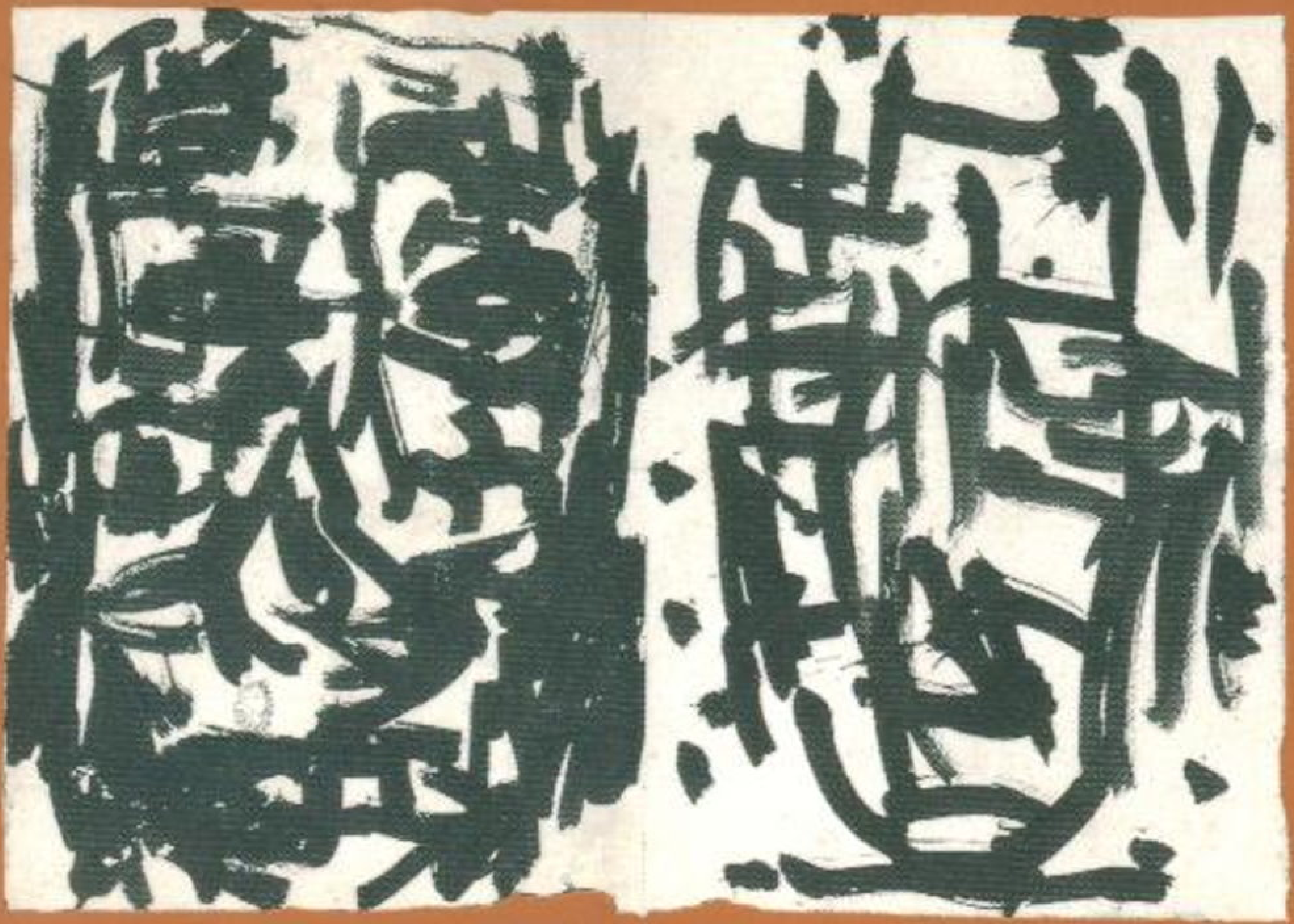

عبد الرحمن منيف

أرض السواد

III

الطبعة الثانية

HAMDAN.B
08/12/08

* أرض السواد (رواية)
* تأليف : عبد الرحمٰن منيف
* الطبعة الثانية ، 2000
* جميع الحقوق محفوظة

الناشران

المؤسسة العربية
للدراسات والنشر

المركز الرئيسي :
بيروت، ساقية الجنزير، بناية برج
الكارلتون، ص.ب : 5460 ـ 11
تلفاكس : 807900/ 807901
التوزيع في الأردن :
دار الفارس للنشر والتوزيع :
عمّان، ص. ب : 9157، هاتف :
5605432، فاكس : 5685501

المركز الثقافي العربي
للنشر والتوزيع

المملكة المغربية .
الدار البيضاء : 42 الشارع الملكي
(الأحباس) ص. ب : 4006 (سيدنا)
هاتف : 303339 ـ فاكس : 305726
لبنان
بيروت : شارع جاندارك ـ بناية
المقدسي . ص. ب : 5158/ 113
هاتف/ فاكس : 343701/ 352826

عبد الرّحمن مُنيف

أرضُ السَّواد

III

المؤسسة العربية
للدراسات والنشر

المركز الثقافي العربي
للنشر والتوزيع

111

لم يحزن إلا القليلون لإعدام سيد عليوى، بعض رجاله، إضافة إلى الباليوز، ريتش بشكل خاص، وكرمنشاه. وإذا كان مفهوماً حزن الأقرباء، فان ريتش راهن على الآغا، ولم يتوقف عن دعمه، وكان متأكداً ان قوى الباشا سوف تُستنزف من خلال معاركه مع البدو، ولابد ان يحين الوقت ليصبح الآغا كل شيء، أما شعوره الآن فأقرب إلى العجز والضياع. اذ بالإضافة إلى الخسارة التي يشكلها غياب الآغا، والتي لن تعوض بسهولة أو خلال فترة قصيرة، فان هذا الإعدام رسالة مباشرة بالغة الدلالة، وموجهة إليه شخصياً.

إلى ما قبل هذه اللحظة، ظن ريتش ان داود لن يختلف عن غيره من الولاة. يمكن ان تكون لديه أفكار او رغبات، وقد يحلم أيضاً، وربما يتوهم انه قادر على منازلة ممثل أقوى دولة في العالم، لكن حين يصطدم بالوقائع الصلبة، حين يمر الزمن، سيدرك مدى قوته مقارنة بقوى الآخرين. وإذا أراد ان يستمر لابد ان تتغير أفكاره ورغباته، ولابد ان يتخلى عن أوهامه أيضاً، أي يجب ان يصبح عاقلاً، كما صار كل الذين سبقوه، وكما سيكون حال كل الذين سيأتون من بعده. وهذا ما دعا ريتش لان يحتمل بعضاً من تصرفات داود، دُون ان يصطدم به أو ان يواجهه مباشرة.

الآن، نتيجة هذه الخسارة، ومن خلال هذه الرسالة، على ريتش ان يتصرف بطريقة مختلفة، فقد بدأ داود المعركة، وعليه ان يهيىء نفسه

لخوضها.

وكرمنشاه كانت تعتبر ان مسألة الوصول إلى بغداد مسألة وقت ليس إلا، وسيد عليوى، الرجل الموثوق والقوي، سوف يكون، في المرحلة الأولى، رجلها في بغداد، ثم ستكون هي، ومباشرة، كل شيء هناك. لذلك على كرمنشاه ان تفكر الآن، بعد اعدام سيد عليوي، بشكل مختلف، وان تعرف كيف تتصرف.

ولما كان هذان الطرفان، وان بتوقيت مختلف، قد أمضّهما الأسى لاعدام الآغا، فان رجال الباشا لم يتأخروا في نشر الخبر في الأسواق والمقاهي، وكانت زيارة خلف إلى بيت الحاج صالح العلو، ثم إلى قهوة الشط، وما أبلغه للأسرة، ثم الذي قاله أمام الكثيرين في القهوة، تأكيداً لنهاية الآغا، والذي كان وراء مقتل بدري، وقد اعترف بذلك الرجل الذي يعتمد عليه، وقريبه، غائب المحمود، اذ أقر أمام الباشا، ان الآغا هو الذي أصدر الأمر بقتل بدري، وقد نفذ القتل اثنان من رجال الحماية، ولكي لا يعرف أحد، وليطوي الموضوع نهائياً، استدعى الآغا هذين العنصرين، وبعد ان اثنى عليهما وامتدح شجاعتهما، وعد ان يكافئهما. وما ان أدارا ظهريهما، بعد ان أديا التحية، حتى سحب الآغا مسدسه واطلق أربعة أو خمسة طلقات أردتهما قتيلين، وقال بتشفٍ، وهو ينفخ فوهة المسدس، ليزيل آثار البارود:

ـ اقطع راس تمّوت خبر!

وبعد قليل، وهو ينظر إلى غائب وحامد نظرات أخافتهما:

ـ وإذا اكو ابن قحبة يقدر يعرف منو اللي قتل الثلاثة.. أقصّ ايدي!

هذا جزء مما نقله خلف للذين التفوا حوله في قهوة الشط. وقيل إنه نقل أشياء أخرى أيضاً، بما في ذلك دعوة الحاج صالح العلو للسراي. والحاج صالح الذي لم يرد، قيل ان دموعه اختلطت بالابتسام وهو يستمع لخلف، وكيف ان الباشا أكد أمام كثيرين، وبعد سماعه لاعترافات غائب وحامد، ان أحد أهم الأسباب لاعدام الآغا هو مسؤوليته عن قتل بدري.

ومرة أخرى تفجرت الأحزان والتساؤلات حول مقتل بدري، الذي راح ضحية لصراع بين الباشا وسيد عليوي، دون أن يكون طرفاً فيه. بل أكثر من ذلك، كان بدري ضحية للطرفين معاً، إذ نقل الى كركوك دون وجه حق، ووضع في مواجهة الآغا بلا مبرر. وكيف ان الصغار يسقطون باستمرار نتيجة صراع الكبار!

أما بخصوص الدعوة للسراي، فقد اعتذر نعيم بسبب مرض أبيه، وقال ان تلبية مثل هذه الدعوة ستتم بعد شفائه. ولما سئل عن ذلك في قهوة الشط رد بنزق:

ـ أصلاً وجود المرحوم بالسراي كان أكبر غلط، وماكو أحد منا چان موافق، أما بعد استشهاده فهذا حدنا ويّا السراي، لا نريد نصلها ومالنا شغل وياها!

الحصان الذي أرسل من السراي بعد ثلاثة أيام من زيارة خلف، وهو من أكرم الخيول وأجملها، لم يكن من اللائق رفضه، كما جرى رفض النقود التي حملها اثنان من زملاء بدري، لأن ذلك لو حصل، كما قال قدوري، لاعتبر الباشا الأمر إهانة وعداوة. وهكذا بقي الحصان وأعيدت النقود، تمهيداً لتحديد كيفية التصرف. وبوصول الحصان وُجد شغل جديد لحسون!

سيفو الذي هاجت شجونه أخذ يفكر ويطرح ضرورة نقل رفات بدري إلى بغداد، لاعادة دفنها في مقبرة الشيخ معروف، بالقرب من مدافن العائلة والأصدقاء، لكن نعيم حين بلغه الخبر قال لسيفو، وكانت لهجته تقع بين الود والحزم والرجاء:

ـ يرحم والديك يا أبو فلاح لا تجيب طاري هالقضية على لسانك، لان الحجي، مثل ما تعرف: من ذاك اليوم وهو وجعان، ويا الله.. يا الله نريد نسيه؛ والحجية ما عندها شغل الا تبكي وتنوح، وفوقها السواد والبخور والقرايات، فخلينا نخلص من هذي السوالف أول وبعدها الله كريم!

ولما أراد سيفو التوضيح ان زيارة القبور تبرد القلب، وتخلص الانسان

من قهره بدموع يذرفها على الميت وينتهي الأمر، رد نعيم بصوت مثقل بالحزن:

ـ يا أبو فلاح.. أكثر من القبور حولنا ماكو، وحتى القاع اللي تمشي عليها كلها قبور، مثل ما يقولون؛ وبعدين: الميت هو الروح مو العظام، والروح، مثل ما تعرف: طير، أو مثل الفراشة، ودوم الدوم ترفرف فوق روسنا... لو آني غلطان؟

ـ حاشاك، مولانا، لكن مثل ما يقولون: القرب رحمة وسلوى!

ـ يا أبو فلاح، تراب كركوك مثل تراب بغداد، والماي اللي يشربها الناس هناك نفس الماي هنا، فإذا الواحد كان قلبه كبير يوسع، وإذا كان عقله كبير يوصل.

وهكذا طوي موضوع نقل الرفات، مؤقتاً على الأقل.

أما الأسطة عواد، الذي كان يراقب كل شيء باستغراب، وكأنه لا يصدق، فقد قال بعد ان غادر خلف القهوة:

ـ اللي يحيرني، يا جماعة الخير، انّ الناس تتغير بالعجل!

وحين تعلقت به العيون، وقد كان قريباً من خلف، وسمع حتى الهمسات التي تبادلها مع نعيم وقدوري، وما قاله لذنون الذي كان موجوداً في القهوة أثناء الزيارة، وحين لم تفهم بدقة مقاصد الأسطة عواد بالكلمات التي قالها، تابع، وبدت مخارج الحروف ممدودة:

ـ قبل سنة، أقل شوية من سنة، لما جانا خلف، وتذكرون، كان وجهه ثقيل مثل القربة، لا يحچي ولا يبچي. قال كلمة والثانية، وبعدها: في أمان الله. اليوم يحچي، يسولف، يتلفت ويقول: عيني وآغاتي، فما أدري شنو اللي صار بالدنيا، ومنو اللي تغير؟

ولما سرح كل واحد من الذين يستمعون اليه في عالمه الخاص وذكرياته، قال سيد ذنون:

ـ أغرب شي، يا جماعة، ان الدنيا بالعجل تتغير وتتقلب.

ابتسم ابتسامة واسعة قبل ان يضيف:

ـ صدف ذاك اليوم، يا جماعة الخير، كنت قاعد بالقهوة براس السفينة، سوالف وحچي، وفجأة الدنيا انقلبت. خير؟ شنو القصة يا جماعة؟ بعد التي واللتيا: عرفنا ان الآغا وصل لجامع أبو حنيفة، طب لهناك حتى يصلي ركعة.. ثنتين، وما يندرىٰ: متوضي ما متوضي.. هاي نخليها على صفحة، ينجاز هو وربه، لكن ليش هالهرجة؟ ليش هالمظاهر؟

نقر على الطاولة أمامه نقرتين أو ثلاثاً، وكأنها طريقة تغيير النبرة:

ـ اذا راد الواحد يصلي، يطب للمسجد خاشع، متواضع، وحتى إذا لابس عقال ينصّبه، ويقف أمام الله بذل، ايديه مكتفة، وكأنه يقول لرب العالمين: جيتك يا ربي خاضع، فاقبل توبتي وتقبل طاعتي، واجعلني تحت رحمتك، لانك انت الذي يعفو ومن يغفر. أما إذا جاء مع الحرس وخشمه مرفوع، فرب العالمين ما يقبل ولا يشفع...

وتغير صوته تماماً

ـ وما مر يوم والثاني، الا وذاك اللي خشمه بالسماء صار جوا القاع، ومو موته ربنا، بفراشه وقرايبه حواليه، وانما موتة چلب، وكخائن...

وضحك بسخرية:

ـ ومثل ما قلنا: شلون الدنيا تنقلب بين غمضة عين وانتباهتها، لكن سبحانه الله، الانسان ما يتعلم، ما يعتبر...

توقف قليلاً، تطلع بفضول إلى الوجوه التي تتابعه، وأردف:

ـ وأبو نجم معه كل الحق، وهو يقول شلون خلف ذاك اليوم وشلونه هذا اليوم!

أبو حقي، الذي كان لا يزال تحت وطأة الصدمة، وعدم تصديق توالي الأحداث بهذه السرعة او بهذا الشكل، وبعد ان استمع الى الكثير مما يقال، ولما تضايق الأسطة عواد من صمته، خلافاً للعادة، سأله باستفزاز:

ـ شايفك، يا أبو حقي، صايم صوم زكريا، شنو القصة، ما عاجبك؟ ماعندك فد رأي، فد شي تقوله؟

ـ قبل أيام، يا أبو نجم، حيرني فد شي: الحمامة التي تجي كل يوم

نوبة. . . ثنتين، وتشرب من الحِب، جتّ أول نوبة، رفرفت بجناحاتها وكأن صقر لاحقها، كانت خايفة. رفرفت وطارت بعيد، مو مثل عادتها. لا شربت، لا لقطت. حطّت وطارت بالعجل. قلت لروحي: أكو سالفة. لكن تعرف: الزيان يعمي، وسوالف الناس ما تخلص. وآني ازين وأسولف، راحت من بالي. ما خلصت من أول راس، وبلشت بالثاني، إلا وأشوفها جاية. حطت وطارت. لا شربت، لا لقطت حَب. قلت لروحي: شنو السالفة؟ ليش هالشكل؟ خلّصت الزيان بالعجل، وقلت: لازم أعرف. طشيت حَب، وقعدت انتظر. ما مر مشوار الا والحمامة جاية: ها، يا بنت الحلال، شنو الأخبار؟ باوعت عليّ وقالت: بشرّ القاتل بالقتل. قالت هالكلمة وطارت، وكان بي عقل وطار، يا أبو نجم!

الأسطة عواد الذي كان يتابع، ويهز رأسه، لا يعرف هل عليه ان يكذب ام يصدق، ولا يدري المغزى والنتائج التي يريد الأسطة اسماعيل الوصول إليها، وربما امتد به الخيال أو التذكر إلى أمكنة بعيدة. فجأة وجد نفسه يسأل:

- الحمام اللي تحچي عليه، أبو حقي، مثل حمامنا لو غير شكل؟

- مثل حمامنا أبو نجم. الشكل نفس الشكل، لكن، الله العليم، ان هذا الحمام من نسل حمام سيدنا نوح، وهذا اللي يخليه يشوف ازيد منا، ويعرف شنو الصاير بالدنيا.

- اي. . أبو حقي، وهذي الحمامة اللي جت يمك، شقالت بعد؟

- في المرة التالتة، جت الحمامة وقالت: يا اهل بغداد، الله، سبحانه، نجّاكم من حريق، ونجاكم من غريق، لكن لا تناموا على حرير، خلّوا عيونكم مفتحة!

استراح. تنفس ملء رئتيه، وأضاف، كأنه يكلم نفسه:

- ومن ذاك اليوم، يا أبو نجم، وراسي يفتر. لا أعرف أنام، لا أعرف اسولف ويّا الناس، وما أدري شنو اللي صار بي، الى ان جا زلمة السراي، خلف، وقال اللي قاله.

يعني هسه استرحت؟ صفا بالك؟ .
ـ قول الله، يا أبو نجم، وخلينا نباوع ونتنصت زين!
ولم يبق أحد إلا وكان له رأي.

زينب كوشان التي تعبت من مراجعة السراي، أصبحت أشد حزناً من قبل، خاصة بعد ان كف الكثيرون عن حسون، وبدؤوا يبحثون عن تسلية أخرى، وقد وجد بعضهم في زينب هذه التسلية. ما كاد يُعرف باعدام الآغا، حتى أوحى لها بعض الخبثاء ان خصمها قد انتهى، ولا بد ان تحصل على حقوقها، ما دامت الأوراق معها، وعليها ان تجدّ الآن في الملاحقة والمطالبة. وأخذ الأطفال يرددون حين يرونها: تهني. . تهني يا طيرة. . مات واشتعل صيادچ!

لم تكن زينب بحاجة إلى إلحاح أو تحريض، أصبحت تقضي معظم أوقاتها مقابل السراي، علّها تحظى بالباشا، وتشرح له ظلامتها، خاصة وقد قيل لها ان الباشا يخرج بجولات في الصباح الباكر، وبعض الأحيان في الليل المتأخر، وعليها، ان أرادت مقابلته لتعرض عليه مشكلتها، ان تتواجد في الصباح الباكر أو الليل المتأخر، اذ ربما تلتقيه في أحد هذين الوقتين.

لكنها تصل دائماً، كما يقال لها، متأخرة، رغم أن صاحب المركب هوبي الأسود يحاول ان يبكّر في رحلته الأولى ليعبر إلى الرصافة.

ولأن بعض الخبثاء أوحى لها أن الباشا يتخفى عندما ينطلق في جولاته، ولا بد أن تبذل جهداً للتعرف عليه، فقد كانت، وهي تسير في الشوارع المحيطة بالسراي، تتفرس في الوجوه، تتطلع بامعان إلى كل شخص تراه، اذ ربما يكون الباشا. وكثيراً ما استوقفت بعض الأشخاص وسألتهم، وسألت كل واحد، ما إذا رأوا الباشا، أو أن واحداً منهم هو الباشا! وإذا كانت الاجابات في البداية انهم لم يروه، وليس أي واحد منهم هو، فقد تعود عليها الناس. وفي محاولة لممازحتها، وأن يبدؤوا يومهم بالابتسام، فقد انضم الكثيرون من صوب الرصافة إلى خبثاء صوب

الكرخ، وأخذوا يتفننون في اثارتها، كأن يقول أحدهم انه رأى الباشا يمر من هنا، وآخر يشير إلى اتجاه معاكس، وقد رآه بأم العين، وانه مستعد لان يقسم على ذلك. وكان بعض الذين يميلون للدعابة يتظاهرون، للحظات، ان الواحد منهم هو الباشا، فيقف معها ويسألها عما تريد، وماذا يستطيع ان يفعل من أجلها. وبكثير من السذاجة تبدأ زينب بفرد أوراقها لتؤكد ملكيتها لمنطقة الشيخ بشار، وضرورة ان يحسم لها هذه المشكلة. وعلى أوراقها، أو أوراق جديدة، يتم وضع التواقيع والأختام الإضافية، وتحدد مواعيد للمراجعة أو مقابلة بعض الأشخاص! وهكذا أصبحت زينب في بغداد علماً من الأعلام، الكل يعرفها والكل مهتم بقضيتها، وهذه القضية اذا لم تحل اليوم لابد ان تحل غداً بكل تأكيد!

وباعتبار ان هناك من أقنعها ان الآغا كان خصمها، وهو الذي حال دون البت بقضيتها، فقد أصبحت، بعد أن أُعلن خبر اعدامه، امرأة اخرى: تلبس ملابس زاهية، وان افتقدت التناسق والأناقة، وتصطحب غلاماً صغيراً ليحمل لها الكواشين، وتتكلم برصانة زائدة مع الحرس، طالبة ان يحدد لها موعد مع الباشا، لان لديها ما تعرضه عليه، ويجب ان يتم ذلك بسرعة، خشية فوات الوقت!

ولأن الحرس تعودوا عليها، وكانت مشاعرهم مزيج من الشفقة والود، ولا تخلو من المداعبة، فان ساعات الصباح الأولى، قبل وصول الموظفين، وقبل ان تبدأ زيارات السراي، هي ساعات من الطرافة والمتعة، ولا تخلو من الخوف أيضاً، لان التعليمات الأخيرة من الرؤساء تفرض الكثير من الانتباه والحزم في التعامل مع واجبات الحراسة، وفي التعامل مع الذين يترددون أو يقتربون من السراي.

بعد ان تأكدت من إعدام «العدو اللئيم» كما أطلق على الآغا، أصبحت تقيم فترات أطول قريباً من بوابات السراي. ولولا القطط التي كانت تأويها في بيتها، خاصة الصغار منها، كان يمكن ان تقضي أوقاتاً أطول، ولا مانع من ان تقضي الليل ساهرة، إلى ان يخرج الخضر، كما كانت تسمي الذي

سوف يحل لها مشكلة ملكية الشيخ بشار.

أشفق كثيراً الحرس، ورثى رؤساء الحرس، وهم يرون زينب كوشان منذ الصباح الباكر تفعل الشيء ذاته؛ أما ذنون الحاج حسن لما عرف بما تفعله زينب كوشان فقال بحزن:

ـ الطيور والحيوانات، وكل المخلوقات، عدا الانسان، تدافع عن صغارها والأمكنة التي تبات فيها، ولا يهمها بعد ذلك شيء آخر. أما الانسان فانه ينسى، في أحيان كثيرة، صغاره وبيته، ويدافع عن شيء يتوهم أنه له، المال، لكن هذا الشيء أكبر من الإنسان وأقوى منه، وهو الذي يحكم الإنسان، في الوقت الذي يتوهم الانسان أنه الحاكم. ولا تظهر الحقيقة الا لحظة الموت. يترك الانسان كل شيء ويمضي. ولا يعرف ماذا سيحصل بهذا الذي تركه، لكنه يذهب إلى آخر، وهذا الآخر يبدأ اللعبة ذاتها، لينتهي الى النتيجة ذاتها. لذلك فان كل المخلوقات تتعلم، وتصبح أكثر حكمة الا الانسان، الذي ولد من العماء والطين. وبعد رحلة من المشقة والعذاب، سيذهب إلى العماء والطين مرة أخرى. وما يقال عن ذكاء الإنسان، بالمقارنة مع المخلوقات الأخرى، مجرد وهم اخترعه الانسان، ويحاول ان يقنع نفسه به، لذلك فان حماقات الذين ولدوا قبل فترة طويلة انتقلت إلى الأجيال اللاحقة. وهذه الحماقات تزيد وتتكاثف لتصبح في النهاية قيوداً على هذا الانسان، في الوقت الذي تصبح الحيوانات أكثر حرية، وأكثر قدرة على التحرك والتمتع بالحياة.

كان ذنون يكلم نفسه، كان يحدس بهذه الأفكار أكثر مما يقولها. وحتى لو قالها فهي مشوشة، متداخلة، أقرب إلى المناجاة، وكأنه يقول ولا يقول في نفس الوقت.

الحاج شبلي الذي تعوّد ان يستيقظ مبكراً، حزّ في نفسه ان تتردى حالة زينب، وتصبح أضحوكة لصوب الرصافة، وكأن ناس هذا الصوب يعلّمون على الصوب الآخر. أوعز لبعض معارفه في قهوة الشط ان يتولى أحد أمر هذه المرأة، سواء بمنعها من العبور إلى الرصافة، أو يكون ذلك خلال

النهار، لتتجنب الاساءة والسخرية. أما مسألة جولات الوالي في الصباح الباكر فمجرد أكاذيب اخترعها بعض الخبثاء ليسلوا أنفسهم!

طلب سيفو من زوجته ان تتولى أمرها، وطلبت فطيم من بعض نسوة المحلة مساعدتها في اقناع زينب كوشان لكي تكفّ عن الرحلة المبكرة لذلك الصوب، لكن هذه المحاولات انتهت إلى الفشل، بل وزادت ارتياب زينب ان المؤامرة تطبق عليها، وقد اشترك فيها أقرب الناس اليها! كانت ترد على محاولات اقناعها، والدموع تتساقط على خديها:

ـ بعد ما وصلت اللقمة للحلق، وبعد ما اشتعلت صفاح ذاك اللئيم، الآغا، أبو سنون الذهب، منين انتو طلعتولي مثل سچينة الخاصرة؟

تمسح دموعها بعصبية، وكأنها نادمة ان ترى النسوة ضعفها، وترد بعدوانية:

ـ لو ظل بعمري يوم واحد ما راح أتنازل، وأخلي حقي يضيع.

تقول لها فطيم في محاولة لاسترضائها:

ـ لو تتركين المسألة على الرياجيل، يا معوّدة، لانهم أقوى مني ومنك.

ـ على منو؟ تسأل بسخرية، على تنابل قهوة الشط؟

ـ البارحة أبو فلاح دق على صدره وقال: اذا زينب توكلني، آني أخلص القضية.

ـ اذا أبو فلاح عطّش المحلة كلها، يمه، وما دار بال، تريدين تقنعيني انه يقدر يخلّص شغلتي؟

ولا تتركها لتجيب، تضيف وهي تنهض:

ـ شيليها هذي من دماغك، فطيم، لان الرياجيل ما عندهم الا السوالف بالقهاوي!

وظلت زينب كوشان توالي زيارتها للسراي صباح كل يوم، وظل هوبي الأسود ينقلها بمركبه، لأنه يتفاءل إذا تصبّح بوجهها. اما حمودي أبو الليل، الذي احمرت عيناه على خبثاء قهوة الشط، في محاولة للحد من الأذى الذي يلحق زينب، وحين طلب منه ان يفعل شيئاً بذاك الصوب،

فقد رد ساخراً:

ـ آني حدي هذا الصوب، أما إذا عبرت لذاك الصوب فنكون بقضية . نصير بغير قضية!

وأضاف بصوت خفيض، كأنه يكلم نفسه:

ـ حتى رب العالمين ما حطّ الحمل كله على كتاف فد ملاك واحد؛ سخر اسرافيل للمطر، ورضوان للجنة، وقال لمالك: انت عليك جهنم، ومالك شغل بغيرها، فشنو اللي تريدون مني أصير؟

ما كادت بضعة أيام تنقضي على اعدام سيد عليوي، وبدأت الأخبار تنتشر حول الأسباب التي دعت لإعدامه، حتى ظهرت المخاوف والحسابات الخفية.

ساسون كان من أوائل الناس الذين عرفوا الخبر. نقلته إليه سلطانة يوسف، رغم ما بينهما من عدواة. حصل ذلك أثناء زواج موشي ابن حاييم، اذ ما كاد يسألها، مجاملة، عن أحوالها حتى قالت، وكان صوتها أقرب إلى اللهاث:

ـ لو تدري شنو صاير بالدنيا يا أفندينا!

وحين ابتسم لها مجاملة، وكأنه لا يريد ان يسمع أية أخبار جديدة أضافت:

ـ الله يساعدها روجينا!

ـ شبيها روجينا؟

ـ يجوز ما تدري يا أفندينا. . .

قالت ذلك، واعطت نفسها مدى، كي تزيد توتره ورغبته في ان يعرف الجديد، سأل وهو يقترب منها، وكأنه يستعجلها كي تتكلم:

ـ شوشتيني. . اكو فد شي؟

ـ ليش ما تعرف؟

ـ قولي يا معوّدة، وخلينا اذا غنينا يطلع الغنا من جوا الصدر.

ـ وين اكو من هذا يا أفندينا!

ـ خاصيني، قولي، لاني راح أتوازى وأكسر بوط وياچ!

ـ اسمع يا أفندينا. . .

تمهلت مرة أخرى، وهي تتلفت كي تتأكد ان لا أحد يسمع، وتابعت بصوت خفيض:

ـ يقولون شهادة روجينا، الكلام اللي قالته، هو اللي أعدم الآغا. . .

وبعد قليل، وفي محاولة لان تثبت براءتها:

ـ هذا اللي سمعته، يا أفندينا، آني ما اعرف ولا أحط بذمتي.

واقترب منها أكثر، وهي تروي له ما سمعت عن المحاكمة التي جرت للآغا، وكيف ان روجينا كانت الشاهدة الوحيدة، أو ربما الأساسية، اذ اعترفت بأشياء كثيرة، وكانت هذه الأشياء هي السبب في اعدام الآغا. ومنذ ان أطلق سراحها أمس الأول، أي في اليوم التالي للاعدام، وهي تلازم بيتها، ولا شغل لها سوى البكاء!

ورغم ان عرس موشي، بكل ما حفل به من غناء ورقص، استمر يتألق ويزداد بهجة، ورغم ان سلطانة غنت كما لم تغن منذ وقت طويل، وشاركت فرق أخرى في الغناء والرقص تلك الليلة، الا ان ساسون ظل في عالم آخر. صحيح ان لا صلة له بالآغا ولم يحبه في يوم من الأيام، لكن يريد ان يعرف، أو يقدر، ماذا يمكن ان يترك هذا الاعدام على عزرا، وبالتالي كيف يجب ان يتصرف ليرد الصاع صاعين، وينتقم من عزرا أو من أولئك الذين شمتوا به او تخلوا عنه أيام محنته. قال لنفسه، في لحظة ارتفع خلالها صوت سلطانة، وكانت تنظر نحوه «الدنيا دولاب، وعزرا اللي صعد فوق فوق، لابد ينزل، والأيام بينا». ما كاد يصل إلى هذه النتيجة، حتى بدأ يعود إلى جو الغناء والطرب، وكأنه لم يسمع بما حصل لروجينا أو لغيرها، «لأن كل شيء له وقته».

روجينا التي جيء بها إلى السراي، في اليوم الأول لوصول الآغا إلى قصر الريحان، سئلت إذا كانت قد حملت أموالاً من الباليوز إلى الآغا. فوجئت بالسؤال وأنكرت ان تكون قد فعلت ذلك. كانت تقسم وتبكي،

وتصرّ على الانكار، الى ان أدخل عليها ناهي زبانة.

وناهي الذي ارتبط بالسراي منذ زيارته الأولى لبغداد، بعد ان تعرّض هو وبطرس يعقوب لاعتداء، إثر خروجهما من قهوة الشط، تخلى بالكامل عن الآغا، وأخذ يعمل مع السراي، وقد أبلغ عن كل شيء وبالتفصيل. حتى في زيارته الثانية، وقبل ان يتصل بعارف زنجاري، اتصل بالسراي وأوضح المهمات المكلف بها وبمن سيتصل، كما لم يتوقف عن ابلاغ السراي بكل صغيرة وكبيرة.

حين دخل ناهي، ورأى روجينا غارقة بدموعها، قال لها بطريقة تقريرية باردة:

ـ ترى الجماعة يعرفون كل شي، وقلت لهم عنك وعن بطرس وعن أيام كركوك...

وتظاهر انه يريد ان يسرّ لها بشيء، لكنه قال بصوت مسموع، وكان المحققون موجودين:

ـ وشقد ما أنكرنا.. ترى الجماعة يعرفون!

ودون مشقة كبيرة، وخلال وقت قصير، ثم الاتفاق مع روجينا انها إذا شهدت على الآغا، إذا قالت كل شيء، فسوف تعفى من أية مسؤولية، وسوف يطلق سراحها فوراً، لأنها لم تكن أكثر من واسطة، وقد اضطرت إلى ذلك! أما إذا استمرت على إنكارها، فانها لن تخرج من السراي الا إلى القبر! وهكذا وافقت روجينا، وقالت كل شيء، رغم الألم الذي لم يفارقها لحظة واحدة.

اذ بعد ان قضت روجينا الأيام الستة في السراي، وقد عوملت بشكل لائق، اذ خصص لها مكان فسيح، وقُدم لها غذاء جيد، نُقلت في اليوم السادس إلى القلعة، وبعد ان أوضحت علاقتها بالآغا، والمواعيد التي رتبتها له مع الباليوز، والاموال التي حملتها إليه في كركوك، ولقد اعترفت بذلك مع الدموع والحسرة، وقضت تلك الليلة في القلعة، بعد ان صدر الحكم على الآغا، ثم تُركت في اليوم التالي لتذهب إلى بيتها. ومنذ ان

ركبت العربة في طريقها إلى البيت بدأت البكاء واستمرت فيه بعد ان وصلت، ثم في اليوم الثاني كله، الأمر الذي جعل «البنات» في حالة من الرعب، لغيابها أولاً، ثم لهذه العودة الحزينة.

قيل انها مرضت مرضاً شديداً بعد الاعتراف، ومما فاقم في المرض بكاؤها المتواصل، وامتناعها عن تناول الطعام، إضافة إلى السهر، لكن بعد بضعة أيام غرقت في نوم عميق، خاصة بعد أن تم استدعاء الطبيب الهندي لمعالجتها.

ما كادت تشفى وتستعيد جزءاً من قوتها ووعيها، حتى أبلغت «البنات» أنها تابت وسوف تتوقف عن هذه «المهنة»، وخيّرت «البنات»: من ترغب منهن بالتوبة، وتريد أن تبقى معها، فإنها لا تمانع بذلك، ومن تختار شيئاً آخر فالأمر يعود لها.

رستم قاورد انضم إلى قسم التموين في السراي، وبقي بضعة شهور، ثم أرسل محمّلاً بالعسل إلى يحيى بيك في الحلة، وكتب الباشا إلى كيخياه رسالة قصيرة لا تخلو من الدعابة، كتب إليه «الصوغة المرسلة مع رستم هي الروح للروح، وحاملها صانعٌ للطبخ بارع، والذوق للسان راجع، فإياك ثم إياك من فلفله اللاذع، وبعد أن تجرب وتذوق اكتب لنا ما تروق، وادعُ لنا بالتوفيق، لأن هذه التفاتة الصديق للصديق، ولا تطيل الحملة، احسمها، لأن بغداد مشتاقة والسلام.»

ولم يتردد الكيخيا في أن يستبقي رستم إلى جانبه في الحلة، وأن يشيد بمهارته أولاً ثم بتهذيبه، خاصة وهو يقارنه بجمولي، الذي يحسن الطبخ أيضاً، لكن تنقصه روح الفكاهة ولباقة التصرف.

ريتش الذي ساءه إعدام الآغا، واعتبر أن المعركة بينه وبين الوالي قد بدأت، ما لبث أن شعر بالخوف، خاصة بعد أن بلغته اعترافات الشهود، وبالتالي الأسباب التي دعت إلى سرعة التخلص من الآغا.

أصبح همه الأكبر، بعد أن انكشفت علاقاته وتحركاته، أن يعيد ترتيب أوضاعه الداخلية. فأن تنكشف روجينا، وأن تعترف، وأن يكون ناهي زبانة

الذي كان واسطة في الاتصال بالباليوز، هو المفتاح الذي استخدمه داود في فتح هذه البوابة والاطلال على ما في الداخل، لا يجعل بطرس يعقوب وحده مكشوفاً، ويفقد صفة المترجم ليصبح شيئاً آخر، ثم أن ينكشف عارف زنجاري أيضاً، ولا يعرف ماذا تبادل مع الاثنين من معلومات وأخبار، فقد شعر ريتش أنه عارٍ أو أقرب إلى العري، الأمر الذي يحتم عليه أن يعيد النظر برجاله ومواقعهم، وأن يعتمد أسلوباً آخر في الاتصال وترتيب علاقاته، خاصة مع الشمال.

كانت أياماً قاسية تلك التي مرت على ريتش، الأمر الذي اضطره إلى ملازمة القنصلية لا يبارحها إلا نادراً، ويقلل من استقبال الضيوف، وإحالة الراغبين بلقائه إلى مساعديه، بحجة أنه متوعك. أما فكرة السفر إلى الشمال، وتخصيص هذه الرحلة للآثار وحدها، كما وعد ماري، التي كانت تطالبه بين فترة وأخرى ألا ينسى الوعد، فقد استبدلها بمراسلات حثيثة إلى سفارته في اسطنبول وإلى وزارة الخارجية في لندن، يطلب منهما أن يعطيا لموضوع الآثار أهمية خاصة، وضرورة إيفاد البعثات للبحث والتنقيب، خاصة في الشمال. وكمحاولة لإرضاء العزيزة ماري فقد أطلعها على هذه الرسائل، واقترحت هي أن تضاف بعض الفقرات، خاصة في وصف تلك الآثار وأهميتها، وأن الفرنسيين يكادون يضعون أيديهم على كل شيء!

وفي محاولة لأن تبدو الأمور طبيعية، ولئلا يقع تحت تأثير ردود الفعل، قرر ترك العاصفة تمر. ولكي يعطي نفسه فرصة للتفكير وإعادة النظر، رأى أن من المناسب الابتعاد عن بغداد لبعض الوقت، ليهرب من الحر أولاً، ولكي يضع خطة تناسب المرحلة الجديدة. بعد ذلك، وفجأة وجد نفسه يقترح على ماري أن يذهبا إلى اسطنبول، إذ من خلال هذه الرحلة يجدّدان ذكرى لقائهما الأول، ويهربان من الحر، كما ستتاح له الفرصة في اسطنبول لأن يقرأ الموقف كله، خاصة النظرة إلى هذا الوالي الذي يبدو متعِباً، ومختلفاً عن الولاة الذين سبقوه، وسوف يكون صديقه،

خالد بك، خير عون لمعرفة أمور كثيرة.

وقبل أن يبلّغ السراي برغبته في السفر، التقى عزرا.

كان عزرا، لما وصل الآغا إلى قصر الريحان، يتنقل بين بساتينه الموزعة بين الجعيفر والمحمودية، وقد قضى في هذه الجولة أسبوعاً، وفاوض خلال الجولة على شراء أو استئجار عدد من البساتين، خاصة في منطقة المحمودية، بعد أن هجرها أصحابها، لأن جنود الحملة في مسيرتهم نحو الجنوب لم يُبقوا شيئاً من الثمار، الأمر الذي اضطر الفلاحين لهجرها خوفاً من أن يساقوا إلى العسكرية، ولأنه لا يتوقع أن ترد لهم شيئاً من تعبهم، وقد وجد عزرا الفرصة مؤاتية لأن يضع يده عليها، وهذا ما جعله يقضي فترة غير قصيرة بعيداً عن بغداد، مما فوّت عليه معرفة وصول الآغا.. ثم إعدامه!

أما بعد أن عاد، وعرف ما حصل خلال غيابه، فقد أصابه الهلع. لأن أمراً كهذا يجعل الكثيرين يخافون، خاصة من التجار، ولا بد أن ينعكس على حركة السوق. ثم إن الإعدام سيحرك الأحقاد، وربما الاضطرابات ولا بد أن تظهر آثار ذلك.

ومثل عادته، سوف يلجأ الباشا إلى الإغداق على الكثيرين ليكسب تأييدهم أو على الأقل سكوتهم، وعلى عزرا أن يؤمن الموارد وأن يدفع!

أما حين عرف أن روجينا، باعترافاتها وما قالته أثناء التحقيق ثم أمام المحكمة، هي السبب في إعدام الآغا، فقد خاف وتحسب نتيجة ذلك، إذ بالإضافة إلى أحقاد مؤيدي الآغا، فسوف تنفتح العيون وتثور الأسئلة حول الطائفة كلها، وإذا بدأت الأسئلة تتبعها الشكوك والمخاوف، وربما لا تنتهي.

حين التقى عزرا بريتش، قال له بجسده كله:

ـ ترى هذا الوالي راح يهجم بيتنا، وآني، بدالك، ما عرفت باللي صار إلا بعد ما صار وانتهى.

وأخذ يشرح للقنصل أن أشغاله التجارية اقتضته أن يكون خارج بغداد

خلال هذه الفترة، ولو كان موجوداً وعرف لحاول منعه، أو على الأقل تأجيله، لكن الباشا مثل العريس ليلة العرس لا بد أن يفعل شيئاً ليخيف الذين حوله، وأن الآغا أعطاه الفرصة، ومكنه، نتيجة الرعونة وإطلاق الكلام، وكاد يستمر في تعداد الأخطاء والنواقص، لكن القنصل قاطعه:

ـ ما حصل قد حصل يا عزرا أفندي، المهم الآن: كيف ستكون انعكاسات مثل هذا العمل على الوضع الاقتصادي والمالي؟ وماذا تقترح من خطوات لمنع استمرار مثل هذه الحماقات مستقبلاً؟

بعد استعراض عدد من الأفكار والاحتمالات، وحين عرف عزرا بنية القنصل للسفر إلى اسطنبول، قال، وكأنه يكشف سراً:

ـ اللي ما يقدر عليه حسقيل هناك يدبره خالد أفندي، ونحن هنا اللي الله يقدّرنا عليه!

وقبل أن ينتصف الصيف أبلغ ريتش السراي بنيته على السفر، وطلب أن تُبلغ الجهات الرسمية على الطريق لاتخاذ ما يلزم لتسهيل مرور القافلة وتقديم العون لها، خاصة وأن القنصل سيصطحب معه في هذه الرحلة زوجته وعدداً من المرافقين.

وكان ضمن القافلة التي اتجهت إلى اسطنبول، بطرس يعقوب، لأن القنصل اعتبر مغادرة بطرس أضمن لكل الأطراف.

كتب ناطق أفندي في التقرير الذي رفعه إلى الباشا، بعد أن قام بوداع القنصل عند باب المعظم، بناء لتكليف تلقاه من الديوان. كتب في التقرير «. . . عند منتصف الليل كنت في المكان المتفق عليه بالقرب من باب المعظم. وعلى ضوء الفوانيس والمشاعل، في الساعة والمكان المحددين، كانت الفرقة الموسيقية للباليوز تعزف الألحان الشجية، وكانت تلك الألحان تتصاعد في ظلمة الليل وكأنها أنغام سماوية، وكان الحشد في غاية الصمت والاكتمال، وملابس رجال الباليوز أقرب إلى ملابس الاحتفال، آلات الموسيقى تتلامع، وسيوف الحرس تتقاطع، العيون مشدودة إلى الغرب، والأجساد متوترة كأنها ذاهبة إلى الحرب والضرب،

بانتظار وصول القنصل. وما أن مضت دقائق على صياح ديكة آخر الليل، حتى سُمعت طبول تتقدم كالسيل، ومعها المشاعل تمزق الظلمة، وتحوّل المكان إلى شعلة، في المقدمة القنصل وحرمه، وعلى مراتب ودرجات أتباعه وحرسه، والكل على خيول مطهّمة، وبحلل زاهية وبأنغام مفعمة.

«كنت يا صاحب الفخامة متحفظاً، أرقب دون تدخل، لم أتبادل إلا أقل الكلام مع المودعين. لما وصل القنصل وترجل، تحول الكثيرون نحوه ولم أتحول، فالواجب أن يكون المودعون في رتل، ويتقدم باتجاههم المسافر صاحب الحفل، وهذا ما حصل، قلت له: مولانا يتمنى لك طيب السفر والمقام، ويرجو حسن الرحيل والختام، وتقبلوا التحية والسلام. ورجاني أن أحمل لأفندينا عظيم الإجلال والاحترام.

«وتجنباً لأي كلام زائد ودعت ومشيت، وأخذت طريق الشط في العودة، وكان وصولي إلى السراي مع أذان الصبح، وأرفع لمقامكم هذا الكتاب لتكونوا على علم وبيِّنة وتقبلوا جليل الاحترام.» خادمكم، ناطق القزويني.

112

لم يتأخر داود باشا في إعادة تنظيم قواته، لكي يضمن عدم بروز واحد مثل سيد عليوي، ومن أجل حسم المعركة العسكرية التي بدأت.

أرسل طلعت باقة ليلتحق بحملة الجنوب، كما أرسل قوات إضافية، مع تعليمات مشددة بأن تُعزل قبائل الوسط عن قبائل الجنوب، وأن تُستغل فترة انحسار المياه، وقبل قدوم الأمطار، لإنهاء المعارك.

كما بعث بهدايا قيّمة لعدد من أغوات الشمال، مع رسائل توضّح أن جملة من القضايا كان يفترض أن تُعَالج، إلا أن ظروف الجنوب وأعباء الحرب، وأخيراً وصول المعلومات أو عدم وصولها، إذ كانت تتأخر في كركوك، أو تصبح محطتها الأخيرة هناك؛ كل هذه الأسباب لم تمكّن بغداد من المساعدة. أما الآن، وبعد أن لم يعد بين بغداد والشمال حاجز، مثل الآغا، فقد أصبحت الظروف مواتية لعلاقات إيجابية ومباشرة.

وإذا كان الباشا قد بدا واثقاً، بعد أن تخلص من هذا الخصم، فإن رجاله أخذوا يستعيدون أخطاء الآغا ومباذله، والقسوة التي كان يتصف بها، كما تصدى عدد من الشعراء لنظم قصائد هجاء بحق هذا السفّاح الذي مضى دون أسف، لكن الباشا تحسّب من هذه الجرأة المفاجئة لدى هؤلاء الشعراء! صحيح أنهم يهجون الآن هذا الذي مضى مباشرة إلى جهنم، لكن ماذا يمنع أن يقولوا شيئاً مشابهاً بحق غيره غداً؟ هكذا فكّر داود باشا، ولم يتأخر في أن يقول للشاعر الصفوي مازحاً:

ـ صحيح أن الآغا مثل كافور، أو أنجس من كافور، لكن هذا لا يظهر

إلا إذا قارنه الواحد بسيف الدولة؛ وجماعتك هجموا مثل الزنابير، ولو انتظروا كم شهر، وبعد ما نخلص من بدو الفرات الأوسط، كان لقوا قضايا تملي الدماغ! وعندها هات يا شعر، وتباروا يا شعراء!

وهكذا انكسرت هذه الموجه من الشعر، أو تحولت إلى شكل سري، إذ كانت تتردد أصداؤها في بعض المقاهي، وكثيراً ما كانت تحوّر الأسماء والصفات، وتستمر في الانتشار!

وأخذ الصفوي يستعد من أجل نظم قصيدة «تتناقلها الركبان، وتصل إلى أبعد مكان،» كما قال لخلف، حين جاء في زيارة جديدة للسراي.

أما عارف زنجاري، فلم تتأخر السراي في إرسال أحد رجالها لكي يمازحه قبل أن يصطحبه إلى ثكنة الفرسان.

سأله عبد الفتاح وجدي، وهو يمثل دور ناهي تماماً:

- باخرة مرسين متى تصل إلى البصرة؟

- بابا . . سفينة هالشكل ماكو!

ولما اعاد عليه السؤال مرة أخرى، وأشار إلى أن أقرباء له سيصلون على هذه الباخرة، رد عارف بحدة:

- بابا قلت لك سفينة هالشكل ماكو!

- يعني هذا الخط انقطع؟

- شنو . . جاي تتعيقل براسي؟ رد عارف بغضب، أصلاً مثل هذا الخط ماكو من يوم ما ربنا خلق الدنيا!

- يعني خط البر أحسن؟

- خط جهنم أحسن من الكل، عيني، فاتركنا بهمّنا وخلينا نشوف دربنا، يرحم والديك.

- زين . . زين مولانا، لا تصير عصبي . . .

وبعد قليل، وقد تغيرت اللهجة تماماً، أصبحت ساخرة

- وإذا رمان بعقوبة عطش . . شنو اللي تنصحنا نسوي؟

أصبح عارف زنجاري عصبياً وخائفاً، فقد أحس أن شيئاً يراد به، وأن

الرجل الذي يقف أمامه ليس بريئاً. وفي محاولة لأن يحمي نفسه، أراد تغيير الموضوع:

ـ يا ابن الحلال، خاف أنت غلطان بجيتك عليّ، وإذا عندك سالفة لها علاقة بزرع أو سفر فلازم تكون عند غيري، وإذا تريد أخدمك، أساعدك بفد شي أقدر عليه، فأنا حاضر . .

ـ زين . . إذا أنت حاضر . . تفضل وياي!

وفي ثكنة الفرسان، ومثل أي متهم آخر يحاول أن يفلت من التهمة الموجهة إليه، أنكر عارف أية معرفة بالباليوز، وأن الشخص الوحيد الذي يراجعه لأمور تتعلق بالقنصلية، خاصة لاستلام البضائع التي تأتي على مراكب شركة الملاحة الشرقية، هو جميل عقراوي، ولا يعرف أحداً غيره. أما عندما أدخل إلى الغرفة المجاورة، فقد رأى وراء مكتب عريض: ناهي زبانة! قال له ناهي، وبطريقة جدية تصل حدود الصدمة:

ـ ينقضي العمر، يا سيد عارف، وما أنسى مساعدتك!

ولأن عارف زنجاري نظر طويلاً إلى ناهي وصمت، فقد سأله ناهي:

ـ نسيت لو تتذكر؟

ـ . . .

ـ هسه آني وأنت مكشوفين . . ربي كما خلقتني، لو عندك كلام ثاني؟

ولما صمت عارف، وبدا حائراً وخائفاً، قال له ناهي مازحاً:

ـ الله يلعن الشيطان، لأنه أصل النسيان.

وبعد قليل، في محاولة اعتذار:

ـ تفضل مولانا، استريح، أقعد وخلينا نسولف!

وقبل أن يستقر عارف على الكرسي المقابل لناهي، وقد ارتمى عليه مثل قربة نصف ممتلئة، حتى قال ناهي بفخامة؛

ـ زارتنا البركة يا سيد عارف . . شنو تحب تشرب؟

عصر ذلك اليوم، وبعد مناقشات لم تخل من حِدّة، إذ ظل عارف يصرّ على أن علاقته بالباليوز لا تتعدى ترتيب شؤون النقل النهري، وهذا ما

يجعله مضطراً لمراجعة أو الاتصال بالذين ترسلهم القنصلية، إلا أنه وافق في النهاية على أن يبلّغ السراي بكل ما يصل الباليوز من مواد على بواخر الشركة، وأن يبلغ بأسماء الأشخاص الذين تسدد القنصلية أجور سفرهم، أو توصي بهم، واتفق أن يكون عبد الفتاح وجدي واسطة الاتصال.

ورغم أن السراي لم تشر إلى علاقة الآغا بالباليوز، إلا أن المعلومات التي أخذت تتسرب وتشيع حول هذه العلاقة ولّدت قناعة أكيدة أن الآغا من رجال الباليوز، وهذا ما دعا القنصل للسفر، خجلاً من الباشا، وربما لن يعود إلى بغداد مرة أخرى! قال ذلك عدد من الناس، وقال غيرهم: خلوا الصيف، أول نوبة، يخلص، وبعدها تبين القرعة من اللي عندها شعر!

ناجي البكري في قهوة الشط، وهو يستمع إلى الأسئلة تتناثر حوله، ما إذا الآغا من رجال الباليوز، وما إذا القنصل سيعود أم لا؟ قال وهزات رأسه تتوالى دلالة الأسف:

ـ أهل بغداد، مثل ما يقولون، يقرون الممحي، ويلقفونها وهي طايرة، هذي ما ينراد لها سين جيم، لكن ما أعرف شلون فاتهم أن الآغا رضع الحليب من ذاك الزاغور، مو من البارحة واليوم، من سنين. . .

ولأن الجميع ينظرون إلى «الأستاذ» بتقدير، وإن مازجه شيء من الأسف، لأن كلام ناجي البكري يروق لهم، يحبونه، لكن لا يعرفون كيف يمكن أن يتحقق عملياً، وهذا ما يجعلهم يسمعون بانتباه، ويجعلهم حائرين، في نفس الوقت، ومشككين في إمكانية تحقيق هذه الأفكار.

الآن، وهم يسمعون ما يقوله، يكتشفون أنهم نسوا علاقة الآغا بالقنصل في الفترة الأولى من حكم سعيد، إذ كان على وشك أن يعدم بسبب تآمره، لولا أن القنصل، هذا القنصل بالذات، هو الذي شفع له عند سعيد، وتعهد ان يسجنه في الباليوز، ثم اتفق وسعيد أن يسفّر للبصرة للتخلص منه، وكيف ذهب من الشرق وجاء، بعد رحلة طويلة، من الشمال!

بعد فترة صمت، وقد بدت الصور بمخيلة الكثيرين، مشوشة متداخلة،

أضاف ناجي، وبدا صوته مثقلاً:

ـ أما اللي يقولون أن القنصل خجل وانهزم من وجه الباشا، وما له عين يشوفه، فهذا يصير بين صديق وصديقه في القهوة، بين الرِّجال وحرمته ببيته وبليا ما يحس الناس، أما بين الاكبارية، بين الدول، فالعلاقات بينهم غير شكل.

ابتسم، وكأنه تذكر أشياء كثيرة، ثم أكمل:

ـ لو اكو حياء بين هذول، كان شفنا الدنيا غير شكل، كان صارت دهن وعسل. . لكن. .

وحين ظل الذين حوله يسمعون ويهزون رؤوسهم بين فترة وأخرى تأييداً، ختم كلامه:

ـ وظني أنه ما ينقضي الصيف إلا ونشوفه جاي يهفي!

ولأن حسون دخل القهوة، في تلك الأثناء، متعجلاً وألقى نظرة واسعة مكتشفة، وكأنه يبحث عن أحد، فقد علّق هوبي، وكان في طرف الحلقة المحيطة بالأستاذ ناجي:

ـ الله العليم، يا جماعة الخير، ان حسون مولود بليلة القدر. . .

ولأن العبارة بدت غريبة ومفاجئة، فقد التفتت الرؤوس بحثاً عن حسون، واستمر هوبي:

ـ لأن المسعدة، زوجة القنصل، ما تقدر على فراق حسون!

ابتسم ناجي البكري ابتسامة حزينة، وهو يرى أن أغلب الذين حوله أسعدتهم النكتة أكثر مما أقنعهم كلامه، ودفعهم حب الاستطلاع لمعرفة ما وراء لهفة حسون، ونظراته المستطلعة، وهكذا وجد «الأستاذ» نفسه ينهض، ويقول، وهو يبدأ أولى خطواته الثقيلة:

ـ مو بس الحريمة ما تقدر على الفراق، رجلها أزيد. . . وتشوفون!

تبين أن لهفة حسون ونظراته المستطلعة وهو يدخل، أنه يبحث عن خميس النعچلي، حذّاء الخيل، لا ليتفق معه على حذو الحصانين، فقد جرى الاتفاق على ذلك عصر اليوم ذاته، وإنما يريده أن يزيد انتباهه إلى

أقصى حد وهو يقوم بالعمل، وما إذا من المناسب أن يأتي بالحصانين معاً، أم بكل واحد على انفراد، وهل مساميره جديدة ومضبوطة الاطوال، وقال له أخيراً، وقد تجمع حولهما بعض الأصدقاء:

ـ. . . وأريد، يا خميس، وافهمني زين، أن يكون بقلبك رحمة وحنيّة وأنت تشتغل، لأن الخيل، همين إلها روح، مثلنا، تحس وتفتهم، وتتوجع، فأريدك ما تقول لنفسك: هذي حواوين وما لازم ندير بال.

وخميس الذي يهز رأسه موافقاً، ويبتسم، كان يوزع نظراته بين الوجوه التي تتابع الحديث الذي يدور، قال ليطمئن حسون:

ـ راح أتعامل معها، يا حسون الورد، مثل ما يتعامل الواحد مع العين الرمدة: يواش. . يواش، بحيث تنحذي بليا ما تحس، وبعينك راح تشوف!

ـ زين. . زين وعلى بركة الله!

سأل أحد الذين تابعوا الحوار:

ـ بس ما قلت لنا، حسون، أي من الإثنين أغلى عندك؟

نظر للسائل وفرّ يده بسخرية، وكأن مثل هذا لا يُسأل؛ رد كأنه يكلم أطفالاً:

ـ شنو اللي جاب لجاب، وين إنتو رايحين؟

قال آخر في إشارة غير بعيدة لما يرمي إليه:

ـ يجوز اكو أغلى من الاثنين، لكن حسون ما يريد يقرّ ويعترف!

ابتسم حسون بحزن، وجاء رده بحرقة:

ـ ما علينا من أيام قبل؛ نحن أولاد اليوم، وما دامت هذي الأصايل برقبتنا لازم نداريها.

ومر الأسطة اسماعيل، وأدرك أن الطوق يكاد يحكم على حسون، سأل بدعابة:

ـ ها. . شنو جَمعة الخير هذي؟

رد خميس بمكر:

ـ جا حسون، يا أبو حقي، حتى نتفق على حذو الخيل، واتفقنا؛ والجماعة ما فاكّين عنه ياقة: تحب شلال أزيد لو تحب حصان السراي أزيد. . .

وكاد خميس يتابع، إلا أن الذي سأل عن وجود أغلى من الاثنين، قاطعه:

ـ إنت يا أبو حقي تعرف أسرار أكثر من اللي بين الأم وبنتها، فشنو رأيك، حسون يحب أحد أكثر من الخيل؟

ـ حسون قلبه قلب جمل، يحب كل الناس، بس بهذي الأيام، والشهادة لله، ما عنده غير شلال. . وقبل أيام جا الضيف الجديد، حصان السراي.

ـ هذا كل شيء، لو اكو فد شي لاخ؟

هكذا سأل الذي يريد أن يثير شجون حسون؛ وحسون ينقل نظراته بين هؤلاء الذين يتحدثون نيابة عنه، ولا يعرف كيف يجيب أو ماذا يقول.

رد الأسطة اسماعيل بمرح، ولينهي الموضوع أيضاً:

ـ اكو ناس تدوّر بالدفاتر العتيقة، وهذا شغل المفاليس؛ وهسه لو تخيّروا حسون بين ملك ربنا كله وبين شلال، يقول لكم: شلال، شعرة من عرفه، نظرة من عينه، تسوى الأول والتالي. . .

والتفت إلى حسون يسأله:

ـ شتقول حسون؟

ـ آني شنو. . آني منو يا أبو حقي، لو ما شلال؟

التفت حسون بنظرة واسعة للذين حوله، وكان جذلاً لأن الأسطة اسماعيل قال ما كان يريد أن يقوله. هكذا وشت عيناه، وهكذا أكدت ابتسامته، وقبل أن يتحرك قال لخميس ليؤكد الاتفاق:

ـ نحن على اتفاقنا، ومن الغبشة ما تشوفني إلا وآني يمّك، وراح أجيب الثنين سوا. . .

ـ خلص، وآني بانتظارك!

قال سيفو، وهو يرى حسون مغادراً قهوة الشط:

ـ ها.. حسون.. أشوفك رايح من وقت؟

ـ صار لي كومات بالقهوة، عمي أبو فلاح، ولازم اروح.

ـ وين؟ على الخيل؟

ـ الخيل تريدني، تطلبني، ومنو الها غيري، عمي أبو فلاح؟

ـ عفيه، وما تريد من يوصيك!

وأضاف سيفو، لكن حسون لم يسمع، لأن ظلمة أول المساء غيّبته:

ـ لو أكو بكل محلة ببغداد واحد مثل حسون لصارت الدنيا بألف خير، لكن بمقابل حسون أكو كل واحد مثل الصّل، يبرم شواربه ويمسد لحيته، وما يعرف إلا قولة: يا نفسي؛ وما تهمه إلا روحه، وهذا سبب البلاء.

قال سيفو ذلك، وفي ذهنه الملا حمادي الذي بدا مختلفاً عن الكثيرين، إذ كان يشير إلى الصدقات التي تعوّد الآغا تقديمها للفقراء والمساكين، وكيف كان يبعث برجاله إلى أئمة المساجد وإلى وجهاء الأحياء، الملا حمادي، أكد على ذلك ليس قناعة بما فعله الآغا، وإنما نكاية بأولئك الشامتين، ومحاولة للكيد بهم، خاصة بعد أن عرف بالحفلة التي أقامها الأسطة عواد بالمسافرخانة. وأنشد فيها بعض الشعراء قصائد في هجاء الآغا، وغنّى أحد المغنين مقاطع محوّرة من أغنية شعبية كلها شتيمة وسخرية من الآغا!

نادر أفندي الذي وصل فرحه إلى حدود النشوة، بعد أن عرف بإعدام الآغا، وكأنه بهذا الفرح ينتقم لنفسه نتيجة الإذلال الذي كان يمارسه عليه الآغا ورجاله، ليس فقط بالمبالغ الكبيرة من الأموال التي كان يتم سحبها، وإنما بطريقة التعامل، إذ كان يروق لهم ويتعمدون إيذاءه، الأمر الذي لم يقو على احتماله، وكان يسبب له ألماً يصل حدود المرض، ولا أحد يقف إلى جانبه، حتى خلف كان يتخلى عنه، ربما خوفاً من الآغا، أو نكاية به. وقد ذهبت كل محاولات التنبيه والاحتجاج أدراج الرياح!

الآن، بإعدام الآغا، هبط الفرح كله على نادر أفندي، وتعبيراً عن هذا

الفرح لم يفتح أبوابه فقط، بل واشترى كمية من السكاكر ووضعها على الطاولة أمام أنظار الجميع، عارضاً على المهنئين والمراجعين «أن يحلّوا سنونهم!» وإذ لم يبق أحد إلا واستغرب هذا الكرم المفاجيء والاستثنائي من نادر أفندي، فقد لجأ الكثيرون إلى ممازحته، ليس فقط بالكلام الذي يقولونه، وإنما بأخذ كميات كبيرة من هذه السكاكر، مع تعريض لا يخفى:

- هذا المصقول، يا أبو يقظان، مو بس طيب وصنف أول، هذا يعيد القوة والشباب.

- هذا يوم يتأرّخ يا أبو يقظان!

- هذا ازيد من مصقول يا نادر أفندي، هذا دوا يشفي من كل الأمراض!

وعينا نادر أفندي وحدهما اللتان تعملان في تلك اللحظات، لأن مزح الأصدقاء، إذا تجاوز حداً معيناً، ليس بالكلمات، وإنما بتناول كمشة كبيرة من المصقول، يصرخ نادر أفندي:

- خلي بقلبك إنصاف يا ابن الحلال، قلنا: تفضل، ما قلنا: اكرف كرف!

وعلى ضوء رد الفعل يكون موقف نادر. إذا استجاب من يُنَبَّه للملاحظة تمر الأمور بسلام، أما إذا أصرّ وبالغ بمزاحه فيهدر صوت نادر أفندي بوجع:

- شفتو؟ أكبر غلط أن الواحد ينطيكم وجه!

فإذا واصلوا المزاح يصرخ غاضباً:

- يا عباد الله.. هذا ينوكل وحدة.. وحدة، يواش.. يواش، مو مثل التمن والمرق!

وبعد قليل، وهو يجر الطبق الذي كان على طرف الطاولة، قريباً من الأيدي، وهو يقول:

- قلنا حلّوا سنونكم؛ كلوا مما قسم الله؛ ما قلنا هذا مال حرام وتعالوا دمّروه أو احرقوه فد نوبة...

طبيعي لم يستمر احتفال نادر أفندي إلا وقتاً قصيراً، لأنه لا يحتمل

مزاحاً مثل الذي شهده بنفسه، ولأن الآخرين فوجئوا بهذا التغير، وبالغوا بمداعبته أو مناكدته، فانتهز أول فرصة ليغضب ثم ليخفي طبق السكاكر! و«المهنئون» الذين وصلوا بعد الوجبات الأولى، سألت أعينهم، أو تساءلوا عن الحلويات التي يوزعها نادر أفندي، فكان رده عليهم عصبياً:

- جماعة السراي ما تلوق لهم النزاكة ولا يعرفون الأصول. . .

فاذا بدت كلماته غامضة، أو لا تكفي للإجابة على تساؤلاتهم، كان يتابع حانقاً:

- قلنا للي جوا قبلكم: على كيفكم يا جماعة الخير، لأن أكو بعد جماعة راح يمرون، لكنهم مثل الجراد. . أكلوا الأول والتالي. . .

وحين يطيلون وقوفهم علّه يخرج كمية إضافية من السكاكر، ولا يستجيب، تتوالى تعليقاتهم:

- قشمرونا. . قالوا: مَنّ السما ومصقول وراحة الحلقوم، ومثل ما تشوف عيونكم. . كل شي ماكو!

- حتى حبة حامض حلو. . ماكو!

- مو بس هالشكل. . الطاولة نظيفة مثل طيز الحنبلي. . حتى أثر أو ريحة شكرات ماكو!

ويصبر نادر أفندي على هذه التعليقات، يحاول التصرّف كما لو أن الذين أمامه يتحدثون فيما بينهم، وأن كلماتهم لا تعنيه. فإذا أسرفوا، وزاد الأمر عن حد معين، يقول وتخرج الكلمات من بين أسنانه:

- تمَشّوا آغاتي، دوروا على برمكي غيري، لأن نادر، أبو يقظان، عزّل؛ باع وخلّص!

فإذا تباطؤوا، إذا لم يعجبهم كلامه، يقول:

- بديوان الباشا راح يوزعون مو بس شربت، وراحة اسطنبول وشكرلمه، فخفوا رجلكم حتى ما يصير بيكم مثل ما صار بمعايد القريتين!

كان شعور نادر أفندي بالفرح غامراً، ولا يقل عن شعور الباشا، لأنه تخلص من خصم عاتٍ ومسرف، والإسراف، كما قال لنفسه، مثل النار

تأكل نفسها وما حولها، ولا بد أن تصبح الامور منذ الآن أفضل من السابق بكثير. لكن لم تمر أيام ويلتقي بعزرا أفندي، وما كاد يقدم له بضع حبات من السكاكر احتفظ بها له خصيصاً، حتى وجد عزرا ينفعل، ولا يرفض حبات السكر فقط. بل ويرد بحدة:

ـ لا تغرك الأشياء اللي تسمعها، نادر أفندي، لأن القتل والمقتول إذا بلش بالسراي ما يخلص، فالله يستر!

وتغيرت لهجة عزرا:

ـ مو بس هالشكل.. السوق راح يوقف، لأن الخوف أكل قلوب التجار، والجنوب ياكل الأخضر واليابس، وقبض ماكو، وأنت بعينك تشوف: الجماعة ما يعرفون إلا قولة هات؛ وباچر راح يطالبون أزيد من اليوم، وما يندرى شلون نقدر نتحمل، وشنو اللي راح يصير!

نادر أفندي الذي بدا له كلام عزرا منطقياً ولا يخلو من وجاهة، لا يريد أن يبدد فرحه بغياب سيد عليوي بهذه السرعة. قال لنفسه: عزرا بير، بير ما ينحزر على اللي بيه!

ما كادت تنقضي أسابيع قليلة حتى أبلغ الباشا عزرا، وأبلغ عزرا نادر، بضرورة تخصيص مبلغ، وبدا لهما كبيراً جداً، للبدء بتشييد السراي الجديدة، كما أخذت تتوالى أوامر العطايا، خاصة لأغوات الشمال ولعدد من شيوخ القبائل.

وفرح نادر أفندي الذي ظنه سيمتد، كان قصيراً وعابراً.

وهو يطفىء النور في الليلة التي أبلغه عزرا بالمبالغ التي يطالب بها الباشا للسراي الجديدة، قال لنفسه وزفراته تتوالى: «عجيب أمر هذول الحكام، يشوفونا طامسين بالدين، ويا الله.. يا الله تتدبّر معنا خبزة يومنا، ويريدون يبنون السرايات والقصور، منين نجيب فلوس، قابل نخلقها خلقة؟» وفي محاولة لان يخادع النوم ويستدعيه، بدأ يعد غرف القسم الجنوبي من السراي، تعب وهو يعد وهو يتذكر الغرف بأسماء شاغليها، ولأن عدداً من الغرف لا يشغله أحد قرر في اليوم التالي أن يعود إلى جدول

الرواتب، وأن يعد الغرف بنفسه . . ليتأكد! وقد داهمته كوابيس كثيرة في تلك الليلة.

ناطق أفندي الذي كان مشغولاً، أو بكلمات أدق، شغل نفسه، باقتراح زي جديد للحرس الخاص، وللفرقة الموسيقية التابعة للسراي، وقد طلب معونة خطاط الباشا ربحي من أجل تحضير النماذج والألوان، لأنه توصل إلى أفكار اطمأن اليها، وكان بصدد الشروع بكتابة الاقتراحات، حين بلغه خبر إعدام الآغا، وكان رد فعله المباشر، وقد سمعه الكثيرون:

- الآغا لازم يتحاكم، ويجوز ينعدم، على مود الهرقلة، لأنه مو بس رزّل الملابس العسكرية، رزّل السلك كله. كان هو وربعه عبالك مگادي بالخلقان اللي يلبسونها، بينما كان لازم الواحد يبهر الدنيا ويملي العين بالقيافة والهيبة . . .

استراح قليلاً، وقد عادت إلى ذاكرته صور الآغا في مراحل وأماكن عديدة، فأضاف:

- الناس يشوفون ويقدرون، فإذا كان الأعلى رتبة عسكرية، بعد الباشا، هالشكل، شلون نقدر نفرض الاحترام؟ وشلون الناس تهابنا؟

واشتعلت الرغبة في صدر ناطق أفندي أن لا تقتصر اقتراحاته على السراي، وإنما أن تشمل القوات العسكرية كلها، وشط به الخيال في لحظات معينة لو يقترح على الباشا أن يتوحد زي الموظفين أيضاً، وقد يأتي يوم يتوحد فيه زي الشعب كله!

أما حين سمع أن نادر أفندي يوزع السكاكر والحلويات بهذه المناسبة، فقال للذين نقلوا إليه الخبر:

- شكرات نادر أفندي مو بس دوا، هذي حرز، ولازم تنضم لولد الولد، ومجنون اللي ياكلها!

وبعد قليل وكانت لهجته ساخرة:

- ولو صحّت بأيدي واحدة أحطها بقوطية، وأحط القوطية بصندوق، وأحط الصندوق بقبة، وأقفل القبة وأرمي المفتاح بالشط، حتى إذا جا يوم

وطلع المفتاح ببطن سمكة صادها صياد فقير، يقول لنفسه هذا مفتاح قصر الملك وجواه لازم الْقى الكنوز!

ولما سئل لماذا لا يحاول الحصول على حبة من هذه الحلويات، رد وهو يبتسم:

- غيري أولى مني...

وبعد قليل:

- والكنوز ما تطلع على كل وجه!

كان بكلامه هذا يرد على نادر أفندي الذي يمتدح جميع صفاته: الاستقامة والصدق والتفاني في العمل، ويأخذ عليه اثنتين: المبالغة في الأفكار والاقتراحات المتعلقة بالتحسينات التي يجب أن تجري على الملابس والأبنية والحدائق لأنها تكلف مالاً، وأيضاً لأنه يشرب العرق، وإن يكن بشكل سري، ويعتبر أن القسم الأكبر من تلك الأفكار والاقتراحات نتيجة الخراب الذي تحدثه الخمرة في عقل شاربها.

لما بلغ نادر أفندي ما قاله ناطق رد بمكر:

- سهمه موجود حتى لو ما جا، وراح يوصله...

تنفس ملء رئتيه وتابع، فجاء صوته مسكيناً:

- ومثل ما قال غيره: يجوز هذا الدوا ينفعه ويشفيه!

وظل الكثيرون يتذكرون اليوم الذي وزع فيه نادر الحلويات بحيث أصبح يُسمّى، بمرور الوقت، «يوم الشكرات». حتى الباشا الذي نقل إليه فيروز أحداث ذلك اليوم، بكل التفاصيل، علق بمرح:

- بعد الدنيا بها خير، بس لازم نعرف: شكرات نادر أفندي من فلوسنا أو من فلوسه، من جيبنا وقشمرنا، أم فك كيسه.. وقال: تفضلوا يا جماعة الخير؟

113

قبل أن ينتهي الخريف عاد ريتش إلى بغداد، عاد دون أن يحس به الكثيرون، خلافاً لأسفاره السابقة، فقد وصل عند الغروب في عربة مسدلة الستائر. وما عدا الاستقبال السريع من كبار موظفي القنصلية، لم يكن هناك أحد آخر، إذ لم تبلّغ السراي بقدومه، كما ولم تخرج فرقة موسيقى الباليوز لاستقباله. أما وهو يقطع الطريق المتعرجة بين الباب الشرقي وراس القريّة، فقد ظن الذين رأوا العربة أنها لساسون، إذ لديه واحدة تشبهها تماماً، لولا الخيول العديدة التي ترافقها، وقد بدا بعضها آتياً من سفر بعيد، بسبب الغبار الذي كان يجلل راكبيها.

لم يتوقع الكثيرون عودته، لأن غيابه طال وامتد أكثر من أية سفرة سابقة، خاصة وأن رجال السراي أشاعوا بعد أسابيع قليلة من سفره أن القنصل لن يعود، وأكد بعضهم أنه قام بوداع الباشا الوداع الأخير، وكذلك فعل تجاه كبار موظفي الولاية الكبار. أما السبب الذي ادّعاه لهذا الانتقال فهو انحراف صحة زوجته، التي لم تستطع أن تتكيف مع طقس هذه البلاد، ولم يشر إلى أي سبب آخر.

أما بعد أن طال غيابه، كما حصل لقنصل فرنسا، فقد تبرع عدد من رجال السراي، الذين يرتادون السوق التجاري، وتعودوا الجلوس في المقاهي، لإيراد أسباب غير التي ادعاها القنصل. قالوا إن الأمر لا علاقة له البتة بزوجة القنصل، فقد مضى عليها أكثر من عشر سنين في بغداد ولم يُسمع أنها لم تتكيف مع الجو! كما أنها اعتادت أن تقضي معظم الأصياف

في شمال البلاد، أو تسافر إلى خارجها، ويمكن أن تعتبر سفرة هذه السنة مثل سفرات الأعوام الماضية، خاصة وأنها أمرت في الفترة الأخيرة بإقامة أبنية جديدة لتضاف إلى البناء الرئيسي، ثم العناية بالحيوانات والطيور، هذا عدا عن الحدائق التي تكبر وتتسع سنة بعد أخرى بناء لطلبها، كما أشار العمال الذين استعانت بهم.

بعد أن يقدّم رجال السراي هذه الأسباب، يتوقعون أن يسألهم الذين يستمعون عما دفع القنصل لمغادرة بغداد بصورة نهائية. إذا سئلوا فالجواب جاهز، أما إذا لم يواجهوا مثل هذا السؤال، فإنهم لا يتأخرون في تقديم الجواب أيضاً:

ـ ولما انكشفت الأمور، بعد اعتراف الآغا وإفادات الشهود، انحمق الباشا، وقال بصوت عالٍ، وأمام كثيرين: مثل هذا القنصل ما أريد، واكسر رجله إذا طبّ بغداد نوبة ثانية. وما انتظر الباشا: بعث رسول لاسطنبول ومعه رسالة، والرسول بوجهه للسلطان، قابله وقال له كل شي، تعجب السلطان، وقال: هذا ما يصير، وما أقبله بالسلطنة كلها. ومن ساعته كتب للندَرَه، وقال بالرسالة: خذوا قنصلكم لأنّا مثل هيج قنصل ما نريد. وكتبوا رداً وجاوب السلطان، وكتبوا نوبة ثانية وجاوب السلطان، وقال لهم بعد هذا الكلام ماكو كلام، ولما تيقنوا أنه ماكو نتيجة، قالوا: زين، ندزه لحلب، رد السلطان وقال: لا. قالوا ندزه لولاية عكا، رد السلطان وقال لا. ورادوا يقولون مكان ثالث، لكن السلطان قال: بكل سلطنتي الشريفة، بكل ديرة الإسلام، هيج قنصل ما أريد، ولا تراجعوني نوبة ثانية. . .

يستريح من يروي كيف حصلت الأمور، وبعد أن يرى الإعجاب في وجوه الذين يستمعون إليه، يضيف بلهجة الظفر:

ـ ومثل ما تشوف عيونكم، الشهور مرت، وراح تلحقها السنين، وذاك القنصل صار أثراً بعد عين، أو مثل ما يقول أهل بغداد: اللي يعيش بالحيلة لا بد يموت بالقهر!

الآن، بعد أن عاد القنصل، وبعد أن أخذ رجاله يؤكدون هذه العودة، لم يجد رجال السراي الكثير ليقولوه. غمغموا بكلمات حائرة أن الأمر مجرد إشاعات، ولم يضيفوا شيئاً آخر. وحين حاصرتهم الأسئلة والعيون المرتابة، ردوا أنهم ليسوا متأكدين. وقالوا أيضاً إن من صفات أهل بغداد العجلة، وأنهم من البساطة بحيث يصدقون كل ما يقال لهم! ولما تحولت الأسئلة إلى لجاجة، وجرى التذكير بما قيل سابقاً عن الرسائل التي راحت بصورة مستعجلة من بغداد، وما قاله السلطان للندرة، فقد رد الذين قالوا مثل هذا الكلام بحدة:

ـ بس تريدون عزا حتى تلطموا بيه، فعلى كيفكم ليش مستعجلين؟

ولما رأوا الابتسامات في وجوه الذين يسألون، وكانت دلالة هذه الابتسامات لا تخفى، أضافوا بغضب:

ـ خلونا نشوف وجهه أول نوبة، وبعدها، لكل حادث حديث!

كان يمكن لهذا الحديث، أو ما يشابهه، أن يأخذ مدى أوسع في قهوة الشط، لأن لذلك أسباباً أكثر من الأمكنة الأخرى، لولا التغير الذي حصل للحاج صالح العلو، وانشغال معظم رواد القهوة بمتابعته.

فبعد صدمة الحزن التي بدأت في كركوك، تحول الحزن إلى مرض، إذ خيم جو ثقيل على بيت الحاج صالح العلو، خاصة وأن أم قدوري حوّلت الحزن إلى طقس يومي، بالسواد الذي فردته، حتى توقع الكثيرون أن يخطف الموت الحاج صالح، بعد أن أصبح كالشبح نتيجة الهزال الذي ألمّ به، وحوّله إلى كتلة من البياض الشمعي، بالبشرة ولون اللحية والشعر، وبهذه النظرات الساهمة، والبطء بالحركة، مما جعل الأسى والترقب يخيمان على المحلة والقهوة انتظاراً للموت الذي سيأتي لا محالة، إذا لم يكن خلال هذا الفصل، فلا بد أن يكون في الفصل الذي يليه؛ لكن ما حدث هو العكس تماماً.

إذ بعد زيارة خلف، وما رواه حول مقتل بدري، وأن الآغا كان هو سؤول، وقد اعترف بذلك أقرب رجاله، فإن الحاج صالح الذي استعاد

أولاده ما قال خلف مرة واثنتين، ثم كرر السؤال مرة أخرى في اليوم التالي، وفي اليوم الذي يليه، ما لبث أن ظهر عليه التغير في الأيام اللاحقة، وبطريقة أثارت الإعجاب والتساؤل.

صحيح أن التغير كان قليلاً وبطيئاً، لكن أول من لاحظه حسون ثم سيفو. وأول إشارة كانت تجاه شلال. فالحاج صالح الذي لم يكن يرغب في الاقتراب من حصان بدري، وكان إذا وقعت عليه عينه، ولو صدفة أو للحظات، تنتهي تلك النظرة، أغلب الأحيان، بدمعة تنحدر من العينين لتتخلل اللحية البيضاء ثم تغيب فيها، الأمر الذي جعل قدوري يفكر بالتخلص من شلال، إلا أن إصرار نعيم على الرفض، وتلك العناية التي يوليها له، أدى إلى اتفاق بين الاثنين: أن يُرفع جدار الحديقة الخلفية، وأن يكون خروج شلال من بابٍ في نهاية الحديقة، يوصل إلى الشارع مباشرة، وقد أدى هذا الحل إلى تجنيب الحاج صالح رؤية الحصان إلا في أحوال قليلة.

الآن، بعد زيارة خلف، وما كادت تنقضي أيام على وصول حصان السراي، حتى جاء الحاج صالح إلى القسم الخلفي من الحديقة لرؤية الحصان الجديد، هكذا كانت البداية.

حسون يروي ما حصل بطريقة مشوشة، إذ بالإضافة إلى أنه فوجىء برؤية الحاج صالح، ولم يصدّق عينيه خلال اللحظات الأولى، إلا أن المشية البطيئة والتقدم الثابت نحو الخيل، ثم وقوفه الطويل، وهو يتأمل الحصانين، وأخيراً رؤيته للحاج وهو يبكي، وكان بكاؤه أقرب إلى النشيج، جعل حسون ذاته ينخرط في موجة من البكاء. لقد فاجأه حزن كثيف سيطر عليه، ويشبه ذلك الحزن الذي شعر به في الأيام الأولى لمقتل بدري، الأمر الذي لم يمكّنه من مراقبة أو ملاحظة انسحاب الحاج صالح، مما سبّب له حيرة شديدة، إذ لم يكن متأكداً: هل ما وقع حقيقة أم وهماً، وبالتالي لم يخبر سوى سيفو.

في اليوم التالي جاء الحاج صالح مرة أخرى، وفي هذه المرة كان سيفو

أيضاً. تحدث الحاج مع الاثنين، وتحدث مع الخيل، مع شلال بشكل خاص. صحيح أن صوته كان بطيئاً لا يكاد يسمع إلا بصعوبة، إلا أنه استعاض عن الكلام بإطعام الخيل قطعات من السكر. وقد ظهر الفرح على سيفو، بحيث أنه لم يسمع ما قاله حسون، بعد أن غادر الحاج صالح.

عبر سيفو، كالبرق، إلى الرصافة، إلى الشورجه، دون أن يمر بقهوة الشط، ودون أن يستجيب لدعوات عديدة وجهت إليه. قال لنعيم بانفعال لم يستطع أن يخفيه:

ـ أبشرك: ترى الحجي جا اليوم يمّ الخيل، وقف ويانا وسولف. طبطب على ظهر شلال وسأله: شلونك. . والعلامة أنه طعّمه فص شكر

ونعيم الذي لم يصدق ما تسمعه أذناه، وقد ظهر عليه الانفعال، لم يتوقف عن السؤال:

ـ متأكد أبو فلاح؟ أنت شفته؟ وشقال بعد؟ متأكد؟ أكو أحد غيرك شافه؟

كان نعيم يسأل وهو يبدل ملابسه، وكان لا يقوى على الانتظار، إذ يريد أن يرى، أن يتأكد بنفسه.

في اليوم الثالث، وكان الثلاثة في حظيرة الخيل، جاء الحاج صالح وهو يحمل طاسة متوسطة الحجم مليئة بالشعير. كانت مشيته بطيئة، لكن ثابتة. تطلع إليهم وابتسم، ثم توجه إلى الحصانين. أطعم شلال مقداراً من الشعير، ثم سحب الطاسة وأخذ يطعم حصان السراي. وفجأة التفت نحوهم، وسأل حسون:

ـ شسمه هذا الحصان؟

وسط الفرح، والذي بلغ حد الذهول، وهم يحيطون به، قال نعيم، وكان يطوق كتف أبيه:

ـ ماكو غيرك. . يسميه!

كانوا يتطلعون إلى وجوه بعض، ويتطلعون إلى الحاج صالح، غير مصدقين، وغير قادرين على كتمان الفرح الذي اشتعل في قلوبهم. وأبو

قدوري الذي يضيء وجهه بابتسامة دون أن تنفرج شفتاه، شعر أنه أمام تحدٍ غير سهل، لما طلب منه ابنه أن يطلق اسماً على الحصان. مرت لحظات صمت، وجاء بعدها صوته خافتاً:

ـ شنو رأيكم لو نسميه: عايد؟

ورغم أنه كان لحصان السراي اسم، وقد اختُلف حوله كما اختُلف على اسم شلال، فإن الاسم الجديد لاءمه إلى درجة لم يعد الحصان يستجيب إلا إذا نودي بهذا الإسم، خاصة إذا ناداه الحاج صالح!

فرح الكثيرون، الأقرباء والأصدقاء والجوار، ثم في قهوة الشط، ومحلات الكرخ كلها، ثم في الصوب الآخر، خاصة في السوق التجاري، أن الحاج صالح أخذ يتعافى، ويستعيد قوته، ولا بد أن يعود إلى حالته الطبيعية. هذا الفرح انتقل، كالعدوى، إلى الآخرين. ومثلما توقع الذين يرتادون قهوة الشط أن يروا الحاج صالح بينهم، ولا بد أن يحصل ذلك بين يوم وآخر، خاصة بعد أن أصبح حسون يقدم «نشرة» كل مساء في القهوة حول ما قاله الحاج للخيل، وكيف عاملها، وماذا اقترح بشأن مشاويرها اليومية وغسلها، فإن الكثيرين في السوق التجاري لم يملّوا من توجيه الأسئلة لنعيم أو قدوري ما إذا آن الأوان لكي يروا الحاج في السوق، كانوا يسألون بعبارات تطفح بالشوق والود الحقيقي.

سيفو الذي كان حائراً طوال الفترة الماضية حول العمل الذي يناسبه، بعد أن هجر مهنته السابقة، تبين أن المبلغ الذي جمعه، أو الذي جُمع له دون أن يدري عند المختار، الحاج علاوي، كبيراً إلى درجة لم يصدقه عقله، أعطى قسماً لفطيم، وجعله هذا يؤجل اتخاذ القرار. أما الآن، وبعد أن جاء الحصان الثاني، ثم تحسن صحة الحاج صالح، فلم يعد قادراً على أن يفارق الحاج، كما أصبحت الحاجة إليه ماسة، خاصة بعد أن جاء من اقترح على نعيم شراء بستان توفيق المدرّس المعروض للبيع والقريب من المحلة، إذ يمكن أن يصبح سلوى للحاج، الذي له سابق اهتمام بالورد والزرع، كما يمكن أن تنقل الخيول إلى هناك. وقد لاقى الاقتراح قبولاً،

وتم إنجاز عملية الشراء في جلسة واحدة، ودون مساومات، وأصبح سيفو المسؤول الأول، عن إدارة العمل!

هذه التطورات شغلت قهوة الشط تماماً، حتى أن الكثيرين وجهوا نقداً أقرب إلى اللوم، لا يُعرف لمن، لأن أياً منهم لم يفكر بحلول كهذه من قبل، إذ لو وُجدت لوفرت جهداً ووقتاً، كما كان من شأنها أن تجنّب أو تقلل الأحزان التي خيمت منذ مقتل بدري. ولما دار الحديث حول الأمر مرة وثانية في قهوة الشط، وقال الأسطة اسماعيل أن أهل بغداد أذكياء، لكن ينقصهم شيء لا يعرف بالضبط ما هو.

ذنون، الذي كان يقف صامتاً، ردّ بطريقة لا تخلو من عتاب:

ـ لو قايلين من قبل، الله يصلحكم، كان خلصنا من كل هالمشاكل!

ولما بدا كلامه غامضاً، أو لا يعرف الذين يسمعون وجه الخطأ، تابع موضحاً:

ـ بستان الأعظمية يلعب فيه الخيّال، وطول أيام السنة فارغ. . .

وبعد قليل وبحزن:

ـ البستان والحوش ببطنه، وعلى بعد خطوتين الشط، وهمين أبو البستان، كلها كانت على حسابكم، بس لو قايلين يا أولاد الحلال!

تطلع الأسطة عواد إلى وجوه الذين حوله، وكان يهز رأسه أسفاً، استقرت نظرته على وجه الأسطة اسماعيل، وخرجت كلماته بطيئة:

ـ صدق. . أبو حقي، ليش هذي فاتتنا؟

ـ مو بس هذي فاتتنا، أبو نجم، فاتتنا أشياء وأشياء!

ورغم أن بعض الموجودين أشار إلى استحالة هذا الحل في وقت سابق، ليس فقط لبعد الأعظمية، بل ولأن الحاج صالح كان في وضع صعب، ولم يتجاوزه إلا بعد تأكده ان دم ابنه، بدري، لم يذهب هدراً، فقد عرف القاتل، الذي هو الآغا، ونال جزاءه، وهذا هو السبب الذي عجّل بشفائه.

ولم يترك ذنون هذه الفرصة تفوته، قال، بعد أن أراح نفسه على

المقعد، ليبدأ حديثاً طويلاً:

ـ الصحة والمرض، يا جماعة الخير، بالعقل مو بالجسد؛ صحيح أن الجسد هو اللي يمرض، أو يبين عليه المرض، لكن الدماغ هو السبب.

ورغم أن العيون كانت تتابعه، إلا أن الموجودين تبادلوا النظرات فيما بينهم، وكأنهم، رغم الموافقة على ما يقول، يعتبرون كلامه ناقصاً أو يحتمل شيئاً من الخطأ، وقد أحس ذنون بالأمر، فتابع بلهجة جديدة:

ـ البني آدم يزعل، ينقهر، يحصر، وهذي وين تروح؟ وين تصير؟ بالدماغ، وهناك، بالدماغ، تبدأ الحسبة، وإذا بدأت الحسبة يتخربط كل شي: النفس تعاف الأكل؛ العين ما تعرف النوم؛ وساعة بعد ساعة، يوم بعد يوم، يشوف البني آدم أن كل شي صار يوجعه، فإذا ما تلاحق روحه يجوز يخلص.

بدا كلامه للذين يتابعونه أكثر وضوحاً، وربما مفهوماً، لكن لم يكن كافياً؛ أضاف:

ـ مكتوب بالكتب أن الإنسان يقدر على كل شي. يقدر يطيب من المرض إذا أراد، ويقدر يتحمل الوجع والعطش والجوع، إذا أراد وصمم. أما إذا خاف، أو قال ما أقدر أو ماكو چاره، فيتكوّم، وبعدها يخلص، ولا كأنه كان.

استراح قليلاً، ثم ختم كلامه بطريقة حازمة:

ـ المهم الإرادة. أي نعم، الإرادة كل شي، هي اللي ترفع الإنسان، وهي اللي تنصّيه، وهذا الكلام اللي أقوله مو بس بالكتب مكتوب، كل واحد منا يعرفه، ويجوز عاشه، أو سمع به، وإذا ما كذبني ربي، هذا اللي قاله الحاج صالح لروحه، وهذا اللي سواه!

لاقى الكلام الذي قاله سيد ذنون قبولاً، بل إعجاباً، من الذين يستمعون، وكاد أن يضيف أشياء أخرى، لكن وجد أنه ليس لديه أمثلة أكثر إقناعاً من المثل الذي قدمه، ويعرفه الجميع، فقال لينهي كلامه:

ـ ولازم نعرف أن قوة الواحد من قوة ربعه.

توالت هزات الرؤوس دلالة الاقتناع والموافقة، وتاه كل واحد في عالمه الخاص يفكر ويتذكر ويستدعي الأمثلة التي تؤكد ما سمع.

وهكذا طغت هذه القضية على ما عداها في قهوة الشط. أما عندما وصل الحاج صالح العلو، ذات مساء، أواخر الخريف، إلى قهوة الشط، فكان لوصوله بهجة لم تشهد مثلها القهوة منذ وقت طويل، وإن امتزج ذلك بمسحة حزن ذكّرت بتلك الليلة التي أقيم فيها الاحتفال بخطوبة بدري.

وصل الحاج صالح بصحبة سيفو. كان يتوكأ على عصا، أو بالأحرى ينقلها نقلاً هادئاً موزوناً دون أن يكون بحاجة ماسة لها، ولكنها تجعله أكثر اطمئناناً. وكان حسون يريد أن يحول هذه المناسبة إلى فرح كبير، إذ كان لا ينفك يتقدم الاثنين ويشير بيديه، بوجهه، إلى قدوم الحاج صالح، ويريد أن ينبّه الجميع لذلك، في الوقت الذي يريد سيفو أن يعتبر الأمر عادياً، ولا يستدعي خلق ضجة أو إثارة الذين يمرون.

في لحظة معينة، وحسون يبالغ في الحركة، صرخ سيفو عليه بغضب:

ـ الزم القاع لك حسون، لا تخبصنا، ولا تهرج الدنيا!

وحسون الذي استغرب اللهجة، نظر إلى الحاج صالح وكأنه يريد أن يستعين به على سيفو، فجاءه صوته بطيئاً لكنه حازم:

ـ مثل ما قال لك أبو فلاح، على كيفك، يواش يواش...

وحين بدا الاستغراب على وجه حسون، كأنه لا يوافق، تابع الحاج صالح:

ـ وإلا أرجع، ما اطبّ القهوة!

قال بعض الذين رأوا الحاج صالح يدلف إلى قهوة الشط، إنهم لم يصدقوا أعينهم. وقال الذين أمعنوا النظر إلى وجهه، وهو يجلس وسط مجموعة الأصدقاء، إنهم كانوا يرون كتلة من البياض كأنها النور. وأكد هؤلاء وغيرهم أن الهيئة لم تتغير، عدا البياض الناصع للّحية، وقد أضفى على الوجه والملامح لوناً جديداً ومختلفاً عن السابق؛ وقالوا أيضاً إن النحافة، والصوت الخافت جعلا الحاج صالح شخصاً يستثير الحب

والشفقة معاً.

الكثيرون كانت تجتاحهم الرغبة في أن يحتضنوا الضيف، أن يعبروا عن شوقهم وسرورهم بعودته، وأن يكون بينهم من جديد، لكن الطوق الذي أحاط به، وقد صنعه سيفو بمهارة لا تخلو من مكر، ثم تلك الهشاشة التي تتبدى بالحركات والنظرة، جعلت الكثيرين يعبّرون بالكلمات، بنظرات العيون، عما يكنّون لهذا العائد الذي طال غيابه. أكثر من ذلك، كان الأسطة عواد يريد لهذه العودة أن تتكرر، أن تصبح يومية، لذلك كان يبادر، حين يقبل المعارف والأصدقاء للسلام، إلى التنبيه بصوت عالٍ:

ـ على كيفكم يا معودين، لأن الحجي تعب من رد السلام. . .

ولئلا يساء فهم كلامه، يضيف بمرح:

ـ ومن الليلة راح نقيّد بسجل التفقد: الحجي تأخر: حسم راتب؛ الحجي ماجا: حسم وجزا. . .

والتفت إلى الحاج صالح وسأله:

ـ مو هالشكل، حجي؟ موافِق؟

ـ تمون. . أبو نجم، يرد الحاج صالح، وشكو عندنا غير ربعنا وقهوة الشط؟

ولأن عودة الحاج صالح العلو إلى قهوة الشط، صادفت نفس الفترة التي عاد خلالها ريتش إلى بغداد، فإن عودة الأخير لم يفطن لها الكثيرون. وحين عرفوا هزوا رؤوسهم وقد أثقلهم الهم، وتوقعوا أشياء كثيرة، خاصة بعد أن أخذت تترجع في العقول والقلوب ذكريات أيام سابقة، وكانت أبرز هذه الذكريات: الآغا، وما عرف عن علاقته بالقنصل!

114

عاد ريتش إلى بغداد، هذه المرة، إنساناً آخر. فبعد رحلته الأوروبية، أو خلالها، والتي استمرت أربعة شهور وبضعة أيام، تقدم في العمر أعواماً عديدة، أو هكذا بدا لمن يعرفه. هذا التغير لم يكن من حيث الشكل وحده وإنما بطريقة التصرف أيضاً. أصبح أقل ميلاً للسخرية من السراي، وأكثر تحفظاً في الحديث عن معظم الأمور، كما بدا أقل انفعالاً حين يصدر الأوامر، أو وهو يكلف رجاله بأعمال معينة.

ما كادت أيام قليلة تنقضي على وصوله حتى بعث بمترجمه جوزيف ديراني، لإبلاغ السراي أنه عاد ويطلب تحديد موعد لمقابلة الوالي.

وإذا كانت العادة أن يتولى بطرس يعقوب القيام بمثل هذه المهمة، فإنه بعد أن سافر مع ريتش لم يعد، إذ بقي في إحدى محطات الطريق، أو أرسل إلى مكان آمن، ريثما تتهيأ الفرصة لاستدعائه إلى بغداد من جديد.

ورغم أن أياً من المترجمين يمكنه أن يقوم بمثل هذه المهمة، غير «أن بطرس أنسب لعلاقات الخارج» كما يقول ريتش لنفسه، في الوقت الذي كان يتولى الديراني ترجمة الكتب والرسائل. وهذا الاختيار بسبب أن بطرس يعرف كيف يحمل الآخرين على الكلام، لأنه مطلع على معلومات تخص هؤلاء، كما يجيد المزاح، مما يساعده في الحصول على معلومات تمكّن ريتش من التأكد حول صحة ما يصله من أخبار وتعليقات. أما الديراني فإنه «رجل مكاتب وليس رجل علاقات».

بأقل الكلمات، ودون أية مجاملات أو أحاديث جانبية، أبلغ الديراني

بوصول القنصل أولاً، ثم طلب موعداً مع الباشا للتحية وتقديم الاحترام.

ولأن السراي كانت على معرفة بقدوم القنصل، عن طريق مسؤولي محطات الطريق، والقائمين على البوابة التي دخل منها، وقد وصلت تلك الأخبار بسرعة، مع تفاصيل تتعلق بعدد المرافقين والخيول والاحمال، إضافة إلى معلومات تم الحصول عليها من المرافقين، وأيضاً بالفراسة والتقدير، فإن صفوت قرداغ، وهو يستقبل الديراني، أبدى استغرابه لوصول القنصل، إذ لو أبلغت السراي لأوفدت ممثلاً عنها لاستقباله، كما جرت العادة في أوقات سابقة. أما وإن هذا لم يحصل، ولأن أوقات الباشا مزدحمة، فسوف يتم إيفاد موظف من السراي لتقديم التحية والتهنئة بسلامة الوصول، وسيتولى إبلاغ القنصل بالموعد.

ناطق أفندي الذي قام بهذه الزيارة إلى الباليوز، رفع إلى الباشا تقريراً، حاول وهو يكتبه أن يختصر الكثير من مظاهر الإعجاب. كتب: «... وكان الجميع على معرفة بموعد وصولي، وقد تم استقبالي، كممثل لفخامة الباشا، بشكل رسمي لائق، إذ صدح البوق معلناً الوصول، وعند البوابة الكبيرة، وقد فتحت على اتساعها للدخول، أدت مجموعة الحراسة التحية بكثير من الوقار، وما إن وقفت العربة حتى وجدت كبير موظفي المقيمية، ميناس، في استقبالي، وكان جميع من مررت بهم في أبهى الحلل وأعلى درجات النظام. وحالما ترجلت شنفت الموسيقى أذني، ثم طلب إليّ أن أتفقد حرس الشرف، وكانت ملابس هؤلاء تختلف عن الذين مررت بهم، فهي أقرب إلى السواد، مع قبعات عالية مزينة، ولولا الرهبة، أو ربما الخجل، لدققت بالهيئة والملابس والشارات أكثر مما فعلت، لكن المشاعر التي انتابتني في تلك اللحظات جعلتني لا أفعل ذلك، وهذا ما ألوم نفسي عليه كثيراً.

«أما وميناس يطلب مني أن أتوجه إلى الداخل، فقد شعرت بالرغبة أن ألقي نظرة على الحديقة والزهور، لأنها في غاية الفتنة والكمال، لكن حركته النظامية لم تمهل بالمقدار الكافي؛ أما المجاز الطويل الذي يقود إلى

الداخل فإنه أشبه بالمجازات التي تقود إلى المدافن، خاصة من حيث الضوء الخافت، والرائحة الثقيلة، وتلك الأشياء الموضوعة على الجوانب أو في الزوايا. المجاز يقود إلى غرفة فسيحة للتوقف قليلاً، ريثما يتخفف الزائر من الأشياء الزائدة: العباءات أو الفوانيس والعصي غير المزخرفة، وحتى الهدايا الثقيلة التي يأتي بها بعض الزوار، كما أسرَّ لي أحد المرافقين، حين استأذن ميناس لإبلاغ القنصل بوصولي.

«في القاعة الكبيرة التي تم فيها استقبالي، كان القنصل وأركانه. جرى اللقاء في منتصف المسافة، وأكاد أجزم بذلك، إذ كان القنصل، وأنا أدخل، في أقصى القاعة، تقدم نحوي في الوقت الذي بدأت أولى خطواتي باتجاهه، وقد التقينا في الوسط تماماً. سلّم مع ابتسامة صغيرة، وتعمد أن يخاطبني بالعربية، إذ قال: أرحب بممثل فخامة الوالي. وبعد المصافحة، قدم لي رجاله بالترتيب واحداً بعد آخر، وكانوا جميعاً يلبسون أزياء سوداء على الطريقة الأوروباوية، حتى ليصعب التمييز بين واحد وآخر.

«نقلت إليه تحيات والينا أطال الله بقاءه، وأفدت أن الزيارة جاءت لهذه الغاية، وأعلمته أن الموعد الذي رامه سيكون قبل ظهر الخميس، ولم أجد مناسباً أن نتحدث في أمور أخرى.

«سوف نرفع لوالينا، المؤيد ببركات السماء، كتاباً لاحقاً حول الأزياء التي يرتديها الحرس والموظفون وأعوان الباليوز، لكن ما لفت نظرنا، أن القاعة الكبرى كانت تزدان بالطنافس الفخمة، وبالتصاوير على الجدران، وبموقد محفور داخل الحائط، وكان الحطب مكوماً، لكن بطريقة بالغة التنظيم.

«وواجب الأمانة يقتضي أن أشير إلى أمر أثار استنكاري وعدم ارتياحي، وربما لاحظ القنصل ومساعدوه ذلك، وهو وجود كلب صغير كان ينتقل على رسله بين الحضور، وقد اقترب مني وتشمم حذائي وملابسي أكثر مما فعل تجاه الآخرين، الأمر الذي لم أرتح له، وقد صددته أكثر من مرة، مما جعل القنصل يخاطبه بلغة أجنبية، فاتجه نحوه وجلس ما

تبقى من الوقت عند قدميه.

«لم أشأ أن اخوض في أية موضوعات، وكنت أكتفي بكلمات قليلة جواباً على الأسئلة التي وُجهت إليّ، وكلها تتناول الطقس والمسافات بين المدن. وقد وجه إليّ نائب القنصل سؤالاً ما إذا هناك كتاب حول الأغاني البغدادية، وهل هي نفس الأغاني التي يرددها الناس في المدن الأخرى، فأجبته أن هذه الأغاني تُحفظ ولا تدوّن، ولكل مدينة أغانيها! أما وهو يسألني حول الأزياء التي يرتديها الناس، خاصة في بغداد، هل تغيرت حسب ما أتذكر أم هي ذاتها لم يلحقها التغيير، فكان لدي ما أقوله حول الموضوع، لكن تمنعت، إذ يمكن أن يؤدي الخوض فيه إلى موضوعات أخرى، وهذا أمر لا أرغب فيه. وبعد أن خيم الصمت، وتعمدت أن يكون واضحاً، إعلاناً أن ليس لدي ما أضيفه، استأذنت بالانصراف، وقد ودعت بالطريقة التي استُقبلت بها.

«فخامة والينا أدام الله عزه، سوف أدوّن لكم في وقت لاحق مشاهدات موسعة حول هذه الزيارة. وإذا طاب لكم الاستفسار حول أمر من الأمور فخادمكم في حالة جاهزية كاملة.

«ويجب أن أبادر للتأكيد أن سعادة القنصل طلب مني أن أحمل لكم عميق التحيات وبالغ التقدير، راجياً لكم كل الصحة ووافر السعادة.»

حين سأل ناطق أفندي خلف عن تقرير الزيارة، وما إذا لاقى قبولاً من الباشا، رد خلف مازحاً:

ـ قال: عفاريم، ومثل ناطق بالدنيا ما نلقى، لأنه يعرف منو بزر النغل ومنو حفر النهر!

ولما تحولت ابتسامته إلى قهقهة، ولم يستطع ناطق أفندي أن يفسرها، تابع خلف وهو يطبطب على كتفه:

ـ ويقول: كلامك جواهر، وكتابتك كلش راقية، لكن لو تختصر، لأن الباشا ماكو عنده وقت يقرا معلقات!

ـ يعني عجبه اللي قلته؟

ـ هذي ما ينراد لها سؤال، ناطق أفندي، بس أنت تعرف: وقت الباشا ضيق، ولو راد يقرا كل شي تنعمي عيونه قبل ما يخلص قراية، فعلى كيفك، ومثل ما قال: إذا كان الكلام من فضة فإن الاختصار من ذهب!

وفي يوم الخميس توجه موكب القنصل لزيارة السراي.

رغم حرص ريتش أن يكون موكبه فخماً، مثل ذاك الذي كان فيه حين زار السراي للقاء الباشا أول مرة، وما خلفه من فضول لدى الكثيرين الذين اصطفوا على جانبي الطريق الذي سلكه، ففي هذه المرة، ومع أن الموسيقى النحاسية الصادحة كانت تعلن قدومه من مسافة كبيرة، وترافقها موسيقى القرب الناعمة، ظل أغلب الناس، ومعظم الدكاكين، وحتى رواد المقاهي، ظلوا جميعاً على حالهم، لم يتحركوا، سمعوا وتساءلوا للحظات ثم عادوا إلى ما كانوا فيه من أحاديث وانشغالات. وما عدا أشخاص قليلين من المتسكعين والأطفال وبعض العاطلين، لم يكن هناك فضول أو رغبة بالتفرج والمتابعة. حتى مراد الذي وقف في باب قهوته، حين عبر الموكب، وقال بصوت سمعه الكثيرون: «تفضلوا مولانا، تفضلوا،» وقد سمعه القنصل وابتسم، فإن رواد القهوة ظلوا على حالهم، وربما تشاغلوا أكثر من قبل لئلا يبدو عليهم الاهتمام.

قال ريتش لنفسه، وقال لرجاله، بعد أن عاد من لقاء الباشا:

ـ عجيب أمر أهل بغداد: يحبون بإسراف، ويكرهون بإسراف، ولا أعرف لماذا تغيروا بهذا المقدار، خلال هذه الفترة القصيرة.

ولأن صمتاً ثقيلاً خيم على الذين يتحدث إليهم، إذ ليس لديهم ما يقولونه، فقد أضاف:

ـ ربما يخافون أكثر مما ينبغي؛ وقد يكون انقطاعنا الطويل عنهم جعلهم ينسون ماذا تعني المقيمية.

وتذكر ريتش الوصايا التي أوصى بها هايني ورجال القنصلية قبل أن يسافر:

ـ «يجب أن ننتبه لفورة الدم التي تصيب هؤلاء الناس، فما أن تقع

أحداث، يرافقها القتل، حتى يصابوا بحالة من الهياج يفقدون معها وعيهم ويتحولون إلى وحوش، وفي هذه الحالة لا بد أن نبتعد عن طريقهم، أن لا نظهر أمامهم، وإلا تحولنا إلى أهداف سهلة لهم، وعندها يصبون علينا كل غضبهم.»

ورغم أنه كان لميناس رأي مختلف، إذ أن التحفظ الزائد، يولد قناعة لدى الطرف الآخر أننا خائفون أو مقرّون بالذنب الذي ينسب إلينا، لذلك فمن الأفضل بقاء كل شيء كما هو، خاصة وأن هذه البلاد تعودت على أحداث مشابهة، وغالباً ما يعتبر الخائف أو المتواري مسؤولاً، ولو لم يكن كذلك لما خاف ولما توارى.

لم يوافق ريتش على هذا الرأي، لأن الجميع يعتبرون الآغا صديقاً للمقيمية وللقنصل بالذات، وهذا ما جعل الباشا يصرّ على إعدامه. وتذكر ريتش كيف كان الباشا مراوغاً، إذ بدا مهذباً أكثر من أية مرة سابقة، وكان ميالاً للخوض في مواضيع عديدة، كل ذلك كي لا يتطرق إلى موضوع الآغا. أما عبارات الأسف التي أبداها؛ أما الادعاء أنه لو طُلب منه لعفا عنه، فلم تكن لتفوت ريتش أو تخدعه. لقد نفذ حكم الإعدام قبل أن يجف حبر الحكم عليه، لئلا يراجعه أحد، لئلا يقع تحت ضغط أحد، حتى لو كان السلطان نفسه.

يشعر ريتش الآن، بعد أن التقى الباشا مجدداً، أن ميناس كان على حق، فخلال غيابه تسنى للسراي أن تقنع الجميع بمسؤولية القنصلية، ولا يُعرف ماذا لفقت أيضاً، لكي يبدو الباشا بنظر مواطنيه ضحية الأجانب الذين يتآمرون عليه، وأنهم استطاعوا الوصول إلى أقرب رجاله، الآغا، ودفعوه للتآمر ومحاولة التخلص منه، خاصة وأن رجال المقيمية ظلوا صامتين طوال الفترة الماضية. لم يقولوا كلمة واحدة لدحض أكاذيب السراي، وكأنهم بهذا السلوك يؤكدون صحة كل ما يشاع أو ينسب إليهم.

لقد تركزت مخاوف ريتش، حين أعطى تلك الوصايا، وكانت أقرب إلى الأوامر، لأن العناصر التي اعتمد عليها انكشفت، ولا بد له من إعادة

التنظيم مجدداً، واتّباع سياسة مختلفة. كما تولدت لديه شكوك أن مواطني هذه البلاد لا يؤتمنون بالمقدار الكافي، إذ بالإضافة إلى خوفهم، فإنهم مهددون دوماً، إذا لم يكن بأشخاصهم مباشرة، فمن خلال أقاربهم وأصدقائهم، وهذا ما يجعلهم هشين في مواجهة السراي، وإلا كيف يمكن تفسير اعترافات روجينا، وربما غيرها؟ وهل هناك اختراقات أخرى لا تظهر له الآن، ولكن ستنفجر في وجهه خلال فترة لاحقة؟

صحيح أن خسارة الآغا كبيرة، لكن الذي جعل ريتش متشائماً أكثر هو سقوط الرهان على مَنْ افترضه بداية الإنقاذ: خالد أفندي، ثعلب الصحراء الاغبر.

فهذا الرجل الموكلة إليه شؤون العراق في اسطنبول، وكان على دراية بأمور هذه الولاية، وقد تعوّد أثناء زياراته أن يكون الضيف الشخصي لريتش، بحيث توثقت بينهما العلاقة إلى درجة أن يقول له خالد أفندي ليس فقط ما يعرفه بل وما يفكر فيه من خطوات قادمة أيضاً، خاصة بعد أن يتناول كأساً من هذا المشروب الذي كان يقول عنه مازحاً «لو لم تكن لبريطانيا أية ميزة، وفيها كل العيوب، فإن ما يشفع لها أنها صنعت الويسكي، وهذا ما يجعلها أمة عظيمة إلى قيام الساعة».

رهان ريتش، وهو يزور اسطنبول، أن يقنع خالد أفندي بالتخلي عن داود. ومما جعل هذا الرهان أكثر إمكانية أن عزرا كتب لأخيه حسقيل رسالة ببذل كل الجهود لدى خالد أفندي «كي يجعل صديقه عاقلاً، لأنه بدأ يلعب بذيله». كما أشار في الرسالة ذاتها «أن سعادة القنصل سوف يطلعكم على وقائع كثيرة».

إذا لم يشأ خالد أفندي أن يتخلى عن داود باشا تماماً، فيمكن أن تدخل الشكوك إلى قلبه، يمكن أن يُضغط عليه، انتظاراً لفرصة قادمة. ولا بد أن يصبح داود عندها متحسباً أو ربما خائفاً أن تنقلب عليه اسطنبول، وعند ذاك يستطيع ريتش أن يتدخل بصورة أو أخرى، إما بترويض داود، وجعله مثل الولاة السابقين، أو بإسقاطه. وهذا ما سوف يساعد خالد أفندي على

تحقيقه. وهذا ما جعل ريتش يجمد اتصالاته وتحركاته في بغداد انتظاراً للوصول إلى مثل هذا الاتفاق في اسطنبول مع خالد أفندي.

لكن المفاجأة الكبرى التي واجهته، ولم يكن يريدها، خاصة في هذا الوقت، ان اسطنبول سبقته إلى موقف حسمت فيه الشكوك والتساؤلات حول خالد أفندي!

فقبل أسابيع قليلة من وصول ريتش إلى اسطنبول، اضطرب رجال الحكم في دار السلطنة، بعد أن توفرت معلومات، أثبتها الشهود وأكدتها الوقائع، أن خالد أفندي عميل إنكليزي، وان له علاقات بلندره، ثم بالسفارة في اسطنبول، منذ وقت طويل. ولأنه كان كذلك فقد أساء إلى أقصى حد، سواء بالمعلومات التي قدمها، أو بالآثار التي خلّفها، مما ألحق أضراراً بالغة بسمعة السلطان وبمصالح الدولة السنية، خاصة في علاقتها بفرنسا. وقد تقاضى لقاء ذلك مبالغ كبيرة، مما شكل خيانة عظمى. وبعد اعتراف خالد أفندي أثناء المحاكمة، وتأييد ذلك بشهادات الشهود، فقد صادق السلطان على حكم الإعدام الذي أصدرته المحكمة، ونفذ فيه الحكم بعد فترة من صدوره.

كان لإعدام خالد أفندي وقع الصاعقة على ريتش. فقد أمّل الكثير من علاقته بهذا الصديق، والذي يمكن أن يقدم خدمات جلّى؛ ولطالما فكر ريتش وخطط طوال أيام السفر بالاقتراحات التي من شأنها أن تعيد الأمور إلى حالة تساعده على تحقيق أفكاره. فماذا يستطيع الآن؟ ولماذا تعاكسه الأقدار بهذا الشكل وتجعله يفقد أقوى ركيزتين في بغداد أولاً، بغياب الآغا، ثم بغياب خالد أفندي، هنا، في اسطنبول؟

هل أصبحت بريطانيا العظمى ورجالها هدفاً لهذا النمط من الرجال المتوحشين، ولهذه العقلية التي تسيطر في اسطنبول؟

يتذكر سفرته السابقة قبل ثلاث سنوات إلى اسطنبول، وكان في طريقه إلى لندن؛ كانت اسطنبول لا تخفي فرحها حين عرفت بهروب نابليون من منفاه، إذ فجأة كشرت عن أنيابها وأظهرت كل عدائها لبريطانيا، ظناً منها

أن الفرصة قد واتت، وأن نابليون سيستعيد قوته ومجده، ويقلب الأمور رأساً على عقب، ونابليون، كأي مغامر، أعطى الانطباع أنه جاء ليبقى، لكن ما كادت المائة يوم تنقضي، ويتم اصطياده مرة أخرى، ويرسل إلى سانت هيلانة، حتى تنفست بريطانيا الصعداء، وتأكد أن القبض عليه هذه المرة لن يتيح له حتى فرصة الحلم، ولا بد أن ينتهي في تلك الجزيرة المعزولة الموحشة.

كيف تفكر اسطنبول هذه المرة، بعد أن أعدمت خالد أفندي، وشددت رقابتها على السفارة، هل تظن وتتأمل بعودة جديدة لنابليون؟ هل حان الوقت لتصفي حساباتها مع بريطانيا؟ ومحمود الثاني، هذا السلطان الحاكم والحالم، هل يظن أن تغيير قبعات الجنود يغيّر عقولهم؟ يجعلهم نمطاً آخر من البشر ومن المحاربين؟

تختلط الأفكار في ذهن ريتش وتتداخل، ويكتشف أن السفير في اسطنبول أشد منه حيرة وضياعاً.

حسقيل، بعد أن قرأ رسالة عزرا، وبعد أن استمع إليه يستعرض أمامه تصرفات داود، قال، وخرج صوته من أعماق بعيدة:

- لا أهتم بالسياسة إلا بقدر تأثيرها على الأوضاع الاقتصادية والمالية. عدا ذلك لا تعني لي السياسة شيئاً، ولا أحب أن أصدع رأسي بخصومات هؤلاء الحمقى!

- ولكن تصرفات وخصومات هؤلاء الحمقى تنعكس على كل شيء، خاصة على التجارة، هذه حقيقة لا يمكن أن يهرب منها الإنسان.

- كل ما ابتعدنا عن حماقاتهم كان ذلك أفضل.

- ولكن حماقاتهم تلاحقنا حتى لو أردنا أن نبتعد!

- ماذا تظن يا مستر ريتش مشاكلكم إزاء المشاكل التي تواجهنا هنا؟

ولم يترك له حسقيل أن يشرح، فقد اندفع يوضح كيف أن السلطنة تواجه في المرحلة الحالية وضعاً مضطرباً، وتتنازعها تيارات متضاربة، فالسلطان، القليل التجربة، يفترض أن تغيير شكل الدولة سيؤدي إلى

تغيُّرها في العمق، ولذلك اندفع إلى الصراع دون حيطة، ودخل في معارك لا يعرف أحد نتائجها. انه يتعارك مع وزرائه، مع رجال الدين، مع قادة الجند، ويريد أن تتغير السلطنة بين يوم وآخر. وإذا كان الآخرون يهزون رؤوسهم دلالة الموافقة، فإنهم غير راضين، ويحاولون ما وسعهم أن يمنعوا تحقيق ما يفكر فيه السلطان. وفي ظل هذا الاضطراب، وقد وصل إلى حد الفوضى، من الهام جداً أن نفكر كيف نحمي رؤوسنا أولاً، ثم أن نحمي مصالحنا.

ريتش الذي لم يكن له اعتراض على ما يقوله حسقيل، كان يريد أن يصل إلى اقتراحات عملية من أجل دعم وضعه في بغداد. قال ليعطي الحديث مساراً محدداً:

ـ التغيير، لكي يحصل، يحتاج إلى إمكانيات، وهذه لا توفرها إلا الأموال، ومن أجل تأمين تلك الأموال لا بد من الاتفاق على صيغة بين الدولة والذين يملكون المال، وهنا يأتي دوركم!

ارتاب حسقيل. نظر من جديد إلى هذا القنصل الذي يبدو ذكياً وذا إرادة قوية، لكن تنقصه الخبرة، وقد تنقصه أيضاً معرفة طبيعة هذه البلاد، قال في نفسه، وقد تذكر أياماً قديمة: «إذا كانت مغامرة عزرا قد نجحت سابقاً، فإن نجاح المغامرات استثناء في العادة، وهذا ما يهمله صغار السن، وعلى الأكبر منهم أن لا يتعبوا من تنبيههم، حتى لو أغضبوهم في بعض الأحيان».

بعد هذه النظرة الطويلة، سأل، وحمّل لهجته مقداراً من الشك:

ـ ألا تعتقد، يا مستر ريتش، أن هؤلاء الحكام من الشراهة إلى درجة لا يمكن إرضاؤهم أبداً؟

ـ إنهم دوماً يطالبون بالمزيد، ومالك المال وحده يستطيع أن يقول لا أو نعم، وهذا ما يجعل رجال السلطة لا يسرفون كثيراً في أحلامهم.

ـ ولكن أصحاب السلطة قد يرغمون مالكي المال، ويضطرونهم للدفع.

ـ يمكن أن يفعلوا ذلك لبعض الوقت وليس لكل الوقت.

ـ ومن هم أصحاب المال الذين يستطيعون أن يقولوا: لا.

ـ وما هي السلطة دون مال، دون قوة مادية؟

لم تطل المناقشة بين الاثنين، قال حسقيل، وقد شابت صوته بحة خفيفة:

ـ سوف أبلغ عزرا أننا لم نعد قادرين على تسديد ما يستحق للسلطنة على بغداد إلا إذا جرى تحويل الأموال فعلاً، وعليكم أن تتدبروا أموركم هناك.

ـ هذا ما أريده منك يا حسقيل أفندي، وهذا يكفيني الآن.

أما في مباحثات ريتش مع سفيره في اسطنبول، فقد أكد على ضرورة أن تفهم السفارة طموحات داود ومحاولاته في أن يبتعد عن اسطنبول، فإذا تُرك ليمضي في هذا الطريق، لا بد أن يسبب متاعب كبيرة لأطراف عديدة، وعلى السفارة، وعلى السفير بالذات، الإدراك أن السلطنة دون بغداد ستكون عرجاء، وسوف تواجه متاعب لا نهاية لها، ولذلك يجب أن تبذل الجهود من أجل إزاحة داود.. قبل فوات الأوان.

اكتفى ريتش بهذه الحصيلة التي توصل إليها، على أن يتابع الأمر في لندن، ويمكن بعدها أن يبلور خطة لمواجهة داود، إمّا باخضاعه أو بالتخلص منه، وسوف تكون لندن أكثر قدرة على فهم أفكاره ودوافعه، وهذا ما توصل إليه فعلاً.

115

«بغداد مدينة خادعة» هكذا قال ريتش لنفسه، وهو عائد من ديوان الباشا. فالعيون الصادة، والوجوه الكتيمة التي يمر بها لا تقول شيئاً واضحاً، ومع ذلك تعبر عن الكثير. وإذا افترض سابقاً أنه أصبح على دراية بهذه المدينة وناسها نتيجة إقامته الطويلة، ومن خلال المعلومات التي تصله، يكتشف الآن أنه لا يعرف إلا القليل. يكتشف أن أفكار الناس وعواطفهم تغلفها طبقات سميكة من البعد والانكار والمجهول، حتى لكأنه لم يعش قط هنا طوال هذه المدة.

هل كان الناس هكذا من قبل أم تغيروا؟ والتغيُّر. . إذا حصل، هل يقع بهذه السرعة وبهذا المقدار أم أن داود سيطر عليهم كالمرض، فجعلهم لا ينظرون إلا إليه، ولا يتوقعون أن يحصل شيء إلا إذا أراد؟

وتذكر هو وتذكر الكثيرون، كيف أن ديوان السراي لم يكن شيئاً مقارنة بديوان القنصل، وأن كبار موظفي الدولة قبل أن يتوجهوا إلى مكاتبهم، كانوا يمرون بديوان القنصل، للسلام، للتشاور حول القضايا الهامة، وهناك كانت تتخذ القرارات ويتم تلقي التوجيهات.

حتى الأغوات وشيوخ القبائل، كانوا إذا جاؤوا بزيارة إلى بغداد، يمرون بالباليوز قبل أو بعد زيارة الباشا، ومن ريتش ورجاله كانوا يتلقون العطايا والهدايا، ومعها يُطلب منهم، سرياً، وكلٌ على انفراد، أشياء كثيرة!

دار القنصلية التي كانت هكذا خلال حكم عدة ولاة سبقوا داود، تلقت

أول رسالة مختلفة بعد شهور قليلة من استلام داود باشا للسلطة. كانت الرسالة غير مباشرة، لكن واضحة. فالاعدامات التي طالت عدداً من المناوئين، الذين كانوا مع سعيد، وكان لأغلبهم علاقة بالباليوز، استثنت أبرز اثنين كانا لاجئين لدى القنصل، استثنت عبد الله بك ودرويش آغا. صحيح أنهما دفعا فدية لقاء تحريرهما، وكانت تلك الفدية كبيرة، لكن ما كانا ليستطيعان ذلك لولا استعداد الباشا لقبولها، خاصة وأنها لم تُطلب من غيرهما، وكانت هذه بمثابة رسالة لريتش تعبر عن الرغبة بعلاقة من نمط جديد مختلف.

استلم ريتش الرسالة، لكنه كان على يقين أن داود مهما حاول ليبدو مختلفاً عن الولاة الذين سبقوه لا بد أن يصبح مثلهم أو شبيهاً بهم. قد يحتاج الأمر لبعض الوقت، أو لتجارب إضافية، لكنه سيصل. أما بعد الاعدامات فقد أصبح ريتش أكثر حذراً: «لأن هذا الوالي جمع من الصفات الشرقية مقداراً مضاعفاً، فقد حمل من الشرق البعيد، من جورجيا، روح المغامرة ورغبة الاقتحام، ومن الشرق القريب المكر والمجاملة والصبر، مما يقتضي أن يصطدم مرة وثانية بالحقائق، وأن يتأكد من قوة الامبراطورية البريطانية، قبل أن يصبح إنساناً سوياً كاملاً، أو أن يتحطم رأسه كالماعز الجبلي إذا أراد أن يستمر في العناد».

ولئلا تقع المعارك قبل الأوان، فقد حوّل ريتش ديوان القنصلية إلى لقاءات في بعض المناسبات، وكان يدعو إليها عدداً غير قليل من رجال السراي، كي يروا، ثم لينقلوا إلى الباشا، أن القنصل، بالحفلات التي يقيمها أو باللقاءات التي تجري في دار القنصلية، ليس لديه أية نوايا سيئة تجاه الوالي أو تجاه الولاية.

وزيادة في الحيطة تحولت العلاقات والاتصالات من العلن إلى السر، ومن النهار إلى الليل. ولجأ ريتش إلى تشجيع الطامحين والمنافسين ليكونوا أداة في يده للضغط على داود عند الضرورة، فإذا استجاب يمكن أن تبقى الأمور عند هذا الحد، أما إذا عاند وركبه الغرور فعندئذٍ ستكون

لديه خيارات أخرى يمكن أن يلجأ إليها.

لكن بعد إعدام الآغا، اكتشف ريتش أنه خسر أوراقاً كثيرة دفعة واحدة، إذ بالإضافة إلى خسارة الآغا ذاته، والتي لن تعوض خلال فترة قصيرة، فإن انكشاف عدد من عناصره، بطرس أولاً، ثم روجينا، وعارف زنجاري، لا تعتبر خسائر فقط، بل تدلل على مدى اختراق الباشا لعلاقاته، الأمر الذي يقتضي أن يعيد النظر بخطته كلها.

ولأنه عاد، بعد هذه الزيارة الطويلة لأوروبا، والمشاورات التي أجراها في لندن، بتصور أكثر وضوحاً لما يجب أن يقوم به، فلم يكن في عجلة من أمره. سوف يترك بعض الوقت يمر، لأن الزمن دواء للأمراض المجهولة أو المستعصية، إذ وحده يتدبر أمرها، إما بنسيانها، أو بأن يجعلها تقضي على المرض والمريض معاً!

لو أن الظروف واتت كان بمقدور الآغا أن يجهز على داود، أن يجعله أثراً بعد عين، كما فعل مع سعيد، لكن داود، هذه المرة، كان أسرع، كان أكثر مكراً. إذ بعد أن أبعد الآغا إلى الشمال، جرّده من قواه، وجعله ألعوبة حين استدرجه إلى بغداد وحيداً ثم أجهز عليه. ولأن الآغا كان شديد الثقة بنفسه، ويتصور أنه قادر على اجتراح المعجزات، فقد جاء تحت وهم أن مجرد وجوده في بغداد سوف يجعله في مركز قوي، ومن ثم سينقض على داود، وكأن الأمر مبارزة، أو عراكاً بالأيدي بين اثنين، يتقرر بنتيجته الفائز!

لم يفطن الآغا لمكر داود، ولم يقدّر أن بعده الطويل جعل الناس ينسونه. ثم إن صراعاً مثل هذا تقرره موازين القوى، والظروف التي تحيط بكل واحد من المتصارعين، وليس الشجاعة الفردية، أو روح المغامرة؛ ولو أنه استشار أحداً لأخذت الأمور مساراً مختلفاً. وتذكر ريتش كيف أنه أشار عليه بالانتظار إلى حين انتهاء معارك الجنوب. لقد أوفد إليه بطرس يعقوب ليقول له كلمات محددة: «إذا لم تضمن ثورة الشمال، وأنه كله معك، فالأفضل انتظار فرصة أخرى، وقت أفضل» وكان الآغا، كما أكد له بطرس، موافقاً، فما الذي جعله يغير رأيه، ويستجيب، بهذه السهولة،

لدعوة داود باشا من أجل التشاور، ثم الوصول إلى هذه النهاية البائسة؟

أصبح ريتش الآن أكثر قناعة أن داود لن يلين ويخضع إلا إذا واجه خطراً حقيقياً، وهذا لن يتأتى عن طريق البدو، فالبدو يزعجون، يخلقون المتاعب، لكنهم غير قادرين وحدهم على إسقاط الوالي، لأن الولاة أشد ما يخشون أن يموتوا اختناقاً من خلال الحصار الذي يفرض عليهم، من خلال القوات المنظمة التي تملك القدرة على الاقتحام. أما المناوشات، أما التهديد من بعيد، فإن ذلك قد يولد القلق، ويسبّب بعض المضايقات، لكنه لا يؤدي إلى التسليم وتغيير الذين يحكمون.

ليس هذا فقط، إن استمرار الحروب مع البدو من شأنه أن يستنزف الوالي، لكنه لا يسقطه، وهذا ما أكد عليه ريتش من خلال الرسالة التي بعث بها مع بطرس يعقوب إلى الآغا. قال له بوضوح: «لتطل الحرب في الجنوب ولتمتد. هذا يهيىء مناخاً مناسباً، لأنه بالإضافة إلى خسارة الأموال الطائلة، فإن القوات المحاربة حين تعجز عن تحقيق النصر، ويحل بها التعب والملل، زيادة على الخسائر، سوف تصبح قوات مرشحة للنقمة والارتداد، وعند ذاك يأتي دورك،» لكن حسابات الآغا، كما يبدو، كانت مختلفة.

الآن، من خلال الاتفاق الذي جرى مع حسقيل؛ وبتحريض الشمال، وليس بالاعتماد على قائد كان في الشمال؛ ثم الاتفاق مع كرمنشاه، يمكن أن تتهيأ الفرص من أجل مواجهة هذا الوالي الذي يريد أن يذهب بعيداً إذا لم يجد أحداً يقف في وجهه.

116

بعد ان انتهى من الآغا، التفت داود باشا الى إعادة تنظيم امور الدولة. أجرى مناقلات واسعة، كما بعث عدداً من ضباطه الى الجنوب، وكان على رأس هؤلاء طلعت باقة.

كانت الصفة التي أعطيت لطلعت انه المستشار العسكري للكيخيا، وقد طلب منه الباشا ان يتولى الامور الأساسية «لأن يحيى بك برأسه الف شغلة» وأضاف مداعباً: «وهو بالعسكرية مثل ما انت بالصوم والصلاة!».

فعل الباشا ذلك لان حملة الجنوب طالت، وتولد شعور لدى القبائل المتمردة ان قوات الحكومة عاجزة، وقد أدى هذا لان تعلن قبائل اخرى العصيان، اذا لم يكن بحمل السلاح، فبالامتناع عن أداء ما يستحق عليها من التزامات مالية، مما استدعى ضرورة التعجيل بانهاء المعركة، واللجوء الى كل الوسائل.

طلعت لم يكن بحاجة الى وصايا كثيرة، فقد شعر بالإهانة لان الآغا خدعه طوال الفترة الماضية، كما قدّر ان الظروف اصبحت مؤاتية الآن لاثبات جدارته في الامور العسكرية من جديد، لان ما كان يقال عن شجاعته وكفاءته، خاصة حين قاتل الى جانب داود في الشمال، تحديداً في كركوك، وكيف اصبح اسمه على كل شفة ولسان... ان هذه الصورة تراجعت او تلاشت من ذاكرة الكثيرين، بعد ان أبعد الى الشمال، وزاد في غيابه اسلوب الآغا في التعامل مع رجاله، خاصة معه.

الآن تتاح له الفرصة من جديد، وهذا ما جعله يندفع بحماسة من أجل

إعادة تنظيم قوات الحملة التي تواجه البدو، وان يضع خططاً ومواعيد جديدة لكي يحسم المعركة، مستفيداً من تعب وضجر عدة قبائل حليفة مجاورة، هبت أول الامر لنجدة قبائل الفرات الاوسط، أما وقد طال انتظار المعركة، ولا يبدو في الافق انها وشيكة، فقد بدأت هذه القبائل بالعودة الى مساكنها الصيفية، معلنة، لتبرير الانسحاب، انها مستعدة للمجيء من جديد «اذا باشا بغداد يريد يحارب من صدق!».

الكيخيا الذي طاب له المقام في قيادته الجديدة بالقرب من الحلة، لم يكن في عجلة من امره، بعد ان دخل الصيف الكبير، فهو على قناعة اكيدة ان البدو لا يحسنون الحرب بشكل نظامي، وان أفضل طريقة لالحاق الهزيمة بهم ان تجعلهم في حالة خوف وانتظار، دون الدخول معهم في مواجهة عسكرية، وبإشعارهم ايضاً ان الحرب على الابواب. هذه الطريقة من شأنها ان تحطم أعصابهم، وان تجعلهم حائرين، اذ لا يستطيعون العودة بسهولة الى حياتهم العادية السابقة، كما لا يعرفون متى او أين يمكن ان تقع المعركة، «وعندذاك يحومون، كما قال الكيخيا لمرافقه العسكري، كالفراش الذي يحوم حول النار، يحومون. . يحومون وبعدين يطبّون على وجوههم جوا النار. . . ويحترقون!»

ليس هذا فقط، فالكيخيا الذي طال الحجر عليه في الجناح الغربي من السراي، حتى انه شعر بالتعفن هناك، كان بحاجة، لاستعادة الثقة بنفسه، ان يتأكد ان له وحده الحق باصدار الاوامر، ووحده الآمر الناهي، فهو الذي يمنح الترقيات ويعاقب، وله وحده تدقّ الطبول حين يأتي، وله وحده ينفخ في البوق حين يستعرض الجنود! ولان كل هذا تحقق له في موقعه الجديد، فلا حاجة للاستعجال بالعودة الى بغداد قبل ان يشبع هذه الرغبات، ولا بد ان يعود على رأس جيش منتصر حقق الكثير، ليعرف الناس من هو الكيخيا يحيى.

طلعت باقة، حين التحق بالحملة، قدم تحياته واحترامه، وهو يضع نفسه تحت تصرف الكيخيا، وأبلغه انه جاء ليكون في خدمته ورهن

إشارته، ولم يطل الوقت ليصبح صديقاً له، خاصة وقد اكتشف الاثنان أن لهما هوايات مشتركة، وكان أول من نبه طلعت بك الى ذلك رستم قاورد. ففي العشاء الأول الذي ضمهما وحدهما، بعد أن قدم رستم «الشوربة الخاصة» ليحيى بك، غمز بعينه سائلاً طلعت بك إذا كان يفضّل هذا النوع من الشوربة، فرد عليه طلعت بمداعبة:

ـ الزينة ما ينراد لها سؤال يا معوّد. . .

وبعد قليل، في محاولة لتسويغ مثل هذه الموافقة:

ـ بهذا الحر ماكو أحسن من الشوربة، أو اللبن.

أما بعد أن تذوق مقداراً قليلاً من هذا الحساء الخاص، فقد رفع عينيه بسرعة الى الكيخيا ثم إلى رستم، فوجدهما ينظران إليه. ابتسم، وقال لرستم:

ـ سبحانه، ما يقطع عباده، ومثل ما رب العالمين سخّر الهدهد لسليمان سخّرك إلنا بهذا التشول!

ومع أن معرفة سابقة كانت تجمع بين الكيخيا وطلعت باقة، الا ان هذه الرابطة الجديدة جعلت الاثنين أكثر قدرة على التفاهم، وسهلت لطلعت بك التصرف بكل شيء له علاقة بالأمور العسكرية للحملة، وقد تنازل الكيخيا عن هذه المهام بطيب خاطر، وان ظلت له الكلمة الأساسية أمام الجميع!

ولأن الصيف ثقيل غامر، ووهج الضوء، وهو ينصب من السماء المكشوفة، يغشي العيون، فقد حوّل الكيخيا ليله إلى نهار، اذ في قسم من هذا الليل يتذاكر وضباطه، ويستقبل وجهاء وشيوخ المنطقة، وما تبقى من الليل يقضيه في الأكل والسمر، وبعض الأحيان في سماع الوان من الغناء الريفي الذي يفضله على غناء بغداد، كما قال لطلعت في تبرير ذلك. أما القسم الأكبر من النهار فإنه يمضي وهو نائم، أو متلبث في غرفته التي تملؤها رائحة العاقول الرطب، لفرط ما تتدفق المياه على الشبابيك. ولا يبدأ اليوم الجديد إلا بعد غداء يتبارى رستم وجمولي في التفنن بإعداده.

هذا النمط من الحياة اذا كان يروق لطلعت في وقت سابق، ربما لأنه لا يجد شيئاً يفعله، خاصة حين كان مبعداً في الشمال، فإنه الآن، وفي مواجهة الحرب والتحدي، ولكي يعود إلى صورته القديمة، فلا بد أن يهيىء نفسه وقواته لعمل كبير، وأن يحقق نصراً يمكن تحت ظلاله أن يعود إلى بغداد. لذلك فان إقامته في الحلة، الى جانب الكيخيا، لم تستمر طويلاً، فقد كان مضطراً لتفقد القطعات المنتشرة، وأن يتدبر أمور التموين والتدريب، وأن يناقش التفاصيل مع القادة الميدانيين، وكان مصمماً قبل أن ينتصف الخريف، على حسم المعركة.

كانت العلاقة مع بغداد، ومع الباشا بالذات، في بداية الأمر، تتم عن طريق الكيخيا، لكن أصبحت الضرورة الآن تقضي أن تكون هناك صلة مباشرة. وهكذا أصبحت الرسائل تتوالى وأصبح الموفدون بين طلعت بك وبغداد يجدون بعض الصعوبة في معرفة مكانه أو الوصول إليه، بل وأصبح عدد من ضباطه يستغرب هذه الحركة النشيطة، وهذا التغير الذي طرأ عليه!

قال الباشا لخلف حين عرف أن نادر أفندي امتنع عن دفع كامل المبلغ الذي طلب منه لشراء مستلزمات إضافية للحملة:

ـ هذا الجراب نادر، ما يتوب، لكن الحق مو عليه، لأن الثلم الأعوج من الثور الكبير، من عزرا. فصيح عليه حتى نشوف شنو السالفة ونخصمها وياه.

وقبل أن يغادر خلف لاستدعاء عزرا أفندي تابع الباشا وابتسامة حزينة ترتسم على شفتيه:

ـ هذا الأثول، نادر أفندي، لا بد يكون به عرق يهودي، لأن مثل هذا الحرص مو شغلة عادة تعودها، هذا شيء يسري بالدم، لكن قبل ما نعاقبه ونلزّمه الباب، خلنا نشوف معلمه، عزرا، شنو براسه!

لما مثل عزرا بين يدي الباشا، كان بادي الانشراح، أقرب الى المرح، وقبل أن يسأله الباشا انطلق في الحديث:

ـ أهل بغداد، يا باشا، ما عندهم هالأيام إلا سالفة ساسون، واحد يسرّ

للثاني: عرفت أن ساسون راح يتزوج بنت سلطانة؟ عرفت أن ساسون ترك الأول والتالي وقاعد مقابل سلطانة وبنتها، نصف سكران، وثلاثة أرباع مغروم، وبإيده الدف وكل ساعة يصيح: أوف وأمان!

والباشا الذي سمع أطرافاً من الأحاديث التي تدور حول ساسون، ولم يشأ أن يسمع التفاصيل، أو أن يتابع ما جرى بعد ذلك، معتبراً الأمر عادياً، ولا يستحق السؤال، يجد أن وزير ماليته شديد الاهتمام بهذا الأمر وسعيد وهو يروي ذلك.

لما لاحظ عزرا أن الباشا استمع إليه لكنه لم يحفل بالأمر، ولم يسأله عن أية تفاصيل اضافية، صمت. أحس أن لدى الباشا هموماً أخرى. فرك يديه مرات عديدة، مثل عادته حين يكون متحسباً، وانتظر.

قال الباشا، بعد أن ترك للصمت مساحة تتيح البدء بحديث جديد:

ـ لا بد من الشهادة، يا عزرا أفندي، أن الفضل لك أنت وجماعتك، في ترتيب الأمور المالية، ولولا حرصكم واهتمامكم يجوز واجهنا مصاعب كبيرة، لكن تعرف أن الحرب تحتاج، والدولة تحتاج، وما نريد بين يوم والثاني نقول لنادر افندي، وغير نادر أفندي، أعطونا من مال الله، ما نريد نشحذ. . .

توقف الباشا قليلاً. أخذ نفساً عميقاً وبدا الهم على قسماته، نظر الى عزرا نظرة عتاب، وأضاف:

ـ الحرص إذا زاد عن حده، يا عزرا أفندي، ينقلب الى ضده. يصير تأخير لاشغالنا، وخطر علينا، وهذا ما أريده وما أقبل به. . .

وارتسمت على شفتيه ابتسامة صغيرة مشفقة وهو يضيف:

ـ وهذا المسيكين، نادر، نقول له: صير آدمي، افهم وتعلم، إدفع بليّا إهانة، بليا دوخة راس، لكن أبد: ما أدفع إلا إذا وافق عزرا أفندي، فاريد منك تفهمه، تقول له شلون يتصرف، وإلا!

ـ لكن بناء على أوامركم، يا باشا، قلنا له: لا تدفع إلا بعد ما تتأكد، ولازم تكون حريص، وأنتم تعرفون مدى أمانته واستقامته، وتعرفون طمع

الناس وشلون ما يشبعون، فإذا اخطأ او قصّر فاطلب منكم السماح، يا باشا!

ـ هذي مو أول نوبة يا عزرا افندي، وبالأيام الأخيرة زاد عن قبل، وتجاوز حده، فإذا يعجبك اليوم قبل باچر نلزّمه الباب، نقول له يا حريص دور ربعك، شوف لك مكان ثاني، لكن لثقتنا به، ولأنه ابن حلال، وأنت تعتمد عليه، ردنا نعطيه فرصة جديدة، وهذي لخاطرك مو لخاطر أحد!

ومثلما ترك الباشا للصمت أن يخلق جواً لحديث جديد، فعل عزرا. إذ بعد أن لم يجد رداً مباشراً لاقناع الباشا صمت، وحين امتد الصمت ثقيلاً مديداً، بدأ بعده حديث جديد:

ـ كنت، يا باشا، انتظر الوقت المناسب لأبحث معكم القضايا المالية. . .

حاول أن يبتسم قبل أن يواصل في نفس الاتجاه، فجاءت ابتسامته فجة، أقرب إلى التكشير، فأضاف ليربط الامور ببعضها:

ـ ومثل ما قلتم فخامتكم، نادر مسكين، ومع أنه يعاند ويتعيقل، لكن بالأخير يدفع، والمسألة أكبر وأخطر من هذه التصرفات. . .

تطلع إليه الباشا باهتمام، فقد أحس أن لديه أمراً يريد أن يبلغه به، سأل دون ان يظهر عليه الإنفعال:

ـ خير، عزرا أفندي، وأنت تعرف: ماكو بيّنا حاجز وبواب، فإذا عندك فد شي قول.

ـ جاءت أكثر من رسالة من اسطنبول، وكلها طلبات ومواعيد، والجماعة اللي اعتمدنا عليهم هناك قالوا: نحن بضيق ما نقدر ندفع، ومن اليوم لازم تدبروا حالكم بنفسكم، ومن الساعة اللي استلمت الرسالة، يا باشا، راسي دايخ، ما أدري شنو اللازم نسويه وشنو اللي نقدر عليه.

أخذ الباشا نفساً عميقاً دلّ على ما يواجهه من هموم وتحديات، ولم يتركه عزرا، تابع:

ـ ولو أن جماعتنا، هنا وهنا، يصدقون بمواعيدهم، ويعرفون اللي

بذمتهم، لهانت المسألة، ناخذ من هنا ونعطي لهنا، لكن شكاوي رجال المالية اللي أسمعها مية نوبة باليوم: «ماكو». «ماكو أحد يريد يدفع». وإذا الواحد يريد يدفع يدفع الربع أو الخمس وبشلعان القلب. وكلهم يرددون نفس البستة: لو بعنا اللي فوقانا واللي جوانا ما نقدر نوفي، فنريد مهلة، نريد نقسّط، وما أعرف شلون نتصرف وياهم!

وتوالت هزات رأس الباشا، دون أن يتكلم وقد استغل عزرا هذا الصمت ليواصل:

ـ وبعدين الحرب، يا باشا، ومصاريفها، وانقطاع الولايات الجنوبية، لان ماكو هناك ابن حلال يقول: لكم بذمتي هالقد، وهذا اللي أقدر عليه هسه، وبينا الحساب.

ـ والرأي؟

ـ وضعنا، يا باشا، مخوطر، وإذا بعدنا واقفين اليوم، ما يندرى شنو اللي يحصل ثاني يوم..

وتغيرت لهجة عزرا:

ـ ويجوز هذا الأثول، نادر، بعد ما قريت على رأسه الدرس مية نوبة، ولأن ما دخل صندوقه بارة، خاف وتحسّب، وبدل ما يشد حزامه هناك سوّد وجهنا وياكم يا باشا، وصار ما يعرف إلا قولة: ماكو!

ولأن الباشا ليس بالبساطة التي يمكن أن يخدع، أو يفوته ما يرد إلى الخزينة، وما يصرف، فقد رد على عزرا، بعد أن تنحنح وعدل جلسته:

ـ مسألة اسطنبول، يا عزرا، اتركها، أنا أتفاهم ويّا اسطنبول. واذا الحرب يندفع عليها اليوم، فتعوض ثاني يوم. ولخاطرك راح أمدد فترة بناء السراي الجديدة، راح اخليها بدل سنتين ثلاث سنين. لكن بعد الساعة، وبدءاً من هذا اليوم، كل أمر صرف من الديوان، عليه الختم والتوقيع ينصرف دون تأخير، دون سؤال، وهذا الكلام تبلغه لكل من يلزم، وما أعيده نوبة ثانية!

بهذا الإتفاق شعر كل واحد من الاثنين أنه انتزع مكسباً من الآخر.

ونادر افندي الذي تلقى تعليمات واضحة من عزرا، قبل أن يغادر السراي، وبحضور خلف، قال والدموع تنسكب من عينيه دون أن يقوى على منعها:

ـ إذا ظلت الحال هالشكل، راح نگدي، يا عزرا افندي!

ـ ما عليك يا أبو يقظان، إنت ادفع وآني المسؤول!

ـ واذا خلصت الفلوس؟

ـ بجهنم، قابل نحن نقدر نحيي الموتى؟ قابل الواحد منا يقدر يصير مثل نبي الله موسى، يقول للعصا تغيري فإذا هي حية تسعى؟

ـ أبوس ايدك، يا عزرا أفندي، أريد أستعفي، حتى لا عين تشوف ولا قلب يحزن، لأني ما أقدر أشوف الفلوس تحترق، وآني أباوع.

ابتسم عزرا، ثم تحولت الابتسامة إلى ضحكة صغيرة أقرب إلى القهقهة المصطنعة، وتابع:

ـ يا أبو يقظان. . انت بحنيتك على الفلوس، وبعيونك اللي تشبه عيون الصقر، تقدر تمنع اللقامة والطامعين، وتقدر تباوع الآغا والشيخ، وإذا ما قال لسانك، عينك تقول: سم! وبعدين ان تكون انت احسن ما يجي واحد غيرك عينه مالحة وما يعرف الحلال من الحرام، ويدمر الأول والتالي. فرأيي تبقى، ورأيي تصرف، وتسكت، لأن هذا قدرنا، وهذا اللي الله كتبه علينا!

ـ لخاطرك يا عزرا افندي، أوافق وأقبل، لكن الفلس اللي ينصرف بغير مكانه، بدون استحقاقه، راح أنفسه، يمكن الله يحرقه قبل ما يوصل لجيب ابن الحرام!

ـ عفارم، يا أبو يقظان، وهذا اللي أريده منك.

لقد جرى هذا الحوار بين الاثنين، وخلف يتابع، دون ان يتدخل لكن بدا له أن لوثة أصابت الإثنين، أو أنهما يمثلان دوراً.

كان خلف ينوي نقل ما دار بين عزرا ونادر إلى الباشا، لكن حين حدّث فيروز، رد عليه بمرح:

ـ خليك يا معوّد، لأن واحدهم أنجس من الثاني، مثل برگان الجامع!

وبعد قليل، وقد تغيرت لهجته:

ـ والباشا عنده كل همّ أكبر من كل سوالفهم.

وخلال أسابيع، وصلت لطلعت باقة معظم الحاجات التي طلبها، وأصبح الهجوم الكبير وشيكاً. ولأن الكيخيا لا بد أن يفعل شيئاً كبيراً، أو ربما خارقاً، لتحقيق النصر، فقد بعث وراء صديقه عثمان الهاجري.

كان المطلوب من عثمان أن يفاوض ويتوسط بين الكيخيا ومجموعة من شيوخ القبائل المتمردة، فقد بلغ الكيخيا أن عدداً من الشيوخ الذين هبوا لمساندة القبائل الثائرة، ولأن الحرب طالت أو لن تقع، ندموا لتسرعهم، وأنهم مستعدون الآن لاعلان الطاعة، والعودة من حيث أتوا، شرط ان تعفو الحكومة عنهم، وأن لا تطالبهم بشيء. ورغم ان الكيخيا ارسل لهم أكثر من رسول إلا أن الريبة لم تزايلهم، وظلوا مترددين. وحين عرف الكيخيا ان بين هؤلاء وعثمان الهاجري علاقة عمل وصداقة بعث وراءه ليكون المفاوض والوسيط.

بعد مفاوضات استمرت أسابيع وكانت مضنية، وقد تنقل الهاجري بين الطرفين عدة مرات، وأبدى استعداده أن يتبرع بمائة رأس من الجمال ثمناً لهذا الصلح، تم الإتفاق أن يأتي وفد من هؤلاء الشيوخ لمقر الكيخيا لإعلان الندم ثم الطاعة، وبعد ذلك يعلن الكيخيا العفو وتعود الأمور إلى سابق عهدها.

تم الاتفاق وجاء الوفد، وكان عثمان الهاجري في قمة الفرح وهو يستقبل الشيوخ على مشارف الحلة، ومعه عدد من الضباط ورجال الكيخيا. ما أن حل الوفد في معسكر الرحبة، حيث كان الكيخيا في انتظارهم، حتى تغير فجأة كل شيء، إذ أمر الكيخيا بالقبض على هؤلاء الشيوخ وتقييدهم، ثم جعلهم وسط مجموعة من جنده، وأخذ الجند يهزؤون بهم ويشتمونهم، ولم يترددوا بضرب عدد منهم.

كان الهاجري لا يصدق ما ترى عيناه، كان يصرخ ويشتم ويبكي، وكان يريد أن يصل إلى الكيخيا، لكن رجال الكيخيا حالوا بينه وبين

الوصول، ثم أخذوه عنوة الى مكان آخر. وقبل ان ينقضي ذلك اليوم، كانت قافلة تضم هؤلاء الشيوخ في طريقها الى بغداد. وبعد بضعة أيام سمح للهاجري ان يغادر المعسكر. كان في حالة يرثى لها، إذ بدا ذاهلاً منفوش الشعر، بعد ان رمى عقاله لحظة القبض على الرهائن، واقسم ان لا يضعه على رأسه مرة أخرى، ما لم ترد كرامة هؤلاء الذين أهينوا بسببه.

قال أهل صوب الكرخ، وقال الناس في قهوة الشط، أن أحداً لم يعرف الهاجري حين عاد. تحول الى شبح لفرط النحول، وأصبح يهذي ولا يكف عن الشتيمة. كان يشتم الوالي والكيخيا، وكان يشتم نفسه أكثر من الجميع، لأنه قبل، لبلاهته، القيام بهذه المهمة القذرة. وكانت الكلمة التي لا يملّ من ترددها: تخسا يا هاجري، عساك ما تلقى قبر يحويك، ولا صدر يلفيك، لأن وجهك وجه النحس، وحملت العار لولد الولد.

حزن الكثيرون في قهوة الشط لما رأوا عثمان الهاجري هكذا، خاصة وأنه كان يمدّ المساعدة لمعدومي الحال. وقالوا: مجنون من يصدق الحكومة او يثق بها، ومجنون أكثر من يقبل أن يتوسط بينها وبين أعدائها. ولأن الكثيرين في صوب الكرخ كان لهم أبناء في الحملة فقد تزايدت مخاوفهم «لأن البدو يفقدون عقولهم تماماً اذا أحسوا أو عرفوا أنهم تعرضوا للغدر، وعند ذاك يمكن أن يفعلوا أي شيء».

قال الأسطة عواد لما بلغت الأمور هذا الحد:

ـ هذي، يا جماعة، شغلة ما تتسوى، ولا صارت من قبل: دخيل يجيك، لا بيده سلاح، ولا وجهه عابس، وبدل ما تتلقاه بالهلا والمرحبا، تغدره؟ تطيح بيه؟ هذي لا الله يقبلها ولا العبد!

قال سيفو، وكان غاضباً:

ـ هذي ولية مخانيث، هذي ما يسويها إلا واحد ماعنده شرف او ناموس!

ـ والهاجري.. شنو علاقته، سأل الاسطة اسماعيل، ما تفهموني يا جماعة الخير؟

ـ يا غافل الك الله، رد الاسطة عواد، الرجّال قاعد بسوق حماده يبيع ويشتري، ديوانه مفتوح ليل نهار، وكل الناس تحبه وتريده، والله بسماواته راضي عنه وفاتح عليه، وماكو أحد محتاج، ماكو أحد مديون، الا: خذ ابني، واذا تريد بعد، قول. وبعدها هالشكل يتسوى بيه؟ لهْ لهْ لهْ، يا غيرة الدنيا!

قال الحاج شبلي:

ـ الله أعلم ان الباشا ما يقبل هيج دقة، ولا بد انها صارت دون علمه، دون موافقته!

ـ لا تشد إيدك زايد بالباشا، قال سيفو، لأن والينا بس يشاور من بعيد، ويترك التنفيذ لغيره!

رد الحاج شبلي وهو ينهض:

ـ ماكو أمان بالدنيا يا أبو فلاح، وكل شيء يصير. وهسه من رخصتكم، راح أدهدى على قهوة الكمرك حتى أسمع الناس هناك شيسولفون، لأن الرأيين أحسن من رأي واحد، يا جماعة الخير!

أما في قهوة مراد، فلا يعرف كيف او من نشر أخباراً ان عثمان الهاجري هو الذي استدرج الشيوخ. اكثر من ذلك، قيل ان الكيخيا لم يطلب منه المجيء، وإنما تبرع بنفسه ان يقوم بهذه الوساطة، مع أنه حُذّر، وقيل هُدد، لكن لديون له على بعض الشيوخ، وبرغبة الايقاع بهم، فقد ادّعى الوساطة بينهم وبين الكيخيا، وهكذا سلمهم، ولن يمر بعض الوقت الا ويستلم ديونه، وفوقها إكراميات من الكيخيا، وربما من الباشا أيضاً!

وتسربت أخبار، تزايدت مع الوقت، ان خلافاً كبيراً وقع بين الكيخيا وطلعت باقة، لأن القبائل التي كانت غير مشتركة في التمرد، وكانت تراقب الطرفين، ما ان وصلت الى علمها اخبار «دقة الغدر» كما أصبح يطلق على هذه الواقعة، حتى ثارت الدماء في العروق، وأعلنت اكثرية القبائل في الوسط والجنوب، وقيل في أماكن أخرى أيضاً، عصيانها، وبدأ الشعراء يدورون من مكان الى آخر منددين بما حصل، وداعين الى الانتقام.

وانتشرت أخبار من السراي ان طلعت باقة وصل الى بغداد، دون علم الكيخيا، وقابل الباشا عدة مرات. أما أخبار ما دار بينهما فقد تضاربت الى أقصى حد. قيل ان طلعت باقة طلب إعفاءه من القيادة، وقيل انه طلب إطلاق سراح الشيوخ بأسرع وقت، مع استرضائهم وتقديم الهدايا لهم. وقيل ان طلعت بك طلب استدعاء الكيخيا الى بغداد، إذا تعذرت اقالته، لأنه بفعلته تلك عقّد الأمور، وحشد اعداء الوالي، الأمر الذي لا يفعله إلا خائن.

وانتشرت أخبار أيضاً أن الوالي وعد طلعت بأمور كثيرة، لكن طلب منه ان يصمت الآن وان ينضبط. أما محاسبة المخطئين والمسيئين فسوف تتم بعد انتهاء الحملة، كما فوضه بصلاحيات إضافية واتخاذ مايراه مناسباً من الاجراءات دون الرجوع الى الكيخيا. ولتأكيد رضاه عنه أنعَم عليه بخلعة وبواحد من خيوله الممتازة. وقيل أنه رافقه في السفر الى المحمودية وهناك ودعه. أما عن الرهائن فأكد الباشا أنهم ضيوفه، وقد التقى بهم أكثر من مرة، وهم أحرار طلقاء، لكن رجاهم البقاء في بغداد ريثما يزول الغضب وتصفى النفوس، ولهم بعد ذلك ان يقرروا البقاء او الرحيل.

إنها أخبار يتم تداولها في المقاهي وفي السوق التجاري، ولا يعرف مقدار الصحة فيها، كما أنها تتغير من قهوة لأخرى، بين يوم وثانٍ، يحصل ذلك دون ان يُعرف كيف او من.

عثمان الهاجري الذي أصابه الغم، وأصبح أقرب الى اللوثة، هجر أعماله كلها، وتفرغ لمكاتبة اسطنبول. كتب الى السلطان، وكتب الى الباب العالي، ولشيخ الاسلام، وما كان يمر يوم جديد إلا ويكتشف أن هناك من يجب ان يطلعهم على ما حصل، ويبدأ باملاء الرسائل على كاتبه أحمد الرضوان.

«اكتب وجوّد يا أحمد، اكتب من كل قلبك، قول الأول والتالي، وانت تعرف كل شيء، وما أريد أوصيك. اكتب وقول: ابن الحرام يحيى، كيخيا باشا بغداد، دز علينا مرسال، وكان يوم خميس، منتصف جمادي

الآخرة، وقال لنا: من كل بد ولازم البك يريدك، سألنا منو البك؟ قال يحيى بك، الكيخيا. قلنا خير؟ قال ما على الرسول إلا البلاغ. وتركنا شغلنا كله وتوجهنا، وبعده صار اللي صار، وانت، يا احمد، تعرف كل شيء، فاكتب وجوّد، ولا تنس الآيات والأحاديث، وإذا لقيت أشعار توالم وبمكانها فاكتبها ولا تخاف، لأن الشاة ما يهمها السلخ بعد الذبح. ومثل ما قلت لك، يا أحمد اكتب وجوِّد، حتى اللي له قلب يحن، واللي عنده ضمير يوّن، وتعرف اسطنبول، شنو اللي صاير بالدنيا. اكتب يا أحمد، ولا تخاف».

ويبعث الرسائل الى اسطنبول مع التاتار وينتظر.

قال عبدالله غبيشان في قهوة الشط:

ـ ماكو مثلك، يا ابو نجم، يمون على الشيخ عثمان، ونصيحة أخ لأخوه يلزم تقول له: الفلوس اللي يحصلها التاتار منه، حتى يوصلوا مكاتيبه لاسطنبول، ترى يحصلون على مثلها أو أكثر لأن اسطنبولهم صارت السراي، وهناك يسلمون الرسائل لخلف بيد ويحصلون عليها باليد الثانية، فلا يتعب روحه!

والاسطة عواد الذي فتح عينيه دهشة لما يسمع، خاصة وانه يسمعه من عبدالله غبيشان، الذي لا يخفي محبته للوالي، ومنذ وقت طويل، فقد رد وخرجت كلماته متفرقة:

ـ كلامك، يا عبدالله، قيل عن قال، أم له أساس؟

ـ ما چنت اقول الكلام اللي قلته، يا ابو نجم، لولا «دقة الغدر»، هذي جرحت قلبي من جوا، وسوتني مثل المجنون، خاصة وان المغدور الشيخ عثمان...

يستريح قليلاً، يهز رأسه اسفاً ويضيف:

ـ لولا ان ابو محسن، الشيخ عثمان، غالي، ومن جماعتنا، لا أتدخل، لكن العوجا، يا أبو نجم، ما ينسكت عليها، وهذا الكيخيا، مشعول الصفحة، كان الواحد يحسب ان البزون ياكل عشاه: يبين عليه

فقير، مسكين، لكن طلع ذيب، أنجس من ذيب، فالله يستر!

قال الاسطة اسماعيل الذي وصل للتو، وسمع ما يقال عن الكيخيا:

ـ وقال لي اسطة غالب، مزين السراي، ان الكيخيا يشلع قلبه وقت الزيان: الحاجب اسطة، أريده مثل القلم، وهذي الشعرة على الآذان شيلها، لانها تشوك الخاتون؛ والشارب، ما أريد أوصيك غلوبي، أريدك ترجعني شاب ابن عشرين، تسمعني زين اسطه؟ وكل ما يقول له غالب عوافي، يرد عليه ويقول: وهمين هالشعرة.. وهالشعرة، وبعد كل هالتعب لا إكرامية ولا حامض حلو، ينفض روحه مثل الديك، ويقول له: حاسب نادر أفندي!

وظلت القصص والحوادث تتوالى، وظل رواد المقاهي يتابعون ويتساءلون. وفي كل يوم جديد تسمع قصة جديدة، اذا لم تكن عن عثمان الهاجري، فعن أحمد الرضوان الذي كتب رسالة تضمنت قصيدة من مائة بيت، وكلها تتناول الخديعة والغدر ودورات الفلك. وقيل ان تهديداً وصل إليه بعد هذه الرسالة، لكن الهاجري حمل القصيدة ودار على مقاهي بغداد، وقال لهم، قبل ان ينشد طالب شرف الدين القصيدة: إسمعوا يا أهل بغداد الى اي درك وصلتم، مع ان هذه القصيدة نظمها شاعر أعمى قبل مئات السنين! وقد اكد اثنان من مدرسي اللغة في مدرسة الإمام الأعظم ان الأبيات الاولى وحدها للشاعر القديم، اما ما تلاها من الأبيات فانها لطالب شرف الدين، لكن خوفه من الانتقام نسبها لذلك الشاعر!

وبغداد التي ظلت تتسقط أخبار المنطقة الوسطى، وما قد يحصل فيها، خوفاً على الأبناء الذين جندوا في الحملة، سمعت ان طلعت باقة، زحف بقواته قبل نهاية رجب، واخترق قوات البدو، لكن البدو كانوا أسرع منه في الانسحاب، وما عدا بعض المعارك المتفرقة، وقد هزم خلالها البدو، فان الهدف الأساسي للمعركة، والذي أذيع في وقت لاحق، هو القبض على قاسم الشاوي، وصادق ابن سليمان الكبير، فان الاثنين قد فرا قبل بدء المعركة الاخيرة، انحدرا الى الجنوب، ولا يعرف ما اذا دخلا الى

الأهوار، ام سارا مع النهر نحو أقصى الجنوب ليلتحقا بقبيلة لام، هذه القبيلة التي لا يعرف ان كانت ضمن ولاية الباشا ام انها ضده ولا تعترف به.

ومع ذلك، فقد رجع الكيخيا الى بغداد منتصراً، بعد ان وصل الى أطراف الاهوار، وهزم القبائل. وقد أقيم احتفال مهيب للعائدين، وأنعم على الكيخيا بالخلعة والنيشان، وظلت الوفود تتوالى الى السراي لأيام عديدة، للتهنئة بالنصر. وقيل ان الكيخيا ظل يستقبل المهنئين طوال شهر شعبان، وقد أقام عدة ولائم، ولم يعرف ان كانت احتفالاً بالنصر وحده أم اختلطت بمناسبات دينية.

الباشا كان مسروراً بالنتائج، وأكد في الاحتفال الكبير الذي أقامه في منتصف شعبان، إن الله منّ بهذا النصر الكبير، وأن الولاية من اقصاها الى أقصاها تعيش الان فترة من أزهى فتراتها، وان الآتي سيكون أعظم، وسوف يرى الناس بأعينهم!

ورغم ان الكثيرين، ولأسباب مختلفة، سمعوا ما قيل، وهزوا رؤوسهم بالموافقة، وببعض الرضى، فان عثمان الهاجري لم يتوقف عن الشتيمة والتعريض، وما ان يتذكر، او يأتي من يذكره، بضرورة كتابة رسالة للاحتجاج على تصرفات الكيخيا، حتى يأمر كاتبه، أحمد الرضوان، أن يفعل ذلك.

وزينب كوشان، التي جاء من قال لها ان قضيتها كلها أحيلت الى الكيخيا، ووحده الذي سيبت بها، ولأنها كانت تُدفع عن السراي الى ان يعود الكيخيا، فقد أصبحت شكواها علنية وتعرضها أمام الكثيرين، طالبة المساعدة.

أما المعونة التي كانت تتلقاها شهرياً من الشيخ عثمان الهاجري طوال الفترات الماضية، فقد اضطربت، وانقطعت خلال بعض الشهور، لان الشيخ مشغول بأمور هامة. ولولا بعض الخيِّرين لجاعت وتعرضت للأذى.

قالت وهي ترى موكب النصر، وكان على رأسه الكيخيا:

ـ الله أعلم انها كلها قشمرة، لأن اللي يزعل ابو محسن، ما يرضّي أحد. . .

وبعد قليل وهي ترفع يديها للسماء:

ـ إنت يا أبو الخيمة الزرقا، انت اللي تعرف كل شي، والقادر على كل شي، لا تخلي غريمي حاكمي، وما عندي أكثر من هذا أقوله!

117

ليس المهم حجم الانتصار الذي تم إحرازه في الفرات الأوسط، كان الأكثر أهمية لداود باشا كيفية إبراز هذا الانتصار، وإقناع الناس انه تحقق فعلاً، ثم استثماره بعد أن يصبح جزءاً من «الحقائق» الثابتة.

صحيح أن البدو انكفؤوا إلى الجنوب، إلى الأهوار بشكل خاص، بعد أن لحقت بهم خسائر كبيرة، والذين لم يستطيعوا الهروب، أو فضلوا البقاء في أماكنهم، أو لم يجدوا أماكن غيرها، اضطروا لإعلان الخضوع والطاعة، ودفعوا، مرغمين، ما استحق عليهم من مستحقات للحكومة، إضافة إلى الغرامات، لكن هذا كله تم دون قناعة، بل ودون اعتراف بأن الأمور انتهت بهذا الشكل، وظلوا ينتظرون الوقت المناسب ليعلنوا ذلك، ليقولوه بطريقتهم الخاصة، والتي يفهمها باشا بغداد أيضاً.

ورغم أن هدف الحملة، منذ أن تحركت، القبض على قاسم الشاوي وصادق أفندي، لأنهما رأس الفتنة، ولأنهما الخصمان الحقيقيان للباشا، وعن طريقهما يأتي الخطر، وقد نبّه داود باشا على كيخياه، ثم على طلعت باقة، أن يبذلا أقصى الجهود لا من أجل إلحاق الهزيمة بهما وبالذين يناصرونهما فقط، بل الأكثر أهمية أن يقبضا عليهما أحياء، وأن يُجلبا إلى بغداد، وفي بغداد يتم الحساب، فالباشا يعرف كيف ينتقم، وكيف يجعلهما أمثولة للأحياء والموتى، وعبرة لكل من تسول له نفسه أن يتمرد أو يقف في وجه الحكومة.

هذا كان الهدف، وهكذا رسمت الخطة. لكن الكيخيا، بعد «دقة

الغدر» أفسد كل شيء. لذلك وقعت المعارك الأخيرة قبل أوانها، وأفلت الخصمان الأساسيان، بحيث بدت أو أصبحت القطعات العسكرية تتحرك في أرض خاوية، احترقت أجزاء كبيرة منها، وما تبقى من القبائل، وبعد أن تجرب حظها في المقاومة يوماً أو يومين، تستسلم.

ولم يتأخر الباشا في الإيعاز إلى خلف أن يأتيه بشاعر السراي: الصفوي.

قال الصفوي لعدد من الشعراء، بعد أن التقى بالباشا، وامتد بينهما اللقاء إلى ساعة متأخرة، قال، وكان لا يزال منفعلاً:

ـ ما أخفي عليكم، يا جماعة الخير، دخلت عليه شكل وخرجت من عنده شكل ثاني..

تعمد أن يبدأ بهذه الطريقة المثيرة، وحين تعلّقت به العيون تحثه على أن يتابع، لم يتأخر، وان جاءت نبرة الصوت مختلفة:

ـ نحن الشعراء طايح حظنا، لأنّا ما مقدرين قيمة حالنا؛ نحن مدمّرين أنفسنا بالقيل والقال، وتاركين القضايا الكبيرة التي تستحق منا أن نفني حياتنا بيها...

بدا كلامه غير مألوف، بل أقرب إلى الغرابة. فالانفعال يسيطر عليه، وحركاته عصبية، أما وهو ينقّل عينيه بين الوجوه التي تراقبه وتنتظره، فكان حائراً كيف ينقل إليهم، ليس فقط ما سمعه من الباشا، وما توصل إليه من قناعة، بل يريد أن ينقل أيضاً المشاعر التي تهزه هزاً قوياً.

تابع بعد أن أخذ نفساً عميقاً:

ـ ما خلينا قصيدة من عيون الشعر إلا وتذكرناها؛ تذكرنا الأبيات التي اخترقت الأزمان والأكوان ووصلت إلينا، وبعد أن تعيش معنا عمرنا كله سوف تنتقل إلى الأجيال التي تأتي بعدنا... ومنها إلى الأجيال التي تليها، وتبقى كذلك إلى آخر الزمان!

كلام جميل، يدل أن الباشا ليس والياً فقط، بل وذواقة للشعر، ومن المقدرين لأهميته. لكن، مع ذلك، لم يصلوا بعد إلى ما يقصده شاعرهم

الفحل: الصفوي. ولئلا يفسدوا عليه انفعالاته تركوه لكي يواصل دون أن يقاطعوه.

ـ قال لي الباشا: ما هي الحياة دون الشعر؟ ماذا يبقى من حياة الإنسان غير تلك الجواهر اللامعة من الذكر الطيب، والأقوال التي تصبح حِكَماً على ألسنة الناس؟ وقال أيضاً: الحياة دون الشعر لا تستحق الذكر أو حتى أن تعاش!

تهللت أسارير الذين يسمعون، وقد شعر كل واحد منهم أن ما قاله الباشا رسالة شخصية مباشرة موجهة إليه. وحين اطمئن الصفوي أن جزءاً من الرسالة قد وصل، تابع بانفعال أقل:

ـ من كان سيتذكر المعارك لولا الشعراء؟ هذا ما سألني عنه الباشا. وسأل: ماذا كنا سنعرف عن سيف الدولة لولا المتنبي؟ وسأل.. وسأل، بحيث حِرتُ جواباً، لأن الأمثلة التي أتى بها من القوة والوضوح إلى درجة شعرت بالفخر لأني ولدت شاعراً!

وتغير الجو حين أصبح كل اثنين أو ثلاثة يتبادلون كلمات الإطراء والإعجاب حول ما قاله الباشا. ولأن الصفوي كان في حالة من النشوة، ويريد أن يلتذ بما سمعه من الباشا وما يسمعه الآن، فقد ترك لهذه التعليقات أن تتوالى قبل أن يتابع، بعد أن مسّد لحيته وشاربيه، وكأنه تذكر أشياء كثيرة:

ـ واللي يزيد الإعجاب بالباشا: المعرفة والتواضع...

تطلع إلى الوجوه، كأنه يبحث عن أحد، وتابع:

ـ واللي كانوا حاضرين بليلة الباچة، في أول لقاء بالباشا، يتذكرون شلون احمرّ وجهه عندما سئل عن أبيات رواها من هو قائلها. قال، لتواضعه: ما اتذكر القائل، مع إنّا كلنا عرفنا انه هو الشاعر.. لكن ما اعترف.. وما اعترف، وهذا يدل على تواضعه!

استراح الصفوي قليلاً. اهتز رأسه خلال ذلك مرات عديدة، ثم أضاف:

ـ أما معرفته بالشعر، العربي والفارسي، فهذي ما ينراد لها شهادة، وما

بها إنّ!

وحين سأل مصطفى حب اللّه، وهو شويعر يرافق الشعراء، ويقرزم بين فترة وأخرى عدداً من الأبيات، عن معرفة الباشا بالشعر التركي، رد عليه الصفوي بطريقة تهكمية.

ـ ليش عند الأتراك أكو شعر. . . مولانا؟

ولم يتركه يجيب، تابع:

ـ أكو عندهم كم قرادية وكم بستة، هذا كل رأسمالهم. . .

ولكي لا يفهم كلامه خطأ، أو يُحمل على غير ما يريد، أضاف وقد تغير صوته:

ـ أما بالغناء، والشهادة للّه، فغناهم برنجي، غناهم به شجن، ويطلع من جوا الصدر، والواحد حتى لو ما افتهم الكلمات يحس بها ويحبها!

ولئلا يتفرع النقاش، وتضيع الغاية من هذا اللقاء، قال الصفوي بعد أن تنحنح:

ـ المهم؛ وحتى الواحد يبرّي ضميره، قبل ما أتوادع مع الباشا سألني: من فترة قال لي خلف إن شيطان الشعر يحوم حواليك، ولك نية لنظم قصيدة تسير بذكرها الركبان، فوين وصلت وشنو اللي صار بيها؟ وما تعرفوا يا جماعة شقد خجلت، لأني ما أدري شلون أجاوبه، شقول. لكن باللحظة الأخيرة، اللّه فتح عليّ، وقلت: لعيونك يا باشا، ما يروح يوم ويجي الثاني إلا ويأتيك الخبر. . .

استراح الصفوي قليلاً. بدا حزيناً مثقل الضمير، وقد تذكر الكلمات الأخيرة التي قالها الباشا. تطلع إلى الوجوه التي تتابعه وهدر صوته:

ـ وأكثر ما أثّر بي، يا جماعة الخير، الكلمات اللي قالها قبل ما أمشي: قال: أعرف أن الشعر واهس، وأنه يجي وحده، لكن على قدر أهل العزم تأتي العزائم، فأتركك يا شاعر الفراتين لوجدانك، ولشيطان الشعر الذي طالما دوخته حتى أسلس قياده لك. أما الكلمة الأخيرة اللي قالها، والابتسامة على وجهه شبر، فهي: لا تنسَ تسلم لي على كل واحد من

الربع، واحداً. . . واحداً!

وخلال أسابيع قليلة امتلأت بغداد برنين الكلمات. لم تبق ساحة، لم تبق قهوة، ولم يبق صحن جامع من الجوامع الكبيرة، إلا وانعقدت الاحتفالات، وتوالى الشعراء، وضجّت الأجواء بأبيات الشعر من كل الأوزان.

ولأن جزءاً من هذه الاحتفالات أقيم في شهر رمضان، وقد اختلطت تلك الليالي بالدعاء والشعر معاً، فقد تحولت إلى مهرجانات لا تخلو من المنافسة والتحدي، كما أصبحت فرصة للسهر والسمر والذكريات، وأخذت تستقطب الناس الذين يأتون إليها من أمكنة بعيدة، لتبادل الزيارات، لتبادل الأخبار، وأيضاً لتمضية الوقت، كي يذهبوا بعد ذلك لتناول السحور في بيوتهم، ثم ليستيقظوا متأخرين في اليوم التالي!

ذنون الذي راق له أن يتجول في هذه الأماسي، انتهت جولته أكثر من مرة في قهوة الشط. وإذا كان الناس في صوب الرصافة قد أبدوا صنوفاً من البراعة والجدة في الاحتفالات التي كانوا يقيمونها، وشارك في معظمها الجنود العائدون، والكثيرون من العاملين في السراي، وقد حضر عدداً منها الكيخيا وبعض الضباط، فإن الحال كان مختلفاً في صوب الكرخ، إذ غلب على هذه الاحتفالات الطابع الديني، وكانت تقتصر على الأدعية، وتتسم بالجدية، عدا مرة أقيم احتفال شعري في قهوة سبع. أما الاحتفال الذي كان يهيأ في قهوة الشط، فقد صادف أن مات والد القارىء لسيرة عنترة في نفس اليوم، مما أدى إلى إلغاء الاحتفال. وأكد الكثيرون أن حزناً خيم على القهوة طوال تلك الليلة!

حين انتهت جولات ذنون في قهوة الشط، وحين رأى الكثيرين يقابلون الراوي، الذي كان يحدثهم عن الزير سالم بدل عنترة في ليلته قبل الأخيرة، قال للذين يلتفون حول الأسطة عواد في مدخل القهوة:

ـ كانت بغداد، وراح تظل، صوبين، واحد للمسعدين، والثاني لغيرهم.

ـ هات، سولف لنا، شكو بذاك الصوب، هكذا سأل الأسطة عواد.

ـ الدنيا هناك مقلوبة يا أبو نجم، وماكو أكثر من الشعراء، ولو طشيت حمّص ما يوقع إلا على روسهم!

ـ الجنازة كبيرة والميت ما ينعرف منين قرعة أبوه!

هكذا قال سيفو، وهو ينهض لكي ينضم إلى الذين يتابعون الراوي، وأضاف وهو يمشي:

ـ من سوالف اللي جوا قبلنا يمكن نتعلم فد شي؛ أما القراديات اللي تنقال هذي الأيام فنحن عايشين مصايبها وما ينراد أحد يقول لنا عليها!

ـ صحيح أنهم قالوا من قبل إن الحرب خدعة، بهذه العبارة بدأ الأسطة إسماعيل، لكن خدعة عن الثانية تفرق؛ واللّه يوجّه له الخير، أبو محسن، لا حامل تفگة ولا شايل سيف، وما له صوچ أو ذنب، وأنت، يا كيخيا، بدل ما تندار على اللي يحاربون، على العاصين، ما تجرب سلاحك إلا بهذا الآدمي؟ يا سواد وجهك يا يحيى، وعساك ما تحيا، ولا تشوف يوم أبيض. . .

وكاد يستمر لولا تدخل الأسطة عواد:

ـ وحتى هذول اللي قالوا إنهم انتصروا عليهم، وعلى مود هذا النصر رفعوا رايات ودقوا طبول، جماعة فقرا، والله أعلم مسخّرين؛ أما قاسم. . . أما صادق، فما يندرى وين الواحد منهم صار.

وقاطع ذنون:

ـ ومعنى ذلك، يا أبو نجم، أن الحرب ما انتهت؛ والينا مثل الجمل، يصبر، يتحمل، لكنه حقود وأبد ما ينسى، فإذا فلت منه العصفور هذي المرة لا بد يحاول نوبة ثانية وثالثة، ودايما يمنّي نفسه: يمكن نقدر عليهم هذي النوبة؛ وراح يحضر ويستعد حتى يظفر بيهم، أو تنقلب عليه!

ـ وحضروا روسكم يا قرعان!

هكذا علّق الأسطة إسماعيل، فرد عليه الأسطة عواد بمرح، علّه يغير الجو:

ـ روس القرعان ما تفيدك يا أبو حقي، أنت تريد تلعّب المقص، وتجزّ راس بعد الثاني، حتى تبلّ فوادك وتحلل خبزتك!

ـ لو كان غيري مثلي، الكيخيا والوالي وأشباههم، كانت الدنيا بألف خير، يا أبو نجم، لكن مثل ما تشوف عينك!

وظلت الأحاديث، كالطاحونة، تدور، حتى إذا انتصف الليل أو كاد، تفرق الناس انتظاراً ليوم جديد، لأخبار جديدة.

118

ريتش الذي تغير بعد سفرته الأخيرة، أخذ يقصّر خطواته، لكي يعيد النظر برجاله وخططه، وقد فعل ذلك بتكتم شديد، لئلا تحس به السراي، وتستغل تراجعه وضعفه.

أولى الخطوات التي أقدم عليها، إثر زيارته الأولى للسراي ولقاء الباشا، أن بعث بهدية رمزية، كانت عبارة عن بندقية حربية جديدة، وسيف دمشقي بالغ المضاء والزخرفة، وأرفق بالهدية رسالة يلتمس فيها «. . . ان يكون لدى الباشا متسع من الوقت لاستقبال أحد كبار ضباط الأسطول البريطاني، والمتوقع وصوله إلى بغداد في بحر الأسبوعين القادمين، والآتي من الهند، لأن لدى الضابط المذكور ما يقوله للباشا».

أما بعد أن تأخر وصول الضابط، ولأن الاحتفالات بالنصر الذي تحقق في الفرات الأوسط قد بدأت، فارتأى ريتش أن من المناسب تقديم تهانيه بهذه المناسبة، الأمر الذي جعله يوفد مترجمه من جديد لتحديد الموعد الملائم للطرفين، وللتأكيد، مرة أخرى، أن قدوم الضابط الكبير أصبح وشيكاً.

كان ريتش مضطراً أن يفعل ذلك، رغم مشاعره المتناقضة. فمن ناحية اعتبر فرار قاسم وصادق، وتوجههما إلى قبيلة لام، في أقصى الجنوب، هزيمة للباشا، لأن مجرد نجاة هذين الخصمين الخطرين، واللذين يهددان الباشا، من حيث الكفاءة والشرعية معاً، استمرار للتهديد، ومن شأنه أن يستنزف قوى الحكومة. كما أن استقبال هذين الخصمين من قبل هذه

القبيلة القوية، والبعيدة، والتي كانت إلى وقت قريب لا تحفل كثيراً بالمعارك التي تدور، بمثابة تغير كبير في موازين القوى ومراكز التهديد، مما يجعل الباشا مضطراً لاستخدام قوى أكبر وأموالاً أكثر في حالة عصيان هذه القبيلة.

مشاعر الفرح بهذه النتيجة، قابلها الإحساس أن الباشا يعزز مواقعه وقواه معركة بعد أخرى، بغض النظر عن حقيقة حجم النصر الذي يدعيه في معركة الفرات الأوسط، وأن غياب الآغا لا يغير شيئاً في الكفاءات العسكرية. ولعل في هذا أول إشارة، أو ربما رسالة، توجه لريتش أن عهداً جديد قد بدأ.

لو تُرك لصفوت قرداغ أن يقرر موعد الزيارة، لما تردد في التأجيل إلى ما بعد العيد، كما فعل أو حاول في السابق، لكن التعليمات التي تلقاها من ديوان الباشا كانت واضحة، وتؤكد على تسهيل مثل هذه المقابلات، وأيضاً التشاور مع الديوان، فيما إذا كانت المواعيد مزدحمة. لذلك حُدّد موعد مبكر لأن يستقبل الباشا قنصل ملك بريطانيا.

بعد أن قدم ريتش التهنئة بالنصر الذي تم إحرازه في الفرات الأوسط، أكد على أهمية هذا النصر، خاصة بالنسبة للملاحة النهرية، وان لذلك انعكاسات كبيرة في المستقبل. ثم انتقل مباشرة إلى تبرير اختياره للهدية التي أرسلت إلى السراي، إذ أشار إلى أن البندقية الجديدة تتمتع بمزايا تفوق أية بندقية مماثلة، وأن بريطانيا مستعدة لتزويد قوات الوالي بهذا النوع من السلاح، وربما أسلحة أخرى، وسوف يبحث ضابط الأسطول اقتراحاً أوسع حول التسليح، شرط أن تكون بريطانيا وحدها التي تؤمن السلاح والتدريب عليه.

ولم ينس ريتش أن يتظرف قليلاً وهو يتحدث عن السيف الدمشقي، قال وقد زمّ عينيه:

ـ أتذكر، يا فخامة الباشا، أننا قرأنا في الكتب المدرسية عن السيوف التي تصنع في دمشق، قرأنا عن جودتها وحسن صنعها، وأنها للزينة

وللقتال معاً، والآباء هناك يقدمونها لأبنائهم عندما يبلغون مبلغ الرجال، ويجري ذلك في احتفالات مهيبة، دلالة الأهمية والاحترام، لما يعنيه هذا السلاح بالنسبة لهم.

توقف قليلاً، والباشا استمع دون تعليق، لكن بدا له أن ضيفه يجامل أو يضمر معنى غير مباشر، لأن مثل هذا الذي يقوله الآن يعرفه، وربما أحسن منه؛ وقد يكون المغزى البعيد لما يقوله تذكيراً بما بين البلدين من تاريخ ملتبس ومليء بالسخرية السوداء.

بعد هذا الصمت تابع ريتش:

ـ لم أكن أصدق ما يقال عن هذه السيوف إلا حين مررت بحلب، ورأيت نماذج منها، وقد افترضت أن أجمل هدية يمكن أن تقدم لفخامتكم واحد من هذه السيوف، وأتمنى أن يكون قد نال رضاكم!

أثنى الباشا بكلمات كبيرة على الهدية؛ وإذا كان قد بدأ بالسيف الدمشقي، وأشار إلى انه احتفظ بواحد من هذه السيوف، حين كان في الشمال، وقد أهداه إلى عبيد الله بابان، تعبيراً عن الثقة والود؛ وان تذكّر سعادة القنصل أن يحمل له هذه الهدية من حلب، فموضع تقدير واعتزاز! ثم عرّج الباشا على الموضوع الأكثر أهمية بالنسبة له: أن تتولى بريطانيا تقديم أنواع حديثة من الأسلحة، ويقوم ضباطها بالتدريب عليها.

ريتش بالرسالة التي بعث بها، وفيها إشارة إلى الأسلحة والتدريب، ثم وهو يطرح الموضوع من جديد، لم يكن ميالاً، على الأقل في هذه المرحلة، للخوض في التفاصيل، قال في محاولة لأن يعطي الأمر مساراً محدداً:

ـ لقد حصلت أثناء إقامتي في لندن على الموافقة المبدئية لأن أعرض على فخامتكم الفكرة، أما التفاصيل فقد فُوّض نكلسون، المسؤول عن الأسطول البريطاني، ببحثها مع فخامتكم، وأتوقع وصوله قريباً.

الباشا الذي كان متلهفاً لأن يسمع أكثر عن الاقتراح، شعر أن في الأمر شيئاً لا يفهمه، أو ربما يكون جديداً. فريتش الذي لم يكن يخفي سلبيته،

وربما عداءه تجاهه، وقد تأكد من ذلك، ولديه أدلة لا تحصى، يبدو، بعد عودته من هذه السفرة، إنساناً آخر. ماذا حصل، ولماذا تغير؟ قال له الباشا ليخلق جواً من الثقة:

ـ لقد جرّبت البندقية التي أرسلتها إليّ، فلم تخب مرة واحدة، إضافة إلى أن وزنها الخفيف يزيد قدرة التحكم بها.

ـ إنها من أحدث البنادق التي صنعتها المعامل البريطانية، يا باشا، ودخلتْ الخدمة قبل شهور قليلة فقط، وجاء الثناء عليها من القوات البرية والأسطول.

ـ وأعتقد أن مداها أبعد من البنادق الأخرى.

ـ وسهلة الفك والتركيب، ما يجعل صيانتها يسيرة، وبإمكان الجنود أن يقوموا بذلك، دون أن تعاد إلى معامل السلاح أو تقتصر على الاختصاصيين.

ـ هذه مزايا بالغة الأهمية، يا سعادة القنصل، ولا بد أن نتحدث في التفاصيل.

ـ أشارككم الرأي، يا فخامة الباشا، وسوف يكون بحث الأمر مع الكابتن نكلسون مفيداً للطرفين!

لم ينس الباشا تحضير هدية ملائمة، وكانت عبارة عن ثلاثة صقور مدربة لصيد الحباري والأرانب.

قال له وهو يقدمها:

ـ هذا من الرحيبة، وسُمي فوزان. وهذا من عقرقوف وسُمي كاسر، أما الثالث، وهو من طور العراق، واسمه باقي، فانه من أحب الصقور إليّ، ولا بد أن تتمتع كثيراً أثناء اصطحابها للصيد، ولقد كلفت حامليها ومروضيها أن يكونوا تحت تصرفكم الوقت الذي تحددونه بأنفسكم.

ريتش الذي لم يستطع أن يخفي غبطته لهذه الهدية الثمينة، كان يتوق إلى أن يكون ماهراً في الصيد بالصقور أيضاً، بعد أن أصبح مضرب المثل لمهارته بصيد البنادق، وبواسطة الكلاب. وإذا كان قد فكر باقتناء بعض

الصقور، إلا أن مشاغله الكثيرة، حالت دون الحصول على الصقور الملائمة. الآن، وهو يتلقى هذه الهدية، يشعر انه امتلك عدته كلها، وسوف يبرع هنا وهناك، في هذا النوع من الصيد، وفي الأنواع الأخرى!

وإذا كان الباشا قد شغلته هدية ريتش، من حيث دلالتها، وما يرمي إليه من ورائها، فان أسماء الصقور لفتت نظر ريتش ثم جعلته يتساءل ما إذا كانت هذه رسالة جديدة من الباشا، لكن لم يتوقف طويلاً عند ذاك، إذ ما دامت الصقور أصبحت ملكه، يمكن أن يطلق عليها الأسماء التي يشاء، وسوف يختار لها أسماء تلائمها أكثر، وقد يعيد فراخها، ذات يوم، للباشا؛ لكن بأسماء جديدة، وستكون رداً على هذه الرسالة التي أراد داود باشا أن يبلّغه بها!

ولم يتأخر الكابتن نكلسون في الوصول إلى بغداد. وصل على قطعة بحرية معدّة للأنهار والقنوات، وكان برفقته عدد غير قليل من الضباط والجنود. كانت الباخرة مثل سمكة عملاقة بشكلها وبلونها، ولا تشبه أية من البواخر التي وصلت من قبل، بمدافعها المنصوبة في المقدمة والمؤخرة، وبهيكلها الحديدي المتين، وبتلك المساحات الرحبة على ظهرها، خاصة حين يقف الجنود، بملابسهم البيضاء، إذ يبدون مثل الطيور، نظراً لتشابههم من حيث الطول والملامح، وكأنهم نسخة واحدة تكررت عشرات المرات!

كان وصول الباخرة حدثاً استثنائياً لكل من رآها على طول ضفاف دجلة. أما حين وقفت إلى جانب باخرة الباليوز، وكانت المدافع مصوبة إلى السراي من ناحية، وإلى صوب الكرخ في مواجهة الشواكة، من ناحية أخرى، فقد أثارت الفزع والتساؤل: «هذي البلية التي لم تر بغداد مثلها. . جاءت بزيارة؟ جاءت لتبقى إلى جانب تلك التي سبقتها، باخرة الباليوز؟ وهل هي سفينة أصدقاء أم أعداء؟».

الذين سافروا إلى البصرة، ورأوا البواخر هناك؛ وأولئك الذين وصلوا إلى سواحل المتوسط أو اسطنبول، ورأوا البواخر الكبيرة تقف في الموانىء

أو تمخر البحر العريض، لم يستغربوا حجم الباخرة التي وصلت، لكنهم استغربوا شكلها ثم الأسلحة المنصوبة عليها، وقد تبرع هؤلاء في شرح ووصف ما رأوا، وكيف أن بعض البواخر يصل حجمها إلى حجم المحلة، وتحمل عشرات ومئات من المسافرين، إضافة إلى الأمتعة، عدا عن الكميات الكبيرة من القمح والشعير والسكر، ويمكن أن تحمل أيضاً الحيوانات، إذ تنقلها من مكان إلى آخر، لكن لم يروا عليها هذه الكمية من الأسلحة.

الباليوز الذي كان مستعداً لهذه الزيارة، كان يريدها استعراضاً للقوة، لكن دون استفزاز. إذ لا بد أن يرى الباشا بنفسه واحدة من أصغر قطع الأسطول البريطاني التي شاركت في هزيمة نابليون، ولا بد من أن يُوضّح له أنه كان من المرغوب وصول قطع أكبر، لكن وضع النهر، في هذه المرحلة، لا يتيح ذلك، وإن كان في وقت لاحق، حين يعمّق المجرى، وتعدل بعض الزوايا سيكون بإمكان بواخر أضخم من الوصول. ولا بد أن يتطرق البحث إلى الفوائد التي تعود على كلا الطرفين من جراء اعتماد الطريق النهري في النقل والبريد، خاصة إذا تم تعميق المجرى حتى أعالي النهر.

حين يرى الباشا بعينه هذه القطعة البحرية، ويرى مدافعها وتجهيزاتها، سوف يخاف من ناحية، وسوف يبذل أقصى جهده من أجل الوصول إلى اتفاق حول التسليح، ولا بد أن يوافق على الكثير مما يعرض عليه!

بمقدار براعة ريتش في إخراج الكثير من القضايا، وإبراز أهميتها، فإن نكلسون الذي قضى سنوات طويلة في الهند، لا يقل عنه براعة، وهذا ما تأكد خلال الأسبوعين اللذين قضتهما السفينة في بغداد.

فبعد أن استقرت القطعة البحرية خلال اليوم الأول، واستراح بحارتها، جرى استقبال ضخم للبحارة أثناء نزولهم من السفينة إلى حدائق الباليوز، وقد بذل ريتش أقصى جهده لإظهار النظام والقوة معاً، في المظهر، بنوعية الأسلحة التي تقلدها حرسه، بالاستعراض الذي جرى أثناء الاستقبال،

وبالأنغام الموسيقية التي صدحت طوال فترة قبل الظهر.

رأى الكثيرون في صوب الكرخ، رغم اتساع المسافة عبر النهر، حركة البحارة على ظهر السفينة. كانوا مثل النوارس بالحركات الرشيقة التي بدأوا بها صباحاً، أما عندما صدحت الموسيقى، فقد اندفع الصبية وبينهم بعض الفضوليين لاستطلاع الأمر، خاصة وانه لم يبق أحد في اليوم السابق إلا ورأى «السلعوة»، كما أطلق الحاج شبلي على السفينة، التي صعدت النهر ببطء متوجهة نحو الباليوز.

كانت عادة رجال القنصل أن ينطلقوا بقوة إلى الأسواق، وأن يتوقفوا في المقاهي، لإعلان الأخبار الخاصة بالباليوز، إلا أنهم لم يفعلوا ذلك هذه المرة، ربما نتيجة السياسة الجديدة لريتش، أو لأن حدثاً من هذا النوع يعلن بنفسه عن نفسه، ولا حاجة لحفز الناس لمشاهدته أو دعوتهم إليه.

قال بعض الصبية إنهم لم يتوقعوا أن يكون حرس الباليوز بهذا الشكل من التسامح والتساهل، إذ لم يعترضوا طريقهم وهم يصلون إلى الأسوار، ثم وهم يتسلقونها، ليشاهدوا الاستعراض! كما التفت إليهم، أثناء الاستراحات، الحرس والبحارة، ولوحوا لهم بأيديهم وابتسموا، وقد فسر الصبية الابتسامات وتلويحات الأيدي تفسيرات شتى، لم يخل بعضها من سوء النية! أما الأكبر سناً فان نظراتهم واهتماماتهم انصبت على الأسلحة والخيول، إذ ميزوا الخيول التي كان يمتطيها القنصل عن الخيول الأخرى؛ وسمّوا أنواعاً من الأسلحة، وان اختلفوا على أخرى، كما تراهنوا حول أوزانها والمسافات التي تصل إليها رماياتها، وكيفية التصويب بالأسلحة الكبيرة.

ومع أن النقاش كان يحتد بين الكبار، وتتضاعف المبالغ التي يتراهنون عليها، وتتداخل ادعاءات المعرفة بالأكاذيب، فقد كان الجميع على قناعة أكيدة أن لا أحد سوف يكسب، ولن يخسر أحد، لأن ليس هناك من يُستشار أو يحكم في هذه الخلافات!

ولأنه تحدد اليوم الثالث، بعد وصول السفينة، لاستقبال قائدها في

السراي، فقد انقضى اليوم التالي للاستعراض الداخلي، وفي التدريب صباحاً، وفي تلميع جوانب السفينة، أما في الليل فقد أقيم احتفال في حدائق الباليوز، تخلله استقبال دعي إليه عدد غير قليل من كبار الموظفين والوجهاء، وكان ريتش ونكلسون في مقدمة المستقبلين للضيوف، وقد تم تبادل الأحاديث الودية، وكان أغلبها يدور عن الطقس والقطعة البحرية، عن سرعتها وعدد الجنود الذين تنقلهم، وأسلحتها وتموينها، وأيضاً حجمها بالمقارنة مع قطع الأسطول الأخرى، وقد قام ريتش بالترجمة بين نكلسون والضيوف الذين كانوا يسألون. ولم تتوقف الفرقة الموسيقية التابعة للباليوز عن العزف، وقدمت ألحاناً لاقت استحسان الكثيرين، خاصة وهي تعزف بعض الألحان المحلية.

في اليوم الثالث اتجه موكب القنصل وضيفه إلى السراي.

قال الكثيرون، وكان منهم من يكره القنصل ويكّن له العداء، بل ويعتبره فأل سوء، قالوا إنهم لم يروا في حياتهم موكباً على هذا القدر من المهابة والنظام. ومما زاد في إظهار رونقه البحارة بملابسهم البيضاء، وقبعاتهم الزرقاء، وقد كانوا في مقدمة الموكب، بعد الفرقة الموسيقية. كانت الخطوات منتظمة، على وقع الطبول، والنظرات مصوبة باستقامة إلى الأمام، أما الأسلحة اللامعة التي كانوا يتنكبونها فقد بدت جديدة، تثير الإعجاب.

بعد البحارة صف من الفرسان، وهم من حراس القنصل، ورغم أن وجوههم مألوفة لكثيرين، إلا إنهم بدوا وكأنهم لم يُروا من قبل.

ولكي يظهر القنصل وضيفه ملء الأبصار، فقد تُركت مسافة أمتار فارغة؛ وخلافاً لجميع المواكب السابقة، كان القنصل وضيفه وحدهما في المقدمة، أما نائبه والمسؤول العسكري ثم طبيب الباليوز فكانوا في نسق واحد بعدهما، ثم عدد من كبار موظفي الباليوز فالحرس.

كان القنصل بملابس عسكرية جميلة، وان اختلفت عن مرات سابقة، وكان يحاول أن يبقي قدميه مشدودتين في الركاب ليرتفع قليلاً، من أجل

أن يظهر بقامة مقاربة لضيفه الضخم، والذي اختار حصاناً يلائم الجسد الكبير الممتلىء.

تعلقت عيون الذين خرجوا من دكاكينهم، والمارة الذين توقفوا، حين مر الموكب، بالضيف أكثر من أي شخص آخر، إذ بدا لهم، بالإضافة إلى ضخامته، مهيباً وملفتاً للنظر، خاصة بالوجه المستدير المشرب بالحمرة، وبتلك اللحية الكثة، والمشذّبة أيضاً، ثم بالملابس البيضاء التي تبرق في الشمس هي والأوسمة التي تملأ الصدر. كان، خلافاً للقنصل، ينظر إلى كل شيء يمر به باهتمام وتدقيق، وكانت الابتسامة لا تفارق شفتيه.

قالَ كثيرون، وهم يرون نكلسون، أنه يشبه الطبيب النمساوي الذي وصل من اسطنبول قبل بضع سنوات لمعالجة والي بغداد، عبد الله التوتونجي، حين سقط عن الفرس وانكسر حوضه. كان ذلك الطبيب بضخامته ولحيته وابتسامته حديث بغداد لأيام وأيام، خاصة وأنه كان يروق له أن يتبسط مع الناس، وان يتجول في الأسواق ويجلس في المقاهي، ولم يمانع في مشاركة الكثيرين الطعام والشراب، كما وزع أدوية كثيرة أثناء إقامته، ولم يتوقف الناس عن مراقبته وتقصّي كل تفاصيل حياته. ولأنه كان يتمتع بقوة هائلة، وتأكد ذلك من مشاركته في منازلات الكسار ثم حمل الأوزان، فقد قال كثيرون إن مثل هذه البنية قادرة على أن تعيش مئات السنين، وليس مثل أهل هذه البلاد ذوي البنيات الصغيرة والضعيفة. وقال آخرون بتساؤل أقرب إلى العجب: كيف يمكن لامرأة أن تحتمل مثل هذا الجسد؟!

الآن، والناس يرون ضيف القنصل بقامته الطويلة المتينة، تذكروا، من جديد الطبيب النمساوي، والذي حمل أكثر من اسم، إذ سمي هانز وهانس، وجاء من أطلق عليه حنس ثم نمس، وسُمي أيضاً نمش نظراً للنمش في وجهه، ثم تحول إلى نمّاش، إلى أن أصبح اسمه في النهاية خمّاس! ولأنه أحب الناس والمدينة، ولم يتوقف عن التردد على المحلات والأسواق، فقد أحب الاسم الذي أطلق عليه، حتى بلغ الأمر في آخر أيام

إقامته في بغداد، بأن يعرّف نفسه لمن لا يعرفه: بخمّاس!

تذكر الناس خمّاس وهم يرون هذا الضيف.

قال بعض حراس السراي، إن القنصل حين ترجل عن الحصان، ومشى إلى جانب ضيفه، كان يمشي على رؤوس أصابع رجليه ليبدو أطول قليلاً. وقال آخرون، بدا القنصل مثل طفل يسير إلى جانب أبيه! أما الباشا حين رآه فقد اهتز رأسه دون إرادته، وكأنه شكّ بضخامة هذه القامة.

خلف الذي كان قريباً وبعيداً بنفس المقدار، ذكر أن الباشا أجّل أداء صلاة الظهر، وهذه من الحالات النادرة، لكي يستكمل المباحثات مع القنصل وضيفه.

أما طلعت باقة الذي شارك في هذا اللقاء، فذكر أن القنصل كان يترجم أغلب الوقت بين الطرفين، وكانت مشاركته، أو الآراء التي أبداها قليلة، وغالباً ما كان يتبادل الكلام مع الضيف باللغة الإنكليزية، وقد أسف الباشا أسفاً كبيراً لأنه لم يكن حواليه من يفهم هذه اللغة، ليعرف ما تم تبادله بين الاثنين من أحاديث!

قبل أن يجري بحث أمر السلاح، وكان الباشا معنياً بهذا الموضوع، بدا نكلسون حريصاً على أن يستعرض جزءاً من تاريخ الأسطول البريطاني، باعتبار انه جزء من هذا الأسطول، وكان الموضوع الأثير بالنسبة له: كيف تمت هزيمة نابليون.

قال طلعت باقة إن «الرجل كان يسمّع درسه» إذ لم يترك شاردة أو واردة عن مساوىء نابليون إلا وذكرها، وأكد أن هذا ليس رأيه فقط، بل ورأي المفكرين الفرنسيين أنفسهم، واستخرج من جيبه ورقة، وأخذ يقرأ، والقنصل يترجم: «كان نابليون يغار من أية شهرة، ويعتبرها اغتصاباً لحقٍ خاص باسمه وحده، كان لا بد أن يكون اسم نابليون الاسم الوحيد في العالم» هذا ما قاله أعظم كتاب فرنسا، شاتوبريان، وهذا رأي جميع العقلاء في العالم، إذ لو ترك هذا الكورسيكي يسرح ويمرح دون أن يقف أحد بوجهه، فما كانت لتمر بضع سنوات إلا ويدمّر العالم بأسره. وهكذا

كانت بريطانيا مضطرة، نيابة عن العالم المتحضر، أن تتصدى له، وأن تهزمه أيضاً، والآن حين يقبع هذا الكورسيكي في المنفى، فانها أخف العقوبات، بل أتفهها، قياساً بالجرائم التي ارتكبها.

بعد أن أنهى الضيف «تسميع» القسم الأكبر من الدرس، تولى القنصل التمهيد للقسم الباقي، إذ أشار إلى الحب الذي يكنه لهذا البلد ولأهله، ومدى الاحترام الذي يكنه للوالي، مما جعله يبحث في لندن إمكانية أن تتولى بريطانيا تزويده بالسلاح الذي يحتاج إليه، وأن الكابتن نكلسون مفوض من الحكومة البريطانية بالوصول إلى النتائج التي يرغبها الطرفان.

لخّص طلعت باقة لعدد من الضباط ما عرضه نكلسون، إذ بعد أن أشار إلى تفوق الأسلحة البريطانية في مجالات البر والبحر، فان الحكومة الإنكليزية ترغب بحماية الملاحة البحرية من أية تعديات، وأن تزدهر التجارة بين البلدان؛ ولأن لبريطانيا مصالح كبيرة في الهند، وتريد أن يصل الأفراد والبريد والبضائع إلى هناك بأسرع وقت ممكن، فهي تفضل أن يكون لها طريق آمن من مصر إلى الهند، عبر الفرات وصولاً إلى البصره، ولكون حكومة اسطنبول مشغولة الآن بقضايا البلقان، فقد ارتأينا أن يتم بحث الأمر مع السلطات المعنية في الولايات التي يمر فيها هذا الطريق، وهذا ما طلبت مني حكومة جلالة الملك أن أبحثه مع باشا بغداد.

استمع الباشا باهتمام وانتباه شديدين إلى كل كلمة قالها نكلسون. ورغم أنه كان لديه رأي آخر بنابليون، فلم يشأ أن يدخل بنقاش حول الموضوع، إذ استسفر عن الخسائر التي تكبدها الطرفان، والوقت الذي استغرقته المعارك البحرية، وكيف تسنى لنابليون الفرار، وكيف كان رد الفعل في بريطانيا والممالك الأوروبية الأخرى، ثم كيف هزم من جديد وألقي القبض عليه. أما حين سأل ما إذا تسنى لنابليون أن يفر مرة أخرى، أو أن يظهر نابليون آخر في إحدى الممالك الأوروبية، فقد تبادل القنصل والضيف نظرات فيها من الحنق والهم ما لا يمكن إخفاؤه، لكن نكلسون عاد للتأكيد أن أمراً مثل هذا مستحيل تماماً، نظراً لقوة بريطانيا المتفوقة في

البر والبحر، وبالتالي لا يمكن لأحد أن يقف في وجهها.

وحين أثنى الباشا على السلطان محمود، وقد أطال في ذلك، وأظهر أن بعض المصاعب التي تواجه اسطنبول مؤقتة، وسوف تتغلب عليها، وافقه القنصل على ذلك، وأكد أن ليس هناك أي تعارض بين الصداقة التي تربط اسطنبول بلندن، وبين بحث مشروع اعتماد الطريق البري، وأن يصبح الفرات شرياناً أساسياً للنقل والتجارة والبريد، إذ من شأن ذلك أن يعود بالنفع المباشر على ولاية بغداد، وهذا ما يجعل بحث الأمر مع الوالي أساسياً.

انتهى اللقاء في السراي بالاتفاق على أن يتم لقاء آخر. أما الدعوة التي وجهها القنصل باسمه وباسم ضيفه للباشا أن يقوم بزيارة الباليوز، ومشاهدة السفينة، فقد اعتذر عنها لأنه خلال شهر رمضان يكرِّس كل وقته للعبادة ولإلقاء الدروس، لكن سيوفد عدداً من ضباطه وموظفي السراي للقيام بهذه الزيارة، كما سيتبلغ الضيف الكريم بموعد لاحق للقاء.

119

في ليالي رمضان الطويلة، بعد أن يودع الباشا زواره، ولئلا يضطر للاستيقاظ من جديد لتناول السحور، كان يبقى ساهراً، وأغلب الأحيان وحيداً، حتى ساعة متأخرة من الليل، وخلال ذلك يقرأ الأوراد ويصلي، وبعض الأحيان يرجع إلى عدد من الكتب يطالعها، أو يلتفت إلى فيروز، الذي يبقى على كرسي عند باب القاعة الجنوبية المطلة على النهر، فإذا شعر الباشا بالتعب أو الجوع تناول طعاماً خفيفاً، ثم يذهب إلى النوم.

خلال الساعات الطويلة التي يقضيها وحيداً أو مع فيروز، كانت أفكاره تطوف في أماكن لا حصر لها، وفي هذا الطواف الذي لا ينتهي، يستغرب كيف تنتقل أفكاره وذاكرته من مكان إلى آخر، إذ يستعيد وقائع ووجوهاً وأمكنة لا رابط بينها. فهو بمقدار ما تستوقفه حادثة أو كلمة في ذات اليوم، يجد نفسه متذكراً حوادث وأزمنة بعيدة، حين كان طفلاً، ثم فجأة يجد نفسه في الشمال، فيعود من جديد إلى تذكر ملامح سليمان الكبير، خاصة ساعاته الأخيرة، ومعها يتذكر نابي خاتون، كيف كانت مثل ملكة في مرحلة، ثم امرأة معتوهة في مرحلة أخرى. أما وجه سعيد فإنه لا يغيب، إذ يعاوده مرة بعد أخرى، في الصحو والمنام، ومع أنه يحاول، وبقوة، إبعاده، إلا انه، بمكر لم يستطع أن يفسره، يظهر من جديد.

كانت تفلت منه، بعض الأحيان، كلمة، أو ترتسم على شفتيه ابتسامة. وفيروز، وبطريقة فذة، يعرف متى يتدخل، ومتى يواصل الصمت. حتى إذا سأله الباشا عن أمر أو شخص، لا يتأخر في الإجابة، لكن باختصار

معظم الأحيان، إذ كان يقدر أن الباشا يرغب بمواصلة الرحلة أكثر مما يعنيه التدقيق في الجواب.

بعد الزيارة التي قام بها ريتش وضيفه، ابتعدت الأطياف والوقائع كلها، وحل مكانها ريتش. يتذكره الباشا حين وصل إلى بغداد أول مرة. كان شاباً، وكان لا يتوقف عن النشاط والحركة، يريد أن يرى وأن يلم بكل شيء في أقصر فترة زمنية ممكنة. فهو ينتقل من مكان إلى آخر، من عمل إلى آخر، وكأنه يحاول إقناع نفسه قبل أن يقنع الآخرين، أنه قادر على استيعاب كل شيء بسرعة خارقة، وهذا ما جعله شديد الثقة بنفسه، متعجلاً، حاسماً، تماماً مثل أي فتى غادر الصبا على عجل وافترض أنه بلغ مبلغ الرجال! كان يظهر ذلك بالكلام، بالتصرفات، وبذلك الذهول الذي يلفه بعض الأحيان، وكأن هماً يثقل كاهله، ولا يمكن مواجهته إلا بالعبوس أو بما يشبه الاستغراق في تفكير عميق! حتى إجاباته، في مثل هذه الحالات، تراوح بين البلاهة والحكمة، أو مثل الطالب المجد الذي نسي مقاطع من درسه فاستبدلها بغيرها ليبدو ذكياً!

لكن والأيام تمر، يكتسب في كل يوم تجربة، ولا تلبث التجربة أن تتحول إلى معرفة، لتصبح المعرفة مكراً يغلف بالابتسامات حيناً، وبالغضب أحياناً، أو بتلك المداورة التي تعبر عن نفسها بالتصرفات لا بالكلمات.

ظل ريتش يراوح بين حدين متباعدين، فالقنصل الفرنسي جاثم على صدره مثل الكابوس، والاثنان يلعبان اللعبة ذاتها، وبمكر يتفاوت تبعاً لقوة الشخصية وقوة الدولة التي يمثلها. أما بعد أن هزم الوالي سليمان الصغير، وتأكد أنه قضى عليه تماماً، وجاء بالوالي الجديد، تعثر القنصل الفرنسي، ثم لم يلبث أن غاب نهائياً، فأصبح ريتش على ثقة كلية وأكيدة أنه الأقوى، ووحده القادر على فرض كل ما يريد.

كان هذا الانتصار لريتش صدى لانتصار بريطانيا على فرنسا، وكانت ذروة هذا الانتصار هزيمة نابليون ثم أسره. ومذ ذاك تحول ديوان ريتش

إلى المقر الحقيقي للسلطة، ولم يتردد ريتش أن يوسع حمايته لتشمل جميع الطوائف المسيحية واليهود، وأخذ يلجأ إليه الملاحقون والمتنافسون طلباً للحماية، أو لأن يحكم بينهم.

خلال فترة طويلة من حكم سعيد باشا، أصبح ريتش كل شيء في بغداد، أما حين دب الخلاف بين سعيد ورجاله، ولما اضطربت أحوال الولاية، وأصبح ثامر بن حمود أولاً، ثم حمادي بعد ذلك، من يسيّر شؤون الولاية، فقد شعر ريتش أن هذا النمط من الرجال لم يعد مناسباً أو صالحاً، لذلك من الأفضل أن يسحب حمايته، وأن يترك المتصارعين يتبارون، حتى إذا جاء الأقوى، والقادر على أن يسيطر على الأمور، يمكن لريتش أن يمسك القضايا الأساسية، ويلتفت إلى المشاريع التي يجب أن تنفذ، تاركاً القضايا الصغيرة، اليومية، للذين يحبون أن ينشغلوا بها!

ويتذكر داود حين وصل إلى بغداد، وأصبح والياً، كان ريتش يتفرج ويراقب، لم يدعم ولم يمنع. بل أكثر من ذلك أعطى نفسه إجازة طويلة. صحيح أنه لم يغادر بغداد، لكنه انشغل بتوسيع الباليوز، وانشغل أكثر بالحيوانات والطيور، وكأنه يعدُّ نفسه لمرحلة جديدة. بعث ببعض الرسائل من خلال الاستعراضات التي أقامها، وعن طريق رجاله، ولكن داود تظاهر انه لم ير ولم يسمع، وكان يريد للقنصل أن يستريح، والعودة إلى الوظيفة التي أقيمت القنصلية من أجلها: أن تسهّل وأن تساعد في وصول البضائع، وان يجري من خلالها المراسلة والاتصال مع بريطانيا لتأمين عدد من المواد، خاصة التجارية، وأن ينتظم وصول السفن إلى البصرة، ثم تسهيل نقل ما تحمل إلى بغداد. أما أن ينشغل القنصل بالكبيرة والصغيرة، أن يحرض القبائل، أو أن يدفع لها لكي تثور على الوالي، فإن كل ذلك يجب أن يتوقف، وأن يصبح جزءاً من تاريخ مضى.

لم يشأ داود باشا أن يصطدم بريتش، لم يشأ أن يعاديه. أما كيف حصلت الأمور بعد ذلك، فالباشا نفسه يستغرب. فها هو ريتش الآن، بعد أن خسر الرهان الكبير، بغياب الآغا، يأتيه عارضاً عليه السلاح والطريق

النهري. لم يكتف بذلك، فقد جاء بخمّاس جديد، لكنه مختلف، ليلقي عليه الدروس، خاصة درس هزيمة نابليون!

ما كان الباشا ليتذكر خمّاس لو لم يذكّره فيروز، إذ قال له، بعد تلك الزيارة:

ـ لو هذا الكبير المتين جا وحده كنت قلت لروحي إنه خماس!

ـ والله جبتها، يا ابن الحلال...

وبعد قليل، وكأن الباشا يحدّث نفسه:

ـ سبحانه يخلق من الشبه أربعين، وقلت لنفسي أكثر من مرة: هذا الوجه شايفه، لكن لما سمعت صوته قلت: لا، ما شفناه ولا عرفناه!

وغرق الباشا في صمته من جديد، وهو يستعرض ما سمعه من الاثنين. قال في نفسه: لو أن اقتراحاً من هذا النوع قدم في وقت سابق، على الأقل قبل إعدام الآغا، لاعتبرته دليلاً على حسن النية، وربما تكفيراً عن إساءات وأخطاء سابقة، لكن أن يأتي في هذا الوقت، فلا بد أن يكون فخاً للإيقاع بيني وبين اسطنبول، ومع السلطان بالذات، ومعنى ذلك: أن يقدم رأسي سلفاً ومجاناً، وهو بمثابة رد سريع على إعدام الآغا.

السلاح، مباشرة من لندره إلى بغداد، دون موافقة السلطان، بل ودون علمه؟ لماذا؟ لقد ظل هذا السؤال يشغل بال الوالي منذ اللقاء الأول بعد أن عاد ريتش من السفر. هل يريد أن يكافئه؟ أن يبدأ مرحلة جديدة؟

لا يمكن أن يقتنع أو أن يقنعه. لا بد أن يكون هناك أمر آخر يضمره، يريد أن يصل إليه.

يقول: إن محمد علي باشا اتفق مع الإنكليز دون علم السلطان، وهو ماضٍ في هذا الطريق، فلماذا لا يفعل دواد باشا الأمر نفسه؟ هكذا سأل ريتش، وتوقف طويلاً عند نموذج مصر ومحمد علي، لكن هذا الأمر زاد مخاوف الباشا، جعله يفكر بأمور كثيرة، ويستعيد وجوه أصدقائه في اسطنبول، وقال لنفسه بحزم أقرب إلى اللوم: «لا تكن مغفلاً، فإذا كان محمد علي قد اتفق على السلاح والأسطول وأمور أخرى كثيرة، فإن

محمد علي هو الذي طلب ثم فرض ذلك، أما أن يأتي الإنكليز وحدهم، وأن يقترحوا مثل هذا الاقتراح، فإن الإنكليز ليسوا من النبالة والصدق إلى حدّ أن يفعلوا ذلك دون مقابل، وإنما يريدون أن يورِّطوه، أن يخلقوا له مشكلة مع السلطان غير قابلة للحل، ولا يمكن أن تمر دون عقاب، وكأنه العقاب الذي خططوا له لكي ينتقموا للآغا، ليقولوا له ماذا يحلّ بمن يعادي بريطانيا، وبريطانيا هنا تتمثل بالقنصل.

والطريق البري بين بريطانيا والهند، عبر مصر ثم بلاد الشام، وصولاً إلى الفرات فالبصرة، هل يمكن أن يوافق على ذلك؟ خاصة بعد أن أصبحت اسطنبول تتقي، بل وتخاف من بريطانيا.

ان مجرد الإقدام على أمر مثل هذا، خاصة في هذه المرحلة، يعني أن يدخل في خصومة كاملة مع اسطنبول. وإذا كان له، في السابق، أصدقاء يحمونه، يمكن أن يبرروا أفعاله لدى السلطان والباب العالي، فانه بعد إعدام خالد أفندي، الصديق الذي يعتمد عليه أكثر من غيره، ثم بعد كلام عزرا أن الجماعة الذين كانوا يتولون الأمور المالية لم يعودوا قادرين، وعلى بغداد أن تجد وسيلة أخرى لتسديد ما يستحق عليها لاسطنبول، فان من شأن طرح الأمر الآن، أن يعتبر داود متمرداً ولا بد من تأديبه.

قال الباشا، وهو يفكر بهذه الأمور:

ـ اسطنبول ملدوغة، وتخاف من جرة الحبل، وإذا كان لدواد أصدقاء هناك فان أعداءه أكثر.. ما تقول يا فيروز؟

وفيروز الذي يحدس بهذه الأمور، دون أن يعرفها، يعرف أن رضى اسطنبول، على الأقل في هذه المرحلة ضروري، رد، وقد شابت صوته رنة حزن:

ـ يا أفندينا، اسطنبول ملدوغة، والملدوغ يخاف من جرة الحبل، مثل ما قلت، فخلي الأمور هسّه تمر سلامات، ونحن بألف خير.

ـ لكن اسطنبول اللي ببالك تغيرت، هسّه صارت ألف ملّة، وكل وحدة تجر لصفحة.

ـ لكن على الغريب يتجمعون، يا أفندينا!

لم يشأ الباشا أن يناقش فيروز، أو أن يعانده، فقد كان يدرك مثله أن الوقت لم يحن بعد لأن يفكر بهذه الطريقة، أو أن يقدم على مثل هذه الخطوات. وتذكر ما قاله خمّاس، وكيف كان يشعر باللذة وهو يتحدث عن هزيمة نابليون. لم يكتف بذلك، أخرج من جيبه أوراقاً وبدأ يقرأها، والقنصل يترجم، وكأنه يريد أن يلقن درساً، ليحمل كل من يعاند بريطانيا على التفكير قبل أن يخطو خطوة واحدة.

حسم الباشا الأمر. قال لفيروز، وهو يدق الجرس الموجود إلى جانبه بقوة:

ـ لازم نتحزم للواوي بحزام أسد، لأن هذي دنيا، وكل شي يمكن أن يحصل، وما دام صبرنا وانتظرنا، يمكن نصبر بعد، فخلنا ما نصدّقهم، ونحن بديرتنا وهم غُرب!

وهكذا قرر الباشا أن يتريث، ثم أن يعتذر، على الأقل في هذه المرحلة، بحجة أن الاقتراح يتطلب المزيد من التفكير والدراسة قبل البت فيه.

لما توصل الباشا إلى هذا القرار شعر بالراحة، ولاحظ أن القلق زايله، كما أصبح أكثر ميلاً إلى إطالة السهر مع ضيوفه، والتطرق إلى موضوعات متعددة، بما فيها سيَر بعض المتصوفة وأشعارهم. أكثر من ذلك شعر الباشا أن صلواته والأوراد التي يرددها أخذت تدخل الطمأنينة إلى قلبه، وأنه خلال ذلك يدخل في عالم من النور يجعله خفيفاً يكاد يطير.

قال لفيروز، ذات ليلة، بعد أن ودع ضيوفه:

ـ إذا صدَّقنا القنصل وخمّاس، راح يصير بينا مثل ما صار بقصة كليلة ودمنة لما راحوا للقرد حتى يقسّم الجبنة!

ظل فيروز ينتظر علّ الباشا يروي القصة، لكنه سمعه يقول:

ـ ذكّرني فد يوم وراح أحكي لك القصة!

ـ صار عليك ديون كثيرة، يا أفندينا!

ـ الحق عليك لأنك ما ذكّرتني، لكن يجي يوم ونسولف!

ولم ينس الباشا أن يوعز لعدد من ضباطه، على رأسهم طلعت باقة، بزيارة الباليوز ولقاء القنصل وخمّاس، لتفقد السفينة والإطلاع على أسلحتها، وأن يحاولوا، جهدهم، معرفة ما وراء العرض الذي تقدما به، لكن هذه المحاولات انتهت إلى نتيجة واحدة: انبهار الضباط بما رأوا، خاصة بعد أن قام بحارة السفينة ببعض الاستعراضات، بما فيها إدارة المدافع، وقوة النيران، وما يمكن أن تلحق بالعدو!

قال الباشا لطلعت باقة، بعد أن قدم له تقريراً عن الزيارة:

ـ ظني، يا طلعت بك، أن الإنكليز ما يعطون السلاح لله، لا بد يكون وراء هذا الكلام سالفة، فخلنا ننتظر ونشوف!

وحين وجد طلعت صامتاً، وكأنه لا يزال واقعاً تحت تأثير ما رأى، أضاف:

ـ يجي يوم، يا طلعت بك، نقدر نسوّي فد شيء، إذا ما كان مثل اللي شفته، فقريب منه.

رد طلعت بتسليم على قول الباشا:

ـ الله كريم، وعسى هذا اليوم ما يكون بعيد!

وإندفع الباشا يعرض بعض تجاربه وأحلامه:

ـ إنت كنت رئيس المحكمة، وسمعت أقوال الشهود واعترافات الآغا، وشلون القنصل يخطط ويدفع فلوس حتى تنقصّ روسنا، فشنو اللي غيّره بين يوم وليلة؟ من ذاك العداء إلى: هذا هو السلاح.. تفضلوا، خذوا. شنو اللي صار بالدنيا؟

هز رأسه عدة مرات، وأضاف بلهجة حانقة:

ـ حتى زيارة السفينة يريدون أن تكون لنا درساً: اللي ما يجي بعيني وآغاتي، يجي غصباً عليه، فاختاروا!

ـ اللي تقوله كلش صحيح، يا باشا، بس الواحد يتمنى يكون عندنا سلاح مثل سلاحهم!

ـ إذا الله راضي علينا، وخلصنا من طلايب البدو وغيرهم، وارتاح راسنا من المشاكل، راح يتحول العراق إلى جنة، ومثل ما سوَّى والي مصر راح نسوي: الجيش، السلاح، المعامل، المدارس، الجوامع؛ بس نريد نخلص من دوخة الراس، من هذي المصايب اللي تتدردب علينا من كل صفحة، وكل واحد يقول هات. . أو ما عندي!

وطال الحديث بين الاثنين وتشعَّب، لكن حين ودَّع طلعت بك الباشا صافحه بقوة، وبأكثر حرارة من مرات سابقة، وقال:

ـ اللَّه يقويك يا باشا؛ وربنا سبحانه وتعالى يرزق الناس على نياتهم، فعسى أن يفتحها بوجهنا، ويحقق آمالنا.

رد الباشا بمرح:

ـ وبهذي الليلة مو بس اتفقنا، يا طلعت بك، وكسبنا واحداً جديداً للجنة. . .

وسمع طلعت، وهو يستدير ليغادر السراي، الباشا يقول:

ـ تفاءلوا بالخير تجدوه!

120

يوماً بعد أخر، آخذ الكيخيا يحيى بك يصدّق أنه خاض معركة لا تماثلها أية معركة سابقة، وأنه انتصر. فعندما استقبله الباشا قبل دخوله إلى بغداد، ثم الاحتفالات التي أقيمت بهذه المناسبة، إضافة إلى الخلعة والنيشان، كل هذه الأمور، زيادة على أحاديث الذين حوله، جعلته يتأكد أن معارك الفرات الأوسط بالغة الأهمية، وربما تكون خارقة. وكان كل يوم يجد سبباً جديداً يؤيد ذلك، خاصة وأن موجة الشعر التي رافقت النصر استمرت وتطاولت لأسابيع، وقد ورد اسمه أكثر من مرة في القصائد التي نظمت تمجيداً بالنصر الذي تم إحرازه، الأمر الذي زاده اقتناعاً بأهميته وبالإنجاز الذي حققه.

الباشا، نكاية بالباليوز، وليغيب ذكر الآغا نهائياً، لم يجد غضاضة في أن يردد الشعراء اسم الكيخيا، خاصة وأن رجال السراي بالغوا في الحديث عن النصر الذي تحقق. كما أراد الباشا أيضاً أن تُمسح من الذاكرة «دقة الغدر»، لأنها تعرّض سمعة الوالي نفسه إلى الإساءة، وهذا ما دعاه إلى التعامل مع الشيوخ بكرم زائد، كطريقة للاعتذار، ولإرضاء الكثيرين، بمن فيهم طلعت باقة وضباطه. وقد خُيّر هؤلاء الشيوخ بين استمرار إقامتهم في بغداد، مع الرعاية وتلبية جميع الطلبات، وبين العودة إلى قبائلهم، «. . . . ورجاء أن يطوى الحديث عما حصل، لأن الحرب تعمي، كما قال لهم خلف، وتحصل خلالها أغلاط غير مقصودة». أما البيوت التي تم تخصيصها لهم، أما العطايا التي قدمت، بما فيها الخيول التي جلبت من

كركوك، وكانت ضمن اسطبلات الآغا، ووزعت عليهم، وعلى كبار الضباط الذين شاركوا في معارك الفرات الأوسط، فقد جعلت عدداً من الشيوخ يستجيب إلى ما طلب منه، وهكذا أخذت الصورة تتغير، خاصة بعدما هدأت النفوس، وأصبح الاحتكام إلى لغة العقل ممكناً في أعقاب فورة الدم التي سادت خلال المرحلة السابقة.

حتى نادر أفندي الذي كان يضيق، ولا يخفي ذلك، من أوامر الصرف التي تصدر عن ديوان الباشا، وعليها الختم والتوقيع، لم يعد يبالي، ظاهرياً، وهو يصرف ما يطلب منه. فقد ظهر عليه تبدل من نوع جديد: أطال لحيته أكثر من السابق، وتركها دون تهذيب؛ لجأ إلى ارتداء ملابس قديمة أقرب إلى الرثاثة؛ وأصبح يلتذ بالصمت حين يصرف النقود، خلافاً لفترات سابقة، إذ كان، وهو يوافق على الدفع، يعد النقود بصوت عالٍ وكأنه بهذه الطريقة يشتم، يثير حسد الآخرين، ويقول، دون كلمات، عسى أن الله ما يحطّ فيها البركة!

الآن، وبعد هذه التغيرات التي طرأت على الهيئة والتصرفات، ولأنه أخذ يصرف باستهتار أقرب إلى التحدي، فقد قال له خلف ذات مرة، وهو يعيد له مبلغاً صرف إلى فيروز، وقد كتب في أمر الصرف: «يمنح المبلغ التالي لفيروز سيد قادر بمناسبة طهور ابنه. ويجدّد منحه، كل سنة، بذات التاريخ ولنفس السبب»، وقد خلا الأمر من التوقيع والختم. أعاد خلف المبلغ، وهو يطلب استرداد أمر الصرف، ليقول لنادر أنه أصبح أعمى العين والقلب. ونادر الذي استغرب أن يُردّ له مال، وحين سحب أمر الصرف ليعيده إلى خلف، اكتشف فجأة أن الأمر لا يحمل لا التوقيع ولا الختم، وتذكر أيضاً أن ليس لفيروز أولاد، فقال والعبرة تكاد تخنقه:

ـ الله، بسماه العالية، حرّم ضرب الميت، وآني هسه، يا خلف، ميت، فحرام تجربون سكاكينكم برقبتي!

أما حين انحدرت دموعه، دون أن يستطيع مقاومتها، فقد أضاف:

ـ حرام عليكم، همّ أنا بشر مثلكم، عندي قلب، وبيّ دم، وأعبد

الله . . .

وأخذ ينتف، وبقوة، شعرات من لحيته، وهو يردد:

ـ ماكو أكثر من المگادي ببغداد، وماكو أكثر من اللي ينامون بليا عشا، وانتم طايحين بهذه النعمة، تمردونها، تحرقونها، ولا ببالكم أن أكو أحد بعازتها، فحرام. . والله حرام!

وتغيرت النبرة، ظلت حزينة، لكن بحزم:

ـ وآني من ذاك اليوم ما عليّ، احترق كل شي، بقي فد شي، آني مالي لازم، وأتمنى أموت اليوم قبل باچر.

قال خلف، وهو يحتضنه ويواسيه:

ـ على كيفك أبو يقظان، وكلها، من أولها لتاليها، ما تسوى، فلا تسويها مناحة، ولا تدير بال. . .

ولما ظل نادر أفندي صامتاً، تابع خلف:

ـ احترقت قلوبنا من العطايا للشعراء وأصحاب العُقل، فقلنا لروحنا خلّنا نتشاقى ويّا نادر أفندي: فما لقينا إلا نطهِّر ابن فيروز، وإنت، الله يسامحك، أخذتها جد، ففتحت القاصة وقلت: تعالوا، خذوا الأول والتالي، آني ما عليّ، وعساها تروح حريق أو غريق، يطبّها مرض!

وامتد الصمت، إيذاناً أن حديثاً انتهى، ويمكن أن يبدأ آخر. حين وجد نادر أفندي أن بإمكانه أن يتكلم اندفع بتوسل يخاطب خلف، وهو يقترب منه، ويقبض على ساعده، عند الكتف:

ـ خلف، وأتمنى لو تنقَّط بحلقي آخر نقطة قبل ما أموت، أتوسل لله ولأنبيائه، وأتوسل للباشا، وقول على لساني آني مستعد أدفع لكل ابن أنثى، للّي يسوى واللي ما يسوى، وحتى للقحاب مستعد أدفع، بس يخلصني من هذول الشيوخ!

ولما رأى ابتسامة حزينة على شفتي خلف، تابع بغضب:

ـ الله أعلم أن هذول الشيوخ، مو بس ما يعرفون قيمة الفلوس، ما يعرفون يعدونها، وما يعرفون شقد التعب لتحصيلها؛ وبالنسبة لهم ليرة

الذهب والبارة نفس الشيء، وهذا اللي يقتلني . . .

وارتسمت على وجهه ابتسامة حزينة:

ـ اليهودي، الفلوس وهي جوا الكيس، بالظلمة، ما يمد الإبهام والسبابة ويلمسها، يطخ بها، إلا ويعرفها، ويعرف شنو يطلّع وشوكت؛ أما هذول البدو، وإذا الواحد منهم مدّ إيده لجيبه، يجر الفلوس كلها، ويقول: خذوا. وثمن الرغيف والعباية الإبريسم فد شي، فهاي وين تصير، شلون ربنا يقبلها؟

قال خلف ليطيّب خاطره، وينهي هذا الموال الحزين:

ـ خلص، أبو يقظان، وخذها من هذا الشارب: راح أقول للباشا عن السالفة من الأول للتالي، وإنشاء الله ما يصير إلا الخير!

ـ وأبو البستوقة، يحيى بك؟

ـ شبيه؟

ـ كل يوم والثاني وجمولي بخلقتي: «نريد نشتري دوا للبك». وأسأله: خير؟ شبيه؟ يقول: «وجعان، والدوا عند الأرمن». وآني، يا غافل لك الله، ادفع، وأدفع، وبعدين زهقت روحي، قلت: شنو. . البك، بعد كل هذا الدوا ما طاب؟ ما يريد يطيب؟ رد جمولي وقال: «ما أدري». وبليا ما يدري جمولي دزيت على الأرمن وسألت عن الدوا. ضحكوا وقالوا: «من الدوا اللي ينذز للبك ما ينشبع». وعرفت السالفة من أولها لتاليها، ويجوز مثل ما تعلّم هو، علّم البدو، وقاعدين الليل كله يكروعون!

رد خلف باستغراب:

ـ قول غير شي يا معود!

ـ شاقول، عيني خلف، قلبي حبل من هذي السوالف. . .

وتغيرت اللهجة تماماً، أصبحت غاضبة:

ـ مية نوبة قلت لعزرا أفندي: أريد استعفي، أريد أترك الأول والتالي، يضحك، يطلع سنه الذهب، ويرد: طوّل بالك، أبو يقظان، باچر كل الأمور تنصلح، تصير زينة، وهذا الحچي مو البارحة أو اليوم، صار له

سنين، وقبض ماكو، وآني حاير ما أعرف شنو اللازم أسويه!

أما حين تدفقت الغنائم على بغداد، فنسي نادر أفندي همومه وأوجاعه، واندفع، كما فعل أثناء استلام غنائم حملة الفرات الأعلى، لحصر هذه الغنائم، لتصنيفها، قبل أن يتم التصرف بأي شيء. حتى الخيول التي أمر الكيخيا صرفها إلى بعض رجاله، رفض نادر أن يفعل قبل أن تدخل السجلات!

قال فيروز يرد على سؤال للباشا، حين استفسر منه على أحوال الربع:

ـ ما دامت سن الذهب لعزرا تبرق، وما دامت ضحكة نادر أفندي شبر، فالربع بألف خير!

ـ ضحكتهم مثل غيوم الصيف، يا فيروز، كذابة ما تمطر، وبالعجل تروح وكأنها ما كانت!

ولئلا تذهب زهوة النصر بسرعة، ويعود الكيخيا إلى الجناح الغربي في السراي، ليغرق في الصمت من جديد، ومن أجل أن يتفرغ لمعالجة آثار الحملة، فقد اقترح على الباشا أن تُجرى مناقلة بين جناحه والجناح الذي يشغله عزرا في القسم الشرقي من السراي، أو أن يختص بقلعة الفرسان، نظراً لتزايد عدد الموظفين التابعين له، ولتزايد عدد المراجعين.

والباشا الذي لم يخف عليه ما وراء ذلك، ولكي يبقي على تألق كيخياه، رد بمرح:

ـ هذي بينك وبين عزرا أفندي، وما أظنكم تختلفون؛ ورغبتي أن تكون إلى جانبنا، قريباً منا، لأنّا نحتاجك في الصغيرة والكبيرة!

وتسبب هذا الانتقال بنكسة جديدة لنادر أفندي، أطارت النشوة التي عاش فيها خلال الأسابيع التي أعقبت استلام الغنائم. قال لعزرا محتجاً على عملية الانتقال:

ـ وشلون نراقب الاسطبل وقسم التموين؟ ومنو ما يقول إن الأبواب تنفتح توالي الليل ويطلع منها كل شيء؟ وشلون نردّ الشيوخ وهم بطريقهم إلى الديوان؟

وحين أكد له عزرا أفندي أن شيئاً من هذا لن يحصل، لوجود الحراسات المشدّدة والمراقبة الدائمة، إذا لم يكن من أجل الأموال، فمن أجل حماية الباشا، لذلك فان جميع هذه المخاوف لا مبرر لها، فرد عليها نادر أفندي بحرقة:

ـ وبعدين تعوّدنا على هذه الصفحة، يا أفندينا، نعرف منين تطلع الشمس ومنين تغيب. وشلون نتوقى الشرقي بليا ما نشعل حطب زايد، وشوكت نشعل الضو بليا ما نباوع الساعة، فإذا جا هنا أبو دوا الأرمن، وصرنا نحن بمكانه، راح تنلاص علينا!

ـ لا تخاف يا معوّد، والمسألة، أولها وتاليها، من هذا الجيب لهذا الجيب، فلا تدير بال!

كان الكيخيا، باختياره هذا الجناح، يريد أن يختص بالبوابة الشرقية للسراي، إذا لم يستطع أن يستقل، وهذا ما جعل الباشا يوعز إلى عزرا أفندي أن تجري عملية الانتقال دون ممانعة أو تأخير، لأنه يريد أن يبقي الكيخيا قريباً منه.

وإذا كانت بضع هوايات قد سيطرت على الكيخيا في أوقات سابقة: أن يبدل لحم المائدة ولحم الفراش بين فترة وأخرى؛ وأن لا ينقطع عن ذاك الحساء المغشوش، أو دوا الأرمن، كما يسميه جمولي؛ ثم السهرات الممتعة التي يقضيها بصحبة محب الدين وشمسي أميني؛ فقد أضاف إليها هوايات جديدة: أن يولم لكثيرين من الوجهاء ورجال الدين، وأن يوثّق علاقاته بالشعراء؛ كما كانت لديه الرغبة أن تكون له بوابة خاصة في الدخول والخروج، ولا بد أن يفرض، ذات يوم، وجود فرقة موسيقية تدق له الطبل والبوق أثناء وصوله أو مغادرته!

قال محب الدين المرادي للكيخيا، وهو يقرأ له طالعه:

ـ ويروح يوم ويجي الثاني، وتصير لك ذرّية تحسدك الناس على عددها، لكن بمشيئة الله ترتد عين الحسود، شرط الإيمان والتقوى. أما النصر فراح يصير لك عنوان، وكذلك المجد ورفعة الشان، وهذا مو ليوم

وإنما لآخر الزمان!

ومع كل سهرة جديدة تضاف إلى قائمة جمولي وصفة جديدة تلائم الكيخيا. ولا تمر بضعة شهور إلا ويأتي شمسي أميني إلى الجناح الشرقي في السراي، وفي غير مواعيد العمل أو السهر، لكي يعقد للكيخيا على امرأة. وإذا اكتشف بعد أيام أنها تجاوزتْ العدد الذي يجيزه الشرع، يبحث له شمسي في كتبه العتيقة عن فتوى ملائمة، ولا يتأخر في اكتشافها: إطعام المزيد من المساكين!

أما رستم قاورد فانه لا يتأخر في إبلاغ خلف بكل أمر يحصل في الجناح الشرقي من السراي. يقول الباشا حين تصله هذه الأخبار، يقول ذلك لخلف رداً على ما ينقل من أخبار، أو يقوله لفيروز، وهما يتمشيان في الحديقة المطلة على النهر:

ـ بغداد داها منها وبيها، ودواها الترياق، وهذا دربه طويل!

ولم يفهم أي من الاثنين ماذا يقصد لكي يجيب أي منهما على السؤال!

ودخل الشتاء، تلك السنة مبكراً، وامتد أكثر من المعتاد. أما حين بدأ الربيع فقد استبشر الناس. ومثلما خرجت النباتات من الأرض، خجولة أول الأيام ثم صريحة بعد ذلك، وقوية، فقد أخرجت النسوة إلى الشمس الألحفة الثقيلة، وأغطية الصوف، ثم الفراش، وكانت كل امرأة تقول لبناتها، للجارات: مثل هذا الشتا ما شفنا من قبل. والرجال المسنون قالوا في القهاوي: جاءت الطيور هذه السنة قبل أوانها، وقلنا: راح يكون مطر هذه السنة أزيد من غير سنين، ومثل ما شافت عيونكم، الأمطار، تبارك وتعالى، وصلت لكل مكان ورب العالمين قال لكل عاقل: شوف بعينك كرمي، وتوقّى من عذابي، ومثل ما سويّت ذاك الطوفان، أقدر أسوي مثله وأزيد!

وإذا كان العقلاء قد هزوا رؤوسهم بالموافقة، فان الشباب سمعوا، لكن لم يقيموا وزناً لهذا الكلام، ضحكوا في سرهم، ثم ضحكوا بقهقهات مجنونة حين كانوا وحدهم وكانوا يتذكرون كلام المسنين! لكن بعد النصف

الثاني من آذار، ورغم الشمس الدافئة خلال النهار، ولسعات البرد في المساء المتقدم، ثم آخر الليل، فقد بدأ الخوف يدخل إلى القلوب، لأن مياه النهر زادت، وأخذت تستمر في الزيادة يوماً بعد آخر، وتوقع الكثيرون أموراً أقرب إلى الشر!

121

بعد ذاك الشتاء الطويل المضني، جاء آذار، ومعه أول نسائم الربيع.

المسنون الذين حشدوا كل قواهم من أجل مقاومة البرد، واستطاعوا، على تفاوت فيما بينهم، أن يجتازوا ذلك الامتحان القاسي، ما إن بدأت بوادر الدفء، ودبّت الحياة في جسد الأرض، حتى اضطربت أحوالهم، وأخذوا يترنحون. استطاع بعضهم المقاومة وواصل الحياة، وكثيرون غيرهم حاولوا، لكن لم تسعفهم قواهم فماتوا بهدوء. لم تطل أمراضهم، ولم يوّلدوا الصخب وهم يغادرون. ماتوا في بداية الربيع، وكأن الحياة في دورتها الأزلية بمقدار ما تعطي تأخذ، وبمقدار ما تفسح مجالاً للقادمين، لا بد أن تستعيد إلى باطن الأرض من لم يعد لهم مكان فوقها.

كان يمكن لحوادث الموت التي وقعت في الكثير من محلات بغداد، والتي تزايدت مع مطلع الربيع، أن تطحن بحزنها الكثيرين، وأن تدخلهم في دوامة الأسئلة التي شغلت الإنسان مذ أن وجد على هذه الأرض، لكن تدفق الحياة المتواصل، إذا سمح بطرح الأسئلة، فإنه لا ينتظر لتلقي الإجابات. ثم إن ما حدث بعد ذلك غيّر الهموم ثم غيّر الإهتمامات.

فالدفء الذي حرّك الأرض، وجعل الهواء رضيّاً رخياً، ثم مدّ النهارات ووسّعها، دفع الكثيرين إلى الحركة، وإلى الانتقال من مكان إلى آخر، تماماً كما تنتقل الطيور. بدت الأسواق تضيق بالمترددين عليها، وأخذت الأزقة تمتلىء بالصغار والكبار، حتى النسوة اللواتي غبن طوال أيام الشتاء بدأن بالظهور.

ومع البشر، وقبلهم، أخذت الطبيعة تتفجر، وتعلن عن كنوزها. الخضرة البرّاقة تملأ جنبات الكون. الألوان تتزايد وتتغير كل يوم. الطيور التي صمتت طويلاً، فجأة اكتشفت انها تمتلك أصواتاً عذبة فلم تعد تتوقف عن الغناء. أما قطعان الغنم التي غابت في الأرياف القريبة طوال فصل الشتاء، فقد وصلت أعداد كبيرة منها مع الحملان التي لا تعرف كيف تستقر على الأرض، ولا يُعرف إن كانت فزعة أم فرحة وهي تتقافز، نافرة من الأيدي، ورافضة حتى نظرات العيون.

قال بعض المسنين، مذكّرين بكلام قالوه من قبل، إن الشتاء إذا جاء مبكراً وبارداً، فلا بد أن يكون صيف تلك السنة حاراً طويلاً. وقالوا أيضاً: المهم أن يمر الفيضان!

وفجأة اكتشف الناس أن الإمتحان الأكبر الذي يواجهونه كل سنة لم يأت بعد.

ومع أن الفيضان يأتي كل سنة، وتكون أيامه أصعب الأيام وأقساها، إلا أن الكثيرين يحاولون نسيانه، وكأنهم بهذه الطريقة يبعدونه أو لا يريدون قدومه، لكنه كالموت، مهما ابتعد فانه بالغ القرب، شديد الحضور، وقد يأتي أبكر مما يقدر الكثيرون.

هذه السنة لم يتأخر الفيضان إلا قليلاً، أتى في القسم الثاني من آذار. وإذا كانت عادته، في سنين كثيرة، أن لا يعلن عن قدومه سلفاً، مثل عودة المسافرين الذين طال غيابهم، أو مثل مجيء ضيوف غير منتظرين، قد يأتي عاصفاً، خاصة إذا رافقته أمطار وقعت في أمكنة قريبة. هذه السنة جاء بشكل غير متوقع، جاء على شكل هجمات متتالية. إذ ما تكاد المياه تصل إلى حد معين، إنذاراً بأن ما سيأتي سيكون أكبر، حتى تتراجع، ويظن الكثيرون أن ذلك آخر الفيضان، فيندفعون إلى لملمة ما خلفته المياه، وإلى إحصاء الخسائر، والتأكد من النتائج، لكن قبل أن ينتهوا من ذلك تندفع المياه مهاجمة، وتأخذ في طريقها ما تجده أمامها. ومع الهجمة الجديدة يزداد الخوف، ويتزايد معها الركض من مكان إلى آخر، لاتقاء المياه،

لوضع الحواجز في وجهها، لمنع وصولها إلى البيوت. والمياه مجنونة دائماً، إذ لا يُعرف من أين ستأتي، أو متى، لكنها دائماً تأتي، تكتشف طريقاً جديداً أو تصنع لنفسها هذا الطريق. تفعل ذلك بمكر ملعون، وكأنها تملك غريزة تتكون لها وتتجدد في كل لحظة. إنها تتفوق على عقل البشر وقوة الحيوانات، وهذا ما يجعل التعامل معها بالغ الصعوبة، شديد العسر، وغير مضمون النتائج أغلب الأحيان.

الكثيرون من الذين يسكنون بمحاذاة النهر، غادروا مساكنهم بعد أن هجمت المياه، خاصة حين بلغ ارتفاعها أقصاه خلال الليل، ولا يعرفون كيف قُدّرت لهم النجاة، تاركين في البيوت معظم الأشياء. ثم رأوا أن عودتهم ضرورية بعد أن تطامنت المياه. وحين اكتشفوا الأضرار التي لحقت بكل ما تركوه من فرش وأثاث ومؤونة، شعروا بالحزن وهم يخوضون في المياه والوحول، لمعرفة إلى أين وصلت، وما خلفته من آثار. كما انشغلت أفكارهم كيف يمكن أن يعالجوا أو يتغلبوا على تلك الآثار، وكم يحتاجون من الوقت والمال. ما كاد ينشغل هؤلاء بهذه الأمور، وقبل أن ينقضي اليوم الثالث على هجمة المياه الأولى، حتى جاءت الهجمة الجديدة، فتركوا كل شيء وراءهم وهربوا مسرعين مذعورين، وقد شعروا أن حياة جديدة تُكتب لهم.

ومثلما هرب الذين يسكنون بمحاذاة النهر، هرب الذين يبعدون قليلاً في المرة الثانية، لأن هذه الهجمة، بالإضافة إلى ارتفاعها وقوتها، وجدت سهولة في اختراق الأماكن الضعيفة، لتتسرب منها إلى أماكن جديدة. فعلت ذلك بمكر ألعن من المرة السابقة. وما افترضه الذين سكنوا على مسافة من النهر في أنفسهم من ذكاء أو حُسن حظ، اكتشفوا انهم واهمون، لأن المياه يمكن أن تلاحقهم، وقد تصلهم، تماماً كما يفعل الموت، إذ لا يفرّق بين غني وفقير، ولا بين قريب وبعيد.

حتى سكان صوب الكرخ الذين طالما حُسدوا لموقعهم المرتفع، قياساً للصوب الآخر، ولما يحيط بهم من أماكن، شعروا بالحزن، ان لم يكن

بالخوف، لما يعانيه الكثيرون في صوب الرصافة، وهبوا لتقديم العون.

كان كل فرد ينظر إلى الفيضان، أول الأمر، من زاويته الشخصية، إذ احتاط لعتبة بيته، ثم للمؤونة، كما وضعت الأشياء الضرورية أو الثمينة تحت العين واليد معاً، ثم التفت الكثيرون، بعد ذلك، إلى تحصين مداخل المحلات بالأتربة يجمعونها ويعلونها، ثم بالأكياس التي هيئت لتستعمل عند الضرورة، وحيث تكون الحاجة إليها. وتبرع عدد غير قليل من الشباب لمراقبة النهر، خاصة خلال الليل، لئَلا تأتيهم المياه فجأة وعلى حين غرة. إلا أن العقلاء، والأكثر تجربة، قالوا إن المياه لا تُواجَه إلا بعمل يشترك فيه الجميع، والفرد مهما كانت قوته، وحتى لو بلغ أعلى درجات الذكاء، لا يستطيع شيئاً لوحده في مواجهة الفيضان. وهكذا اندفع الكثيرون إلى أطراف النهر، لا ليرقبوا المياه، وإنما لرفع السداد وتقويتها.

ولم تتأخر الحكومة في أن توجه عن طريق المخاتير ووجهاء الأحياء الطلب إلى القادرين من الرجال والصبية إلى مساعدة الجنود من أجل رفع السداد في أماكن حددتها، كما أمر الباشا كيخياه أن يكون على رأس الحملة.

كانت هجمة المياه الثانية عمياء جامحة، لكنها كانت سريعة أيضاً، وقد تسببت بأضرار كبيرة، خاصة بالمزارع المحيطة بالمدينة. أما في بغداد نفسها فكانت أضرارها أقل من الهجمة الأولى، إذ كانت للتحصينات التي أقامها الناس أهمية كبيرة، فما عدا القسم الشرقي القريب من بغداد، وقد غمرته المياه التي فاضت من ديالى، فان باقي أجزاء المدينة لم تتعرض إلا إلى أضرار قليلة نسبياً، لكنها تعرضت إلى خوف أكبر!

تراجعت المياه قليلاً لكن لم تنته. وخلال تراجعها، ولئلا يظن الناس انها انتهت، نبه المسنون، بأسلوب لا يخلو من الحزم والغضب، إلى أن المياه غدّارة، ويجب الانتباه أكثر من السابق، لأن الحواجز أصبحت هشة، ويمكن للمياه أن تجتاحها بسهولة، بعد أن أضعفت الهجمات السابقة كل شيء، الأمر الذي يستدعي أن يندفع الجميع لتقوية السداد من

جديد، وأن يضاعفوا انتباههم. وجاء من قال أيضاً: الثالثة ثابتة، فإما أن يتمكن الناس من مقاومة المياه وصدها، أو أن المياه ستكون أقوى من البشر، وقد تقضي على كل شيء.

لم ينتظر الناس لكي يسمعوا كل هذا الكلام، إذ اندفعوا بحمية لا تعرف التردد أو الخوف، وكان الشباب في المقدمة. كانوا يتقدون حماسة، وكأنهم يخوضون حرباً. كانوا يعملون ليل نهار، في رفع السداد، في تقويتها، في ملء الأكياس وتوزيعها في أماكن عديدة، ليصار إلى استعمالها عند الحاجة وفي المكان المناسب. كانوا يعملون بهمة لا تعرف التعب، ولا تتطلب أي حث أو مراقبة. ورغم صرامة الجو، وجهامة الوجوه، فان الأغاني الحماسية التي انطلقت بخجل أول الأمر، لاقت تجاوباً سريعاً، وولدت قوة إضافية، بحيث أخذت تتردد أصداؤها من مكان إلى آخر، وأخذت عدواها تمتد حتى للأكبر سناً. أما حين ترافق مع الأغاني بعض التعليقات وغير قليلٍ من النكات، فقد سُمعت، هنا وهناك، تحفظات أو ما يشبه اللوم، لكن ذلك لم يؤخر العمل، ولم يضعف الحماس.

كان الناس، حتى الذين لا يعرفون بعضهم، ولم يلتقوا من قبل، يتعاونون ويساعد بعضهم بعضاً بهمة ومودة، وينوب الواحد عن الآخر بأقل الكلمات، ودون كلمات في بعض الأحيان.

وإذا كان الكثيرون قد اندفعوا لمواجهة المياه، وإلى تحديها، وهم ينظرون إليها، فان آخرين اعتبروا تأمين الطعام لهؤلاء الذين يعملون لا يقل أهمية عن مواجهة المياه، وهكذا جرى تقسيم العمل دون أوامر أو بأقل الأوامر، فقد طُلب من الصبية الصغار تعبئة التراب في الأكياس، ثم طلب من عدد منهم أن يؤمنوا ماء الشرب، وطلب من آخرين أن يأتوا بالمزيد من الفؤوس والمساحي، بحيث انتظم العمل بسرعة وبنشاط.

حتى الجنود الذين كانوا يعملون، اعتبر الكثيرون منهم هذا العمل سخرة، ولا يختلف عن الأعمال التي تعودوا القيام بها أثناء خدمتهم، وإذا اتصفت حركاتهم، في البداية، بالرخاوة، بالبطء وغير قليل من الملل،

كما يفعل الإنسان في مواجهة عمل رتيب أو واجب ثقيل، إلا أن الحماسة التي اكتشفوها في الذين حولهم، وذلك الاندفاع الجامح الذي ميز الحركات والتصرفات، ثم وجبات الطعام الكثيرة التي أخذت تتوالى، وكانت تتوزع على الجميع بالتساوي، وما أعقبها من المرح والتعليقات. . . ما ان جرى كل هذا ورأوه، حتى أصبحوا جزءاً من المجموع. واستغرب الطرفان أن ما يجمع بينهم الكثير، وأن الواحد منهم لا يختلف عن الذين حوله.

أكثر من ذلك، اختلط الليل بالنهار. ومع ان ذوي التجربة، وهم ينبهون ويحذرون، طلبوا أن يُبذل أقصى الجهد، إلا أنهم أضافوا ضرورة أن يجري ذلك بعقل، مما يقتضي أن يتناوب الناس العمل، وأن يعطوا أجسادهم مقداراً معقولاً من الراحة كي يستطيعوا أن يواصلوا، لكن أمراً مثل هذا، مهما بلغ الحرص في التنبيه إليه، فانه لا ينتظم إلا بمقدار، ولا يأخذ شكلاً واحداً أو محدداً على الدوام.

كان الكثيرون إذا تعبوا، إذا شعروا بالنعاس، انتحوا جانباً ليستريحوا أو ليأخذوا غفوة صغيرة، ليعودوا إلى العمل من جديد. فإذا بلغ الإرهاق حداً معيناً، وشعروا انهم بحاجة إلى العودة للبيوت، فقد اكتشف الكثيرون أن البيوت فرغت من ساكنيها أو تكاد، إذ كان لدى كل واحد ما يفعله، ما يساهم فيه. الصبية لا يتوقفون عن المشاركة، وإن كانت مراقبة المياه أكثر ما يشغلهم. النسوة تجمعن في أماكن محددة لتهيئة الوجبات السريعة. الكبار تولوا تأمين المواد الأولية للطعام، والإشراف على إرسال الأكياس والماء الذي يمكن أن يُشرب، ولا ينسون إرسال التمر، «لأنه يقوي» كما يقولون، مع كميات قليلة نسبياً من فواكه الموسم.

الذين يعودون إلى البيوت للنوم، لأخذ قسط من الراحة، يجدون أنفسهم وقد اشتبكوا مع الكثيرين في أحاديث حول ما كان وما يجب أن يكون. وكان هؤلاء لا يترددون في طمأنة النسوة، يفعلون ذلك بصوت عالٍ، وبكلمات كبيرة، وكأنهم بذلك يطمئنون أنفسهم أيضاً.

الكيخيا الذي شوهد مرة على السداد، بان على وجهه الهمّ، كما أعطى توجيهات، حاول أن تكون قصيرة، محددة، ثم مضى.

وحين تعالت همسات بأن مياه النهر ارتفعت بهذا المقدار تعبيراً عن غضب الرب على عباده، لان الناس أوغلوا في الفساد! لم تلبث أن تحولت هذه الهمسات إلى دويّ في أذني الكيخيا، ولما استفسر من الذين يعرفون بأمور الدنيا والآخرة، وقد سأل أول الأمر شمسي أميني، نائب المفتي، أكد هذا الأخير صحة ما نقل إلى الكيخيا، وأن الله عندما يغضب يبعث محذراً ومنذراً، ولان زمن الأنبياء قد انتهى، فان تحذير الله وإنذاره يكون من خلال ظواهر الطبيعة: أن يحبس الأمطار؛ أن يبعث الصواعق؛ أن يرسل الجراد. أما إذا بلغ غضب الله حده الأقصى، فانه يُحدث الطوفان!

الكيخيا الذي كان يسمع بانتباه، وكان وجهه يتقلص ويتغير، تبعاً لحجم الانتقام الذي يمكن أن يلجأ إليه الله، وحين ذكر شمسي أميني، الطوفان، سأل الكيخيا بذعر:

ـ وتعتقد أن الأمور وصلت إلى هذا الحد، يا مولانا؟

ـ كانت الأيام الماضية إنذاراً، وكل مبتغانا من الله أن يكتفي بهذا الحد ولا يزيد!

ـ وماذا نفعل لكي يرضى عنا ولا يعرضنا لامتحان أكبر؟

ـ أن نوصل الليل بالنهار، عبادة وتهجداً ودعاء، عسى أن يستجيب!

وقيل إن الكيخيا قضى الأيام اللاحقة في مسجدي عبد القادر الكيلاني وأبي حنيفة، كما زار مقام الكاظم، وقيل إنه اجتاز الطريق إلى الكاظم ببعض الصعوبة وبغير قليل من المخاطرة، فعل ذلك ليلتمس من هؤلاء الأئمة الشفاعة للناس.

الباشا بعد أن سمع بما يفعله كيخياه، إذ بدل أن يحشد كل رجاله من أجل مواجهة الفيضان، وأن يشرف على ذلك بنفسه، أخذ يستدعي رجال الدين، أو يذهب إليهم، لكي يستعين بهم لوقف تقدم المياه.

استدعى الباشا طلعت باقة على عجل، كما استدعى عدداً من الرجال الذين يعتمد عليهم، وطلب إليهم أن يتوزعوا، مع الناس الذين يستطيعون جمعهم، على المناطق التي يحتمل أن يدهم منها الفيضان مدينة بغداد، وأن يبذلوا أقصى الجهود لعمل أي شيء لمنع ذلك.

قال لطلعت الذي استقبله قبل الآخرين:

ـ ابن القرملي ابد ما يجوز من مكسراته؛ ردناه بهذي المصيبة عون طلع لنا كاهن فرعون. . .

هز الباشا رأسه آسفاً، وأضاف بحنق:

ـ بدل ما يقضي ليله ونهاره على السداد، وينخي الناس ليقفوا بوجه الفيضان، يقضي وقته يفتر من جامع لثاني، وتعالوا يا أولياء خلصونا. . .

وتغيرت النبرة:

ـ حتى رب العالمين يقول ويعيد: عِن نفسك يا عبدي حتى أعينك، وهذا الفيضان ينراد له زنود قوية حتى توقف بوجهه، ما يريد دعاء هذول اللي ما ينعرف يستجاب دعاهم أم لا!

وتوالت هزات رأسه بأسف وضيق. تطلع طويلاً إلى طلعت، خرجت الكلمات آمرة:

ـ مثل ما اعتمدت عليك في الحملة، اعتمد عليك اليوم، وما ينراد أوصيك أكثر.

أما في ذلك المساء، وكان يطل من نافذة الغرفة الجنوبية على حديقة السراي المليئة بالأوحال، وكان القمر المتأخر ينير جوانب واسعة من الحديقة، وليس معه سوى فيروز، فقال كأنه يخاطب نفسه:

ـ يريد البك يصير ديّن براسنا؟ يريد يعلمنا الدين؟ هذي العايزة!

وبعد أن صمت طويلاً، بانتظار آخر الأخبار التي يفترض أن تصله من طلعت ومن الرجال الذين أوفدهم، قال لفيروز بسخرية:

ـ تقصّ أخبار ابن القرملي يجوز تلقاه باچر أو عقبه شادّ لفّة مثل لفّة شيخ الإسلام أو أكبر، وقاعد يفتي!

وحين لاحظ ابتسامة واسعة على شفتي فيروز، ولديه ما يقوله، سأله:

ـ ها.. قول!

ـ جا ببالي ذاك المثل، يا أفندينا!

ـ قول!

ـ بعد الكبرة جبة حمرا!

وظلت المياه مداً وجزراً. ترتفع وتتراجع. تزمجر أو تتراخى. ظلت هكذا بضعة أيام، ثم جاءت الهجمة الثالثة.

قال الكثيرون، وقد تجمعوا في الأماكن المرتفعة، على سطوح المنازل، على أكوام الأتربة العالية التي تسد مداخل المحلات، على أطراف قباب المساجد، قالوا إن الأمواج كانت كالجبال، كانت ترى من بعيد، وكان يُسمع لقدومها دوي هائل، وكانت تبدو مترابطة متعانقة مثل سلسلة لا نهاية لها، وما أن تصطدم بحواف المجرى حتى تصطفق بأكوام التراب والحصر والأخشاب التي وضعها الناس، ويكون لاصطفاقها زمجرة تهز الأرض وتخلع القلوب، ومع هذه الحركة الجبارة كانت أكوام التراب المرتفعة تذوب كما يذوب الملح في الماء، إذ تكون في لحظة ثم تتلاشى في اللحظة التالية، وتنخلع معها الأخشاب القوية، وتتطاير الحصر كما لو أنها أوراق في ريح!

من أين أتت هذه المياه، وماذا ستفعل؟ لا أحد، في تلك اللحظات، يجرؤ على السؤال، ولا أحد يريد أن يجيب، فقد تجمعت كل الحواس في العيون، تراقب، تتابع، وبمقدار ما كانت تتركز حول أقرب الأشياء كانت تذهب إلى البعيد.

ظلت المياه هكذا لساعات وساعات، وكل لحظة من هذه الساعات دهر بأكمله، امتداد لا نهاية له، وخوف ينغرز في العظام. وكل لحظة من هذه الساعات عجز وعيّ، وكأن الإنسان لم يعرف من قبل الحركة أو الكلام، وليس هناك أية رغبة سوى النجاة، فإذا لم يُستطع فأن يأتي الموت سريعاً وينهي دهر العذاب الطويل.

ولما كان عدد غير قليل من الذين لاذوا بحواف القباب، واعتلى بعضهم درجات المآذن، قد التمسوا النجاة بأدعية يتوجّهون بها للسماء، وكانت في البداية استجابة لما يقوله الشيوخ وأئمة المساجد، وبدت تلك الأدعية واضحة كاملة وتُردد بصوت متضرع وبخشوع، فما لبثت أن أصبحت مجرد أصوات، بعد أن رأى هؤلاء، قبل غيرهم، جبال المياه وهي تتقدم. كانت الأصوات تتردد برتابة، تتداخل، تتصادم لتصبح في النهاية نشيداً حزيناً له بداية لكنه لا ينتهي، وكله رجاء وتوسل، وكله عهد أن يصبح الإنسان شفافاً مثل أجنحة الفراش، صافياً كعيون الديوك، نقياً كمطر السماء، محباً ودوداً مثل يمام المساجد، فقط أن يفك الله الكرب، وأن ينقذ هؤلاء المحصورين بين المياه والسماء.

ومثلما يحصل في كل مرة، تعرف المياه كيف تجد طريقها، كيف تصنع هذا الطريق إذا لم يبادر الإنسان إلى صناعته. وداود باشا الذي طلب من طلعت باقة أن يكون آخر الدواء الكي، وأن تكسر السدود في مكانين، الأول بالقرب من الطارمية، قبل أن يدخل النهر إلى بغداد، والثانية في تل محمد وما جاورها، بعد أن يخرج النهر من المدينة، وقد انتظر طلعت الوقت المناسب، وعض على جرحه إلى اللحظة الأخيرة، إلى أن أعطى الإشارة بإطلاق أحد مدافع القلعة، وكان قد اتفق على هذه الإشارة، إذ ما كاد يُسمع صوت مدفع القلعة، حتى ترددت أصوات الطلقات من منارة إلى التي تليها إعلاناً بتنفيذ الأوامر، وكسر السدود في هذين الموضعين.

وخلال ساعة، تزيد قليلاً أو تنقص، أخذت تتكسر جبال المياه، أخذت تتراجع. كانت تفعل ذلك بحنق ظاهر، بعربدة يمازجها الغضب، تماماً كحالة الجند حين يطلب منهم قائدهم الإنسحاب وقد أصبحوا على أبواب النصر، إنهم يمتثلون لما يريد، لكن يشعرون بلوعة الخيبة والوجع، ويتمنون لو أن ذلك لم يقع.

كانت الأمواج تتراخى، تضعف، وكانت المياه التي امتدت واتسعت تنحسر ساعة بعد أخرى، وكأنه طلب إليها ذلك، وكانت تتجمع من جديد

في المجرى العريض الذي خلقه الفيضان لنفسه.

مع تراخي الموج كانت تتراخى أجساد البشر. ومع انسحاب المياه كان ينتشر الناس ويعودون من حيث أتوا. أما ذلك العّي الذي شل الألسنة، فقد تحول إلى دوي من الأسئلة والصراخ والكلام المجنون. وما أن اطمئن الناس قليلاً حتى انسحبت العيون عن مجرى النهر لتنظر إلى ما خلّفه الفيضان من آثار وأضرار، لتبدأ رحلة أخرى، أو نمط من الحياة مختلف: كيف يمكن ترميم ما تخرب، وإصلاح الدمار، ومداواة الجروح، والتخلص من الحيوانات النافقة، وردم البرك التي خلفها الفيضان؟

قهوة الشط التي أصبحت كالسلحفاة خلال فترة الفيضان، لانها طوقت نفسها من نواحٍ ثلاث بأكياس التراب والحصير، وقد ساهم في ذلك جميع روادها، علاوةً على الكثيرين من أبناء المحلة والمحلات المجاورة، رغم احتجاج الأسطة عواد، الذي كان يقول وهو يرى الأكياس تتزايد:

- على كيفكم، يا جماعة الخير، لأنكم راح تدفنونا ونحن طيبين...

وحين يجد أن لا أحد يسمع، وتظل الأكياس ترتفع وترصّ، يتابع، كأنه يكلم نفسه:

- شنو فايدة القهوة إذا المحلة غرقت؟ إذا الناس ماتت؟

أما بعد أن انحسر الفيضان، وظلت الأكياس أياماً فقال للذين يتحلقون حوله، ولم تخل لهجته من المداعبة:

- صار بينا مثل ذاك اللي كان يبيع النومي، نشتري بدرهم ونبيع بقران...

ولأن المثل يعرفه الكثيرون، وكل يفسره بالطريقة التي يشاء، فقد انتظر الجميع أن يفصح الأسطة عما يريد. حين وجد العيون منصبّة عليه، أضاف:

- كل واحد من نشامى القهوة والمحلة كان يشيل بدل الكيس ثنين؛ هسه، عونكم يا معودين، لكن كل واحد حاط رِجل على الثانية، وأذن بها طين والثانية عجين، ولا أحد بباله أو يمه، وتعال خلّص هالزمال من

هالوحلة!

الملا حمادي الذي تغير صوته خلال فترة الفيضان، ثم بعد ذلك، ولأيام، قيل إن هذا التغير حصل نتيجة التضرع والبكاء، فقد انصقل صوته لأنه لم يتوقف عن الدعاء. كان يرفع يديه، وهو واقف وسط صحن الجامع يطلب من الله أن يفك الكرب، وان ينجينا من الأعظم. كان يجأر بالدعاء والتوسل. أما في هجمة الفيضان الثالثة، فقد أكد الذين ترددوا على الجامع انه لازم المئذنة لا يغادرها، ومن هناك كان يتوجه بالدعاء والرجاء، وسمعه عدد من رواد القهوة، في لحظة الفيضان القصوى، وربما كان يرى أكثر من الآخرين وأبعد، يقول بصوت عالٍ: «يا رب السماء والأرض، يا شفيق يا رؤوف يا رحيم، الطف بعبادك، ونجّهم من العذاب، ومثلما نجّيت نوح وقومه نجنا، ونذراً عليّ، واسمع يا مالك الملك، إذا كتبت الحياة، أن أهب للفقراء كل ما أملك، وأن أطيعك وأعبدك ما حييت».

وفى الملا حمادي ببعض النذر وأصبح صوته في الآذان والتمجيد حنوناً وفيه ضراعة! كما أولم لثلاثة من فقراء المحلة، وكان يلح عليهم أن يأكلوا قدر ما يستطيعون، وأشار قبل أن ينتهوا من الطعام، أن لديه من التمر البرحي مقداراً يريدهم أن يتذوقوه، وهذا ما جعلهم يتوقفون عن الأكل، خاصة وقد رأوا أولاد ملا حمادي يراقبون وينتظرون!

الأستاذ ناجي الذي وصل إلى القهوة عند الآذان في يومين متتاليين، وما ان سمع الصوت حتى سأل نفسه وسأل الآخرين ما إن كان الملا حمادي هو الذي يرفع الآذان، وحين أكد الذين سألهم أنه هو، قال باستغراب:

ـ ظلمنا الرّجال وقلنا صوته خشن، وما به خشوع وحنية، لكن اللي يسمعه هسه يقول: خوش صوت، وطالع من الصدر!

سيفو الذي لم يره أحد بعد الفيضان، وبعد أن مر يومان دون أن يظهر في قهوة الشط، قلق عليه الكثيرون وتساءلوا، مما دعا الأسطة عواد أن يبعث أحد الصبية للسؤال عنه. ما كاد يدق الصبي الباب حتى فتحت له

فطوم، وهي تشير بيد مزمومة أن يتكلم بهدوء، لأن أبا الوِلد نائم، ولما أبلغها أن الجماعة في القهوة يسألون عن سيفو ردت بسخرية:

ـ بابا روح وقول للّي دزوك: أبو فلاح لازمه كومة نوم، لأن صار له أيامات ما نايم!

أما في اليوم الرابع، وحين جاء إلى قهوة الشط، فقد سأل:

ـ نحن بيا يوم؟

ولما أجابوا أنه الخميس، بدا عليه الاستغراب، فابتسم دون أن يقول شيئاً. أما وهو يسمع الذين حوله يتحدثون عما طرأ على صوت الملا حمادي، وأصبح يشبه صوت ملا مهدي، فلم يصدق، لكن لم يعلق. أما حين سمعه فعلاً فقال باستغراب:

ـ سبحان الله، ما يجود إلا وقت المصايب!

وبعد قليل، كأنه يكلم نفسه:

ـ لو يلاقي له مكان بكربلا وما يقرا إلا مقتل الحسين!

بعد أن مرت أسابيع على الفيضان، بدأت تُسمع قصص من نوع غريب: قيل إن الكيخيا بعد أن قضى أياماً في مراقد الأئمة، واشترك في رفع الصلوات والابتهالات، رأى رؤى عديدة، بعضها صالح والآخر يدعو إلى الخوف والتشاؤم، وقد فُسرت بضرورة أن يلتزم أحد الأمكنة المقدسة لا يغادره، ولا بد من مواصلة الدعاء هناك، لأن «بعد الشدة الفرج»، إذ سوف يستجيب الله ويرفع الكرب عن الناس. وقد احتار الكيخيا في اختيار المكان، حتى فكر بالذهاب إلى سامراء، وقال أحدهم في تبرير هذا الاختيار إن هناك «جب الغيبة» وربما حان وقت ظهور المهدي المنتظر! لكن واحداً لا يكنّ الود للكيخيا قال إن السبب في اختيار سامراء أن فيها الملوية، فإذا صعد الكيخيا إلى أعلاها لا يمكن أن تدركه مياه الفيضان مهما ارتفعت! أما العقلاء الذين كانوا يسمعون فقالوا إن الكيخيا ظل في بغداد ولم يغادرها!

الباليوز الذي لحقته أضرار بسيطة من الفيضان، لم تتجاوز غرق

الحديقة المطلة على النهر، وقد فُسّر الأمر أن الباخرة المرابطة مقابله، وقد سحبت عشرات الأمتار لمواجهة المياه، صدت عنه الأمواج القوية، إذ امتصت، ثم دفعت بعيداً تلك الأمواج؛ وما ساعد على حمايته أكثر ارتفاعه عما حوله، إذ كانت المياه بمقدار ما تصله تندفع خارجة منه إلى الأماكن الأقل ارتفاعاً، وقد أدرك الكثيرون الآن أن زوجة القنصل، حين كانت تشرف على إعادة ترتيب الحديقة، وتجعل لها ميولاً بشكل معين، لم ترق في حينها للبنائين والعمال، ووصفها الأسطة حنون وقتها بالخبل، وسمع حول ذلك أكثر من تعليق في قهوة مراد، حتى قيل إنها تريد إعادة بناء جنائن بابل، أدرك الكثيرون الآن أن تصميم الحديقة بهذا الشكل يساعد على تدفق المياه خارجها بسرعة.

هذه الأضرار القليلة التي أصابت الباليوز، لم تمنع من ظهور مشكلة ثانية، وهي الفزع الذي أصاب الحيوانات، إذ أكد الذين يسكنون في الجوار، أن أصوات الحيوانات لم تنقطع ليل نهار، وكانت تُسمع من مسافات بعيدة. ولقد رويت حول الموضوع قصص كثيرة، بل وأصبحت مجالاً للتندر في مقاهي الرصافة. لكن بعد أن التقطها خبثاء محلات ذاك الصوب من أفواه الخدم والحراس، ومن جمعة، الذي كان سائساً في الباليوز ثم تم الاستغناء عنه، حوروها. روى هؤلاء قصص الفزع والاضطراب، وما أصاب الحيوانات من هياج، بحيث فكر القنصل أن يطلق عليها النار، أو أن يلقي بها في مجرى النهر، نظراً لما تسببت به من إزعاج وصخب. ولقد أدى هذا، أو ربما غيره، إلى أن تستبد بزوجة القنصل حالة من الخوف ترافقت مع البكاء، بحيث رفضت الأكل، ولم تستطع أن تنام، وظل الأمر كذلك إلى أن انتهى الفيضان، وقد قال كل من رآها إنها أصبحت امرأة ثانية بشكلها وتصرفاتها!

القصة الأخيرة، ما كادت تعبر النهر إلى صوب الكرخ، حتى تلخصت بكلمة واحدة: حسون، فلا بد أن يكون وحده المسؤول! إذ بعد أن أشعل في صدرها ذلك الحب الذي لم تستطع أن تنساه، رغم الهجران والسفر

الطويل، ولخشيتها أن تقضي في هذا الفيضان المدمر، لم تعد المرأة قادرة على الصبر أو على الكتمان! ولأن الموت أصبح قريباً هكذا، ولم تعد تخشى شيئاً أو أحداً، فان أمنيتها الوحيدة أن تصل إلى هذا الذي عذّبها، الذي شغل ليلها ونهارها، ولعل ما يؤكد ذلك رفضها القاطع للأكل والنوم.

ونظراً لأحزان الفيضان، وما تركه من آثار، فان الخبثاء الذين أرادوا اشعال هذا الحريق في قهوة الشط، إذ نشروا القصة، وحوروا فيها، لم يجدوا آذانا صاغية، أو اهتماماً يمكّنهم من مواصلة اللعبة.

قال الأسطة إسماعيل لما بلغته الأخبار:

- صدق اكو ناس بالدنيا ما عندهم وجدان؛ حسون وين وزوجة القنصل وين. خلوا الرجّال بهمة، وخلونا من هالسوالف!

أما حين استوقفوا حسون ليسألوه عن الأمر، فقد رد باستعجال:

- هالأيام آني هواية مشغول، ما أقدر أحك راسي، بس هذي يجي وقتها!

ولما استوضحوا عما يشغله، وكيف يطاوعه قلبه أن يترك المرأة تذوب دون أن يحرك ساكناً، رد بمكر:

- إذا خلصنا من بناء الطولة الجديدة، يصفى دماغنا، وبعدها: الله كريم!

ودخل نيسان تلك السنة ثقيلاً، ببخار الماء الذي ملأ المدينة، وبتلك الحرارة الكثيفة التي تسبّب الضيق في الصدور، وبذلك الدوي الذي لا يزال يولّد الأحزان نتيجة الأيام الصعبة التي مرت.

122

استغرب ريتش رد فعل الباشا إزاء العرض الذي قُدِّم لتسليح جيش الولاية، قال لنكلسون في الليلة التي وصل فيها رد السراي بالاعتذار، وتأجيل الأمر إلى وقت لاحق، قال له:

ـ من الصعب فهم ردود فعل هؤلاء الشرقيين، إذ بالاضافة إلى أنهم لا يفصحون عن رأيهم بصراحة، فإن وجوههم كتيمة، وأغلب الأحيان مضللة، وبالتالي لا تعبِّر عن شيء واضح أو محدد، بحيث لا تستطيع أن تقدّر ما إذا كانوا موافقين أم لا، هل هم سعداء أم لا؟

ـ ولكنه كان يبتسم على الدوام!

ـ هذا جزء من المكر الذي يلجؤون إليه، يسمعون ما تقوله لهم، لكن لا تعرف ماذا سيفعلون، بل وفي أحيان كثيرة يفعلون عكس ما تتوقع!

وحين هز نكلسون رأسه باستغراب، أضاف ريتش وقد شاب صوته شيء من الحنق:

ـ إنهم أقرب إلى الحيوانات غير المدربة، ناهيك عن البشر المتحضرين، ودائماً لديهم ما يقولونه لتبرير ذلك!

أما بعد أن خيم الصمت، فقد قال ريتش لنفسه: «داود جرذ مسنّ، لذلك تجنب التقاط الطُعم، عرف أنه لا يواتيه، فابتعد عنه، تركه، وهذا يستدعي استخدام طعم ثانٍ لاصطياده»، وأخذ يستعيد ملامح داود، وردود أفعاله إزاء الأحاديث التي جرت. كان وجهه ينبسط ويتقلص تبعاً للحديث الذي يدور. حين جرى ذكر محمد علي باشا، بان عليه السرور، لكن لم

يدم طويلاً، ربما لإدراكه أن الفرق بينه وبين باشا مصر كبير، ليس فقط من حيث القوة والسبق، بل ومن حيث الموقع الجغرافي. إذ في الوقت الذي تنعم مصر بحماية طبيعية من ناحية الصحراء، التي تشكل حاجزاً يمنع تقدم الأعداء، فإن البحر الذي يقابلها يشكل رئة إضافية لها، إذ تتنفس من خلاله. هذا علاوة على النسيج الموحد للناس الذين يعيشون هناك، في حين أن العراق مطوق بالأعداء، وممر للقوات وميدان للغزاة، إضافة إلى ما يعانيه من مرض البداوة الفتاك، ثم ذلك التنوع لساكنيه، والذي لا يشابهه سوى سكان أميركا!

ربما مرت هذه الفروق في ذهن داود، وهو يقارن بين مصر والعراق، بينه وبين باشا مصر، لذلك لم يستهوه أن يسأل عما قدمته بريطانيا لمصر، أو كيف تم الاتفاق مع محمد علي باشا.

أما الباخرة الحربية التي توقفت لمدة أسبوعين في بغداد، وملأ بحارتها جنبات المدينة ضجيجاً وطرافة، فإن الباشا لم يكلف نفسه زيارتها. صحيح أنه أوفد عدداً من رجاله، خاصة من العسكريين لتفقدها، وقد فعلوا ذلك أكثر من مرة، وسألوا نكلسون عن مزاياها وثمنها، وما إذا تستطيع الولاية شراء سفن تماثلها؛ ولا بد أن يكون رجاله قد حدثوه عن كل شيء، حتى أدق التفاصيل! لأن نكلسون كان بارعاً ليس فقط حين عرض مزايا الباخرة، بل وهو يتحدث عن مزايا السلاح الانكليزي، وبالغ في إيراد التفاصيل، وأكد أنه لن تمر سنة، وأقصى حد سنتان، إلا ويكتسب جنود الباشا مزايا الجنود الهنود، وربما يصلون، في وقت لاحق، إلى مستوى الجنود البريطانيين! ولم ينس نكلسون الإشارة إلى استعداده لإجراء مناورة بالذخيرة فيما لو رغب الباشا بذلك، لكن الباشا لم يأت ولم يرد!

ولما جرى الحديث عن الطريق البري، عبر الفرات، بدا الباشا أكثر مرونة. سأل بتدقيق، واستوضح وتوقف عند عدد من النقاط. ولو كانت ملامح الوجه تكفي للحكم على الاحتمالات، فيمكن القول إن الباشا بدا مسروراً، وأكثر استعداداً لمواصلة البحث في هذا الموضوع.

قال ريتش لنفسه، وكان يهز رأسه بغيظ: «لقد أدرك هذا الخلد الأعمى، وبغريزة الشرقي الحذر، أن للسلاح ثمناً سياسياً ومالياً لا يملكه الآن، ولهذا لم يشأ أن يخوض في هذا الأمر، لئلا يحرج نفسه، كما أدرك انعكاس ذلك على اسطنبول، إذ ربما اعتبرته تحدياً، أو أنه يقتفي خطوات باشا مصر، وقد يفعل مثله، وكلا الطرفين غير مستعد لذلك الآن.

«أما موضوع دجلة والفرات فإنه أكثر أمناً، ويمكن الوصول فيه إلى نتائج عملية، دون اغضاب السلطان. فهذان النهران منذ أن شقا طريقهما قبل مئات آلاف السنين، لم يخلقا الحياة على ضفافهما وحسب، بل وأصبحا موضع اهتمام الكثيرين، لأنهما خير دائم. أما إذا تحولا الآن إلى طريق للتجارة والنقل، فلا بد أن يجلبا المزيد من الخير، إذ يمكن تقاضي الرسوم على البواخر التي تمر، وستكون مورداً إضافياً لخزينة الدولة، واسطنبول ضعيفة إزاء أي مشروع يأتي بموارد جديدة، ولا بد أن يوافق السلطان على اقتراح من هذا النوع، بل سيكون مسروراً».

هكذا مرت الأفكار والاحتمالات في رأس ريتش، بعد الأحاديث التي دارت مع الباشا. ولأن معركة من نمط جديد لا بد واقعة بين الاثنين في وقت من الأوقات، فيجب الاستعداد بكثير من الدقة والبراعة، «وإذا أفلت الجرذ هذه المرة، ولم يقترب من قطعة الجبن، فلن يتأخر كثيراً حين يحس بالجوع».

داود الذي انتهى من معركة الفرات الأوسط، ورغم أن الصيد أفلت من يده هذه المرة، بهروب الشاوي وصادق، إلا أن الرسالة التي بعث بها إلى البدو، وصلت إلى من يعنيهم الأمر، وأصبح هؤلاء في حيرة حقيقية، فهم غير مستعدين للامتثال لما يريده الباشا، ولا يطيقون محاربته في نفس الوقت. لا يمكن أن يصادقوه ويوافقوا على ما يريده منهم، كما لا يستطيعون الرفض، وهكذا وجدوا أنفسهم في مأزق حقيقي!

ثامر بن حمود الذي كان ملء السمع والبصر، طوال الفترة التي حكم خلالها سعيد باشا، أدرك قبل غيره، أنه لا يستطيع مواجهة داود باشا، كما

قدر أن وقت ذلك لم يحن بعد، فآثر السلامة، وانزوى.

والباشا حين رأى حمود ينزوي تركه، لم يتحارش به، فقد كانت لديه مهمات أكثر إلحاحاً. أما الذين حاولوا اختبار قوى الباشا، وهذا ما يلجأ إليه البدو عادة إذا جاء والٍ جديد، بالامتناع عن دفع ما يستحق عليهم للدولة، فقد انتهى بهم الأمر إلى العصيان، ثم لخوض معارك كلفتهم غالياً.

الآن، بعد أن استقر الوضع لداود باشا، بدأ يفكر بما يجب أن يفعله، وأخذت الأحلام الكبيرة تعاوده في الليل والنهار.

صحيح أنه لا يثق بأكثر الذين حوله، إذ يعتبرهم غير أكفاء، إضافة إلى كسلهم، فإنهم أقرب إلى البلادة، كما يفتقدون ذلك الجنون المحرض لبناء الدولة التي يحلم هو بها، لكن ليس لديه الآن غيرهم، مما يضطره لإسناد مهمات محددة لهم، مع الكثير من التوصيات والمراقبة، لعل بعضهم يتغير، أو تتهيأ الظروف لأن يستبدلهم بآخرين أكثر حماسة وأكثر نشاطاً، وقد يتغاضى عن أخطاء بعضهم، ولكن لن ينساها!

قال لخلف بطريقة لا تخلو من تعريض:

ـ أريدك تفتح عينك زين على البك، حتى ما نتخلّف، يا خلف، عن التهنئة والتبريك، إذا جاءه ولد، إذا تزوج، لأن سلالة من هذا النوع يتدور عليها بسراج وفتيل!

قال الباشا هذا الكلام، لأنه لم ينقض على الفيضان إلا أيام قليلة حتى تزوج الكيخيا؛ تزوج من فتاة صغيرة رآها في صحن الكاظم، أثناء إحدى جولاته على المراقد المقدسة، وكانت آتية مع أسرتها من كرمنشاه للزيارة. إذ ما كادت نظراته تقع عليها، حتى خفق لها قلبه وأحبها! بعث أحد رجاله إلى هذه الأسرة ليقدم تحياته ويعرض المساعدة، كما بعث بآخر إلى المشرف على المقام يبلغه أن هذه الفتاة استهوته، ويطلب منه أن يتفق وأهلها، لأنه يريد الزواج منها على سنة الله ورسوله!

جرى هذا الزواج، ولم يعلم به الباشا إلا بعد أيام، الأمر الذي جعله

ينبه على خلف بتلك الطريقة. فيروز الذي كان يستمع صامتاً، قال بلهجة أقرب إلى الغمغمة:

ـ لو ظلت على هذي لهانت، لكن لو تعرف شنو اللي صار بذيك الليلة، يا أفندينا!

والباشا الذي لم يفطن لوجود فيروز، أو على الأقل معرفته بهذا الزواج، التفت نحوه وهو يسأل:

ـ يعني آني الوحيد اللي فاته عرس المسعد والمسعدة؟

ـ براسك، يا أفندينا، مسائل وهموم أكبر من هذي السوالف!

ـ أي.. شنو اللي صار بذيك الليلة؟

فيروز وهو يتبادل النظرات مع خلف، كان يحرضه لأن يتكلم، لأن يروي للباشا ما حصل. حين وجده صامتاً، كأنه يتهرب من هذه المهمة، قال:

ـ عند العصر قطع الشيخ شمسي المهر، وقبل ما ينتهي الحفل طبّت مريم الشركسية، آخر زوجاته قبل الجديدة، على المجلس، ودّبت الصوت: منها كلمة ومنه كلمة، وانلاصت: بكا، وشق هدوم وهلاهل، وكل واحد يجر من صفحة، عبالك طهور كاولية، وما خلصت القضية إلا بألف ويلاه!

رد الباشا، وهو يهز رأسه هزات لوم وتأنيب:

ـ كل هذا يحصل وآني ما أدري؟

قال خلف في محاولة للتبرير:

ـ ما ردنا ندوّخ رأسك بهذه المكسرات يا باشا!

ـ يخلف عليك يا خلف، فإذا كان مثل هذا الشي يحصل بأقرب مكان إليّ، ومع نائبي، وما أدري، فلا بالله نحن بألف خير!

وبعد قليل، وكي يسمع خلف وغيره، أضاف:

ـ هسه هذي فاتت، لكن بعد اليوم إذا طير مرّ لازم أعرف، لازم أحد يقول لي!

لما توالت هزات رأس خلف أنه سيمتثل، وليعطي الموضوع طابعاً مرحاً، عقب الباشا:

ـ تجمع هسه، من هنا. . من هنا، أربعين خمسين فرخ حمام، وتوصلها بنفسك للبك، ومعها قرابة عسل، وتقول له: تبريكات الباشا وبالرفاه والبنين!

في تلك الليلة، وفي ليالٍ كثيرة غيرها، كان السؤال الذي يعني الباشا، ويجعله حائراً: كيف يمكن أن يبني دولة جديدة وقوية من خلال هؤلاء البشر الذين لا يحسنون سوى التثاؤب وبعض الأحيان الثرثرة؟

قد يكون الذين حوله يكنون له المحبة والاحترام، وربما لا يفكر أحد منهم بخيانته أو أن يكون أداة في يد أعدائه، لكن هذه الصفات وحدها لا تكفي. يريد بشراً من نوع جديد، يفهمون عليه بالإشارة ما يريد، ويمتلكون الطاقة والرغبة في أن تتحول الأفكار والأحلام إلى وقائع على الأرض، وأن تشتعل في داخل كل واحد منهم جمرة مقدسة تدفعه لأن يعمل ليل نهار.

كان يقول لنفسه، وهو يستعرض حياته منذ أن دخل السراي صغيراً، وحتى اللحظة الراهنة، بعد أن أصبح قادراً على أن يترجم أفكاره وأحلامه: «مشكلة ناس هذي البلاد: قلة الصبر، دائماً يصرخون، يهرولون، لكن لا يعرفون بالضبط وين رايحين، أو كيف يصلون، ومعنى ذلك أن تنوب عنهم في كل شيء: أن تفكر نيابة عنهم، أن تقول ما يجب أن يعملوا وكيف، أن تبقى ساهراً على كل خطوة، ومراقباً لكل تصرف، لأنهم مثل الغنم، إذا غفلت عنهم لحظة واحدة تاهوا، احتاروا بأمرهم، ثم يبدأ بعد ذلك جنونهم الخاص، إذ تستهويهم فكرة التدمير، ورغبة الاعتراض على كل شيء، فإذا لم يجد واحدهم شخصاً يعاديه، يحاربه، فإنه يحارب نفسه، ويمكن أن يموت دون أن يعرف لماذا أو [illegible] شيء!»

ومثلما استغرب الباشا العروض التي قدم [illegible] ضاً تواريه خلال الفترة الأخيرة إذ بعد أن كان يثير اهتمام اهن.

التي كان يقوم بها في الأسواق، وبالاستعراضات التي كان يقيمها لحيواناته، ثم تلك الضجة التي يحدثها أثناء ذهابه إلى الصيد، أو العودة منه، انتهت كلها بعد أن غادرت السفينة الحربية بغداد. لم يعد يُشاهد إلا نادراً، كما توقف عن استقبال الكثير من الأصدقاء في الباليوز، أو تلبية دعواتهم في المزارع المحيطة بالمدينة، أو حتى في بيوتهم.

سأل الباشا عزرا الذي تعوّد زيارة ريتش أسبوعياً:

ـ صار أيام طويلة لا شفنا القنصل ولا سمعنا أخباره، يا عزرا أفندي، فعسى أن يكون المانع خيراً؟

رد عزرا، وكان يتحاشى أن ينظر إلى عيني الباشا:

ـ علمي علمك، يا باشا...

وبعد قليل وبنبرة محددة:

ـ واللي سمعته من بعض الأخوان، يا باشا، أن زوجته مريضة، ويجوز هذا اللي يشغله.

ـ هم زين انك قلت: لازم نسأل عنه وعن أهل بيته، لأنه غالي علينا...

وبعد قليل وبأريحية فياضة:

ـ وإذا كان محتاج فد شي، يمكن الله يقدرنا ونسوي زينة ويّا الرجال!

ـ قالوا إن حرمته ظهرها ضعيف، وبعد حمل شهور، الله ما كتب أن يجيه وليد، ويجوز هذا غاثّه، وجاعل الدنيا سودة بعيونه.

ـ ما يستاهل، لأنه خوش آدمي!

بعد ان خيم الصمت، وطال، قال الباشا:

ـ إذا لك روحة يمّه بلّغه تحياتنا، وقل له إن الباشا هواية انقهر، وإذا يحتاجنا بفد شي نحن حاضرين؛ وإذا ما راح تشوفه بأيام قريبة، يمكن ندز أحد من تشريفات السراي.

رد عزرا بارتباك:

ـ يجوز تتأخر زيارتي، يا باشا، والأحسن أن تبعثوا بواحد من

التشريفات . .

وبعد قليل :

ـ وإذا زرته ، هم راح أبلغه تحياتكم ، واستسفر إذا كان يحتاج إلى مساعدة!

بعد أيام قليلة أوفد الباشا ناطق أفندي وصفوت قرداغ . وإذا كان صفوت اكتفى بتقرير شفوي قصير عن هذه الزيارة ، فإن ناطق أفندي كتب تقريراً طويلاً ، «لأن دماغي ما يصفا إلا إذا حطيت أسود على أبيض ، وبعدما أقرا الكتابة مرة وثنتين ، واتأكد ، ترفع إلى الباشا» هكذا قال ناطق أفندي لصفوت ، الذي طلب إليه أن يقدم تقريره الشفوي بمفرده .

كتب ناطق أفندي :

« . . . وأرجح ، يا فخامة الباشا ، أن خطأ حصل في تحديد الموعد ، وقد لاحظت ذلك من ارتباك الحراس وعدم وجود الموسيقى والأفراس ، ومع أن ميناس هبّ للاستقبال ، لكن الاستعداد لم يكن كافياً ، والتحضير لم يكن وافياً . ومما زاد في صحة التقدير ، دون سابق تبرير ، أني لمحت القنصل من الشباك ، وكان بملابس عمال التنباك : عمرة بلون البهار ، في وضح النهار ، تغطي الرأس حتى القذال ، المقص في يد والغبار على الوجه كالسد ، وأغلب الظن أنه كان يتعامل مع الأشجار ، دون حيطة أو ستار .

«جالسنا ميناس وقتاً غير قصير ، وهو في حيرة وهم كبير ، إذ لا يعرف متى يصل القنصل ، وفي الأحاديث يُدْبر ويقبل ، لأنه كان دائم الالتفات ، وينظر إلى الساعة المعلقة على الجدار لمعرفة الميقات . القلق يرتسم في عينيه والابتسامة تهرب من شفتيه ، يقعد ويقوم ، كأنه زيت على ماء يعوم ، إلى أن جاء القنصل فتركنا وانصرف ، وبدا أن الاضطراب عن كتفيه خف أو انخطف .

« . . . وأبلغنا القنصل تحيات فخامة والينا ، وقد استعملنا صيغة الجمع في توجيه التحية والسلام ، عله يدرك المرام ، ويفهم أن حرمه ضمن المقصود ، لكن لم نصل إلى يقين ثابت مشدود ، الأمر الذي أوقعنا في

حيص بيص، لأنه لم يحر جواباً حاسماً، ولا بدا عليه أنه كان فاهماً، ولم نر مناسباً أن نسأل عن حرمه تخصيصاً، إذ ربما يعتبر ذلك تدخلاً وتلويصاً، إلى أن ضاقت الروح، وحان وقت الاستئذان، فتجرأت وقلت: يا سعادة القنصل ان حرم والينا تخص حرمكم بالسلام، وتتمنى لها سرعة القيام، فرد وقال: بلغ فخامة الوالي الاحترام، وحرمنا تبلغ حرم الوالي السلام، وغادرنا دون أن نتأكد، لكن الملامح، مهما تستر الإنسان تفضح، وزلات اللسان تقدح، فالقلق عليه بادي، وبين السؤال والجواب وادي، أما العينان فزلقتان، وكلماته لها دربان، النظرة نقائض والابتسامات فوائض، وبين النظرة والابتسامة صحراء غبراء، وهمهمة عمياء، فلا يُعرف إن كان يعني ما يقول، أم أنها مجرد كلمات في البال والخاطر تدور وتجول.

فخامة أفندينا المعظم، أدام الله عزه ونصره

قمنا بالواجب على أكمل صورة وخير وجه، لكن النوايا شائكة، والأفكار سالكة هالكة، وهكذا ذهبنا وعدنا دون الوقوف على المقصود، أو الوصول إلى الغرض المنشود، الأمر الذي يستوجب زيارة ثانية وربما ثالثة، علّنا نصل إلى المراد، ويجعل خطواتنا أقرب إلى السداد، والله الموفق في البدء والختام، وتقبلوا يا فخامة الوالي المقدر جزيل الاحترام.

خادمكم المخلص دائماً»

وبعد ذلك توقيع لا يمكن لأحد أن يميز حرفاً من حروفه، ويختلف مرة عن أخرى!

الباشا الذي ألقى نظرة سريعة على تقرير ناطق أفندي، كتب عليه حاشية تقول: «الفطارة صفة تخلق مع الإنسان وتلازمه طوال حياته، والمصيبة أن الفطير لا يعرف أنه فطير.

يُحفظ، ويعاد عرضه علينا إذا طلب ناطق أفندي الترفيع».

والتفت الباشا من جديد، إلى القوات العسكرية، يعيد تنظيمها، ويطلب زيادة تدريبها واستعدادها، ويحاول أن يؤمن لها ما تحتاج. أما

الجهاز الإداري «فإننا نحتاج إلى تغييره، لأن الجهاز الحالي ميؤوس منه، ولا تجدي محاولة اصلاحه، ولو حاولنا فإننا نكون كمن ينفخ في قربة مثقوبة».

ونام الباشا تلك الليلة، وقد حلم أحلاماً كثيرة، لكن أوضحها كان لقاؤه بباشا مصر، محمد علي، وقد تحدثا طويلاً، وفي لحظة معينة شد محمد علي كتفه، وقال له: لا تخف. ولم يتأخر داود باشا في استدعاء محب الدين لكي يفسر له المنام!

123

الذين عرفوا ذنون الحاج حسن من قبل، أنكروه تماماً حين رأوه بعد الفيضان. لقد تغير بالكامل من حيث الشكل والتصرفات. فخلال أسابيع قليلة تحول شعره الرمادي إلى كتلة من البياض الناصع، وزيادة في عقاب النفس أطلق للحيته العنان أيضاً، ولم تتأخر لتظهر بيضاء كثة في وجه مشرب قليلاً بالحمرة. أما الهدوء الذي ميز تصرفاته خلال الفترة الماضية، فقد تحول إلى نزق أقرب إلى التحدي، وكأنه لم يعد مبالياً بالمجاملات أو بردّات الفعل.

كان إذا سئل عن الشيب الذي هجم بسرعة وبهذه الكثافة يرد:

ـ الهم مو بس يشيّب؛ الهم، يا جماعة الخير، يهد جبال!

وحين يسمعه الأسطه اسماعيل، يعلّق بسخرية:

ـ صحيح إن الهم يهد جبال، لكنه ما يهد الرجال.

فيرد عليه بمرح:

ـ قول اللي تقوله يا أبو حقي، لكن الصدق، ولازم أعترف: هذا الفيضان كسر ظهري!

ولئلا ينصرف الذهن إلى الأضرار التي لحقت ببستانه، وبالبيت في الأعظمية، ويعتقد الذين يسمعون أن الخسائر المادية هي التي هدّته وشيّبت شعره، لا يتأخر في التوضيح:

ـ المال، يا أبو حقي، ومن يوم ما الله خلق الدنيا، يجي ويروح. حتى فرعون اللي حكم الدنيا وكدّس من الأموال أكوام، جت النار على غفلة

وأكلت الأول والتالي، ومثله أمثال، هاي ما لنا بيها. ومثل ما النار تأكل الأخضر واليابس هالشكل الفيضان. وإذا سألتني هسه عن البستان اللي تدمر، وعن البيت اللي وقع، أقول لك: قَدَر، قسمة ونصيب، وحالي حال غيري، لكن اللي ما يتعوض، وهذا اللي قاهرني: الأعمال الجميلة اللّي سويتها وأخذها الفيضان. . .

يتوقف قليلاً، يأخذ نفساً يكفي لنجاة غريق، ويأتي صوته مختلفاً:

ـ كل أيام الصيف، والشتاء بطوله، وآني أشتغل. ما أعرف منين جاني هذا الواهس. من الفجر إلى أن تغيب الشمس، اشتغل بالطين، بالخشب، بالحجر. والأشكال اللي طلعت من بين إيدي ما يسويها بشر. چبيرة، زغيرة، شي مفخور وشي ملون، أما الخشب، يا أبو حقي، فصار بين إيدي يحكي ويبكي، وآني نفسي متعجب وما أدري شلون هذي الأشياء الحلوة تصير! الله، سبحانه، خلى دماغي مو بس يشتغل، سوّاه يطير ويشتعل. إذا خلصت من الطين اندار على الخشب، وإذا تعبت من الخشب، أشوف الحجر بوجهي يناديني، يقول لي: إنت وين؟ أريد أشتعل، أريد أطير، وما أفشله ولا أخليه ينتظر، أقع به دق، وكل دقة يا جماعة الخير كأنها العتابا، وحدها تغني وترقص. . .

توقف فجأة، وربما مرت صور التماثيل التي أنجزها في مخيلته، فقال بحزن:

ـ يجوز أحد منكم يقول: تتعوض، تقدر تسوي غيرها، لكن كل ظني أن مثل هذي الأشياء ما تتسوى إلا نوبة وحدة، مثل طلقة الصياد إذا طلعت ما ترجع، وهذا اللي قاهرني، هذا اللي هدّ حيلي، وشيب شعري؛ وهسه عرفت، يا أبو حقي، ليش صار بي هالشكل؟

قال أبو حقي في محاولة لمواساته:

ـ اللي سوّى ذيك الأشياء الحلوة يقدر يسوي غيرها، يا سيد ذنون، وبعدين اللي يشوف مصيبة غيره تهون عليه مصيبته!

ـ شغلتنا، يا أبو حقي، تختلف عن شغلات هوايه: تصير أو ما تصير.

وإذا صارت نوبة يجوز ما تتكرر.

قال الأسطه عواد الذي التقط طرف الخيط:

ـ افتهمت عليك كلش زين يا أبو عمر، لأن المسألة من الأول للتالي مسألة واهس...

وحين لاحظ أن كلامه لم يرق لأسطه اسماعيل، تابع موضحاً:

ـ مثل اللي يغني، يا أبو حقي، إذا عنده واهس يسلطن ويجود، يطلع الغنا من جوا الصدر، مو بس لسانه يغني، أعصابه كلها تغني ويّاه، وروحه ترفرف مع كل كلمة يقولها. أما إذا ما عنده واهس فتشوف الكلمات مسطّرة، مثل الحطب، يجوز تقرقع، لكن بالنتيجة ما تقول فد شي!

ـ بس سيد ذنون صاحب صنعة، مثل اللي يعرف يقرا المقام، بكل وقت يعرف شلون تكون اللّزمة، فلا تخاف هوايه، أبو نجم!

رد الأسطة إسماعيل.

ـ والعمر منين؟ والواهس شلون يجي؟ وبعدين الشي اللي صار فد يوم يصير مثله نوبة ثانية؟

هكذا سأل ذنون بمرح، وكان يوزع نظراته على الذين حوله.

الأستاذ ناجي الذي جاء متأخراً، وقد تسلل إلى المجموعة بحذر، كي لا يقطع الحديث الذي يدور، سمع قسماً مما قيل، فتدخل حين سمع أسئلة ذنون المرحة:

ـ يجوز ما لي حق أتدخل، لأني جيت متأخر، وما عرفت شلون بدت السالفة، لكن والشهادة لله، ومن خلال معرفتي بكم شاعر، ومعرفتي بقاري المقام الملا عبود، وانتو تعرفونه، إن أهم شي للشاعر الشاعر: الواهس، وهذا، مثل ما قالوا: يجي وحده، بسكوت، بليا ما الواحد يدري، فإذا لزمه الشاعر طلع منه شي يسوى، وإذا فلت منه راح. ونفس الشي لقاري المقام، أما إذا الواحد راد يصفُّط حچي، فيسمونه نظّام مو شاعر، ويجوز هذا اللي يقصده الأستاذ ذنون.

ـ تمام، ويسلم حلقك، يا أستاذ ناجي، هذا هو قصدي.

بهذه الطريقة الفرحة رد ذنون، وأضاف:

ـ ومثل ما قلت للجماعة: خسارة المال تتعوض، مو اليوم باچر، بس شلون تتعوض خسارة الأفكار اللي مرت مثل المنام؟ الأفكار اللي جت وحدها بدون ما تدري، واللي كانت تشغّل مو بس الإيدين، كانت تشغل الروح كلها؟

قال الأسطة اسماعيل بنبرة لا تخلو من دعابة:

ـ لأن بينا ميانة، سيد ذنون، أقدر أقول انك سدّيتها بوجهنا، ورحت بيها زايد، فما دام الواحد منا قوي ورايد، كل شي سهل، كل شي ممكن، فسهّلها تسهل، لأن قلوبنا، الله يرحم والديك، صارت عطابة سودا!

سيفو الذي أصبح لا يأتي إلى قهوة الشط إلا متأخراً، وبعد أن يطمئن على الخيل، ويطمئن على الحاج صالح العلو قبل ذلك، وصل حين بلغ الحديث هذا الحد، وقد وجد الأسطة إسماعيل مناسبة لأن يغير اتجاه الحديث، سأل سيفو:

ـ جيت والله جابك، يا أبو فلاح، ومثل ما قلت فد يوم: إذا سيد ذنون يريد أحد يساعده بشغله، فإنت مستعد؟ بعدك عند قولك أم لا؟

مرت عينا سيفو على الوجوه تمسحها، تتساءل ما إذا جاء ذكره من قبل، وما إذا كان الأسطة إسماعيل يدبر له فخاً. سأل، وجاءت كلماته بطيئة:

ـ سيد ذنون من يوم ما عرفناه فرداوي، لا يتدخل بشغل أحد، ولا يريد أحد يتدخل بشغله، فشنو صار وشنو اللي جرى، حتى تقول هذا الكلام، أبو حقي؟

ـ الملاعيب اللي يسوّيها، أخذها كلها الفيضان، فانكسر واهسه، وشقد ما حاولنا هسه وياه يرجع ويسوي مثلها، كل ساعة يطلّع لنا حجة: تصير وما تصير، أقدر وما أقدر، الي واهس ومالي واهس، فقلت لروحي ماكو إلا سيفو، أبو فلاح، يقدر يقنّعه، فشنو رأيك؟

ـ هاي تبقى يمه، يا أبو حقي، وبمثل هذي الشغلات ما يقدر الواحد

يقول: كن فيكون!

قال ذنون، موجهاً الكلام للأسطة إسماعيل:

ـ وبعدين.. هذي المسائل، يا أبو حقي، ما تتسمى ملاعيب، هذي حشاشة الروح، هذي خلاصة سهر الليالي وتعب الأيام.

ابتسم بحزن ساخر، وتابع كأنه يكلم نفسه:

ـ مثل هذي الأشياء سوَّاها الناس اللي قبلنا من ألوف السنين، وعبدوها، مو لأنها أصنام تنعبد، وإنما لأنها حلوة تفرح القلب، وحتى اللي يباوعها اليوم يشوفها حية وقوية، كأنها تريد تنطق، تريد تمشي، وهذا سرها!

قال الأستاذ ناجي:

ـ الجمال، يا جماعة الخير، ما يخبي نفسه، وكل واحد يحبه، وكنت أتمنى لو شفت الأشياء اللي سواها الأستاذ ذنون من قبل، لكن إذا فاتنا ذاك يمكن الله يكتب لنا ونشوف الجديد، أو مثل ما قالوا: إذا فاتكم اللحم فعليكم بالمرق!

رد ذنون بصوت خافت:

ـ العمر انقضى، وما يندرى بالباقي يتسوى فد شي أم صار كله تاريخ، أو أثراً بعد عين، مثل ما يقولون!

ـ وكّل الله يا رجّال، العمر بعد بأوله، قال الأسطة عواد بحزم، وهاي بغدادنا مر عليها آلاف مؤلفة من الفيضانات والأغراب والظلاّم، وظلت، وبقيت؛ أما إذا الواحد قال: هاي آخر الدنيا، وبعدها ماكو شي، فهو غلطان، أي نعم، غلطان، ومثل ما تروح عليه، تروح على غيره، وهذي الخسارة اللي ما تتعوض.

وتشعب الحديث بعد ذلك، وتغير الذين يجلسون حول طاولة الأسطة عواد.

سيفو ظل صامتاً، إلا أن فكرة مجنونة سيطرت عليه، وقد طرأت له فجأة: لماذا لا ينتقل للعمل مع ذنون؟ لقد أحب الأشياء التي كان يصنعها،

صحيح أنه لم ير منها إلا القليل، لكنها كانت جميلة رقيقة، وكأنها تريد أن تتكلم، أن تركض. والتمثال الذي أهداه إلى بدري، أين أصبح؟ لماذا لم يجلبه معه كذكرى؟ شعر بالحزن وقد تذكر موت بدري، وشعر بحزن أكبر لأنه بدأ ينساه. لم ينسه تماماً، ولكن طيفه أخذ يبتعد، وكأن حرارة الحياة، حرارة الجسد، ما تجمع الناس، فإذا انطفأت تلك الحرارة، إذا ابتعدت، يبتعد معها كل شيء. قال في نفسه: «لولا حصان بدري يجوز نسيه الكثيرون، لكن الحصان يرمح كل يوم، ويراه الناس فيتذكرون بدري، ويقولون: ألف رحمة على روحه».

في خضم هذه الرحلة القصيرة، وحين بدأ الجمع ينفضّ، قال سيفو لذنون:

ـ قبل ما تمشي أبو عمر أريد أشوفك، لي كلمة وياك.

ـ تؤمر أبو فلاح، ومن هسه آني حاضر!

ـ لا.. فد شوي أحسن، لأن براسي موال وأريد أشوف شنو رأيك بيه!

قال ذلك وقد اختلطت في ذهنه أفكار عديدة، فهو من ناحية لا يمكن أن يتخلى عن الحاج صالح، وعن الخيل التي أصبحت جزءاً من عالمه الأثير؛ كما أن فكرة أن يكون قريباً من ذنون، وأن يشاركه في صناعة التماثيل، راودته منذ اللقاء الأول، ولا يعرف إن كان يصلح لهذا العمل أو قادراً عليه، فهو لم يجرب نفسه، لكن رغبة من هذا النوع تستبد به في الكثير من الأحيان.

بعد أن فرغ ذنون من الاجابة عن بعض الأسئلة التي وجهت إليه، وكان أغلبها متعلقاً بالأضرار التي لحقت بيته والبستان، وبعد أن انفضّ عدد من الذين كانوا متحلقين حوله، زحف مقترباً من سيفو. قال له بمودة لا تخفى:

ـ أي.. أبو فلاح، شايف بوجهك كلام هوايه، قول، مولانا، سولف.

ـ ما عاد بينا حيل للسوالف، بعد المصايب اللي صارت، يا سيد

ذنون، لكن قلت لروحي، بعد الكلام اللي قلته وقالوه الجماعة، وما دام بستان الأعظمية ينراد له شغل هوايه، ويجوز ما يخلص بشهور، فشو رأيك تشيل وتجي يمنا ببستان الحجي!

ـ ما وصلت الأمور بعد لهذا الحد يا أبو فلاح! الله عاطي، مكفي وموفي، وإنت تعرف: بيت الأعظمية كان للونسة، وبالصيف. أما باقي وقتي، وكل عيشتي بقنبر علي، ومن هذي الناحية ماكو مشكلة أبد، وبعدين إنت أخ وصديق، ولو أكو مشكلة كان أول ما أجي عليك. أجي بحيل صدر وأقول.

ابتسم سيفو بحزن، لأنه لم يكن بحاجة إلى كل هذه الايضاحات التي قدمها ذنون الذي ربما أساء فهمه، فقد كان يقصد شيئاً مختلفاً. قال في محاولة للتوضيح:

ـ سلامة خيرك يا أبو عمر، وكل ما قلته أعرفه، لكن كان قصدي غير شي!

ـ قول.. أبو فلاح.

ـ تتذكر لما سألتك بذاك اليوم البعيد: شلون تتسوّى هذي المسائل، وقلت لك إن نفسي تشتهي؟ والليلة، ومثل ما قال أبو حقي: ليش ما تشتغل ويّا سيد ذنون؟

ـ أتذكر كلش زين.

ـ بعد هذا الكلام، صفنت، وقلت لروحي: إذا ما تقدر إنت، يا سيفو، تروح يم سيد ذنون، ليش ما سيد ذنون يجي هنا ونشتغل سوية؟

كانت الابتسامة التي ارتسمت على وجه سيد ذنون مزيجاً من التساؤل والاستغراب وقليل من الفرح، إذ لم يتبين بعد بوضوح ماذا يطلب منه سيفو أن يشتغل، ولماذا يجب أن يأتي إلى هنا. سأل بارتباك:

ـ يرحم والديك، أبو فلاح، ترى تاهت عليّ وما افتهمت قصدك، فقل لي شنو اللي رايده مني، حتى أقول لك: إي أو لا؟

ابتسم سيفو ابتسامة عريضة، كبداية لإزالة سوء الفهم، ونظر إلى ذنون

نظرة طويلة مع هزات من رأسه، وكأنه يعتب عليه لأنه لم يدرك ما يقصده. قال، وكان صوته ودوداً:

- كنت أتمنى لو أقدر أروح وياك للأعظمية، إنت الخَلْفة وآني اشتغل جوا ايدك. اللي تقول لي عليه أسويه، بس لأني ما أقدر أترك الخيل، وما تطاوعني نفسي أفارق أبو قدوري، قلت لنفسي: يجوز سيد ذنون، لأنه وحده، فرداوي، يقدر يجي يمنا. وببستان الحجي، والشط منا قريب، والطين هنا خيرات رب العالمين، وانت تعرف: أكثر من الطين بهذي الديره ماكو، فإذا جيت نشتغل سوية، ونسولف، وتشوف الخيل! وبعدها يجوز تسوي فد شي يعوّض اللي أخذه الفيضان!

أصبحت الصورة أقل غموضاً، لكنها ليست واضحة بعد. سأل ذنون، وقد شاب صوته القلق:

- يا أبو فلاح.. إنت ملتهي بشغلات هوايه، والطين ينراد له شغل وفخر، ويحتاج واحد فسقان مثلي، ما عنده شغل ثاني، ما عنده دادا وماما، وكل وقته صافن: شلون هذه الصفحة تتسوى؟ شلون هذي الايد تكون أعلى أو انصى؟ شلون العين مو بس تباوع وانما تقول فد شي؛ وانت، الله يسلمك ويقويك، بدماغك ألف شغلة، وما تقدر تفتّل لي خيوط!

- هذا رأيك، لأنك تباوع من بعيد، لكن لو عرفت سيفو زين، لو جرّبته، كان قلت غير هذا الكلام!

قال ذنون ليبقي كل الخيارات قائمة:

- إذا عندك مثل هذا الواهس لا بد نلاقي فد طريقة ونشتغل سوية، يا أبو فلاح، إذا مو اليوم باچر، وإذا مو بالأعظمية بمكان ثاني!

لم تنقض عدة أيام إلا وجاء ذنون إلى صوب الكرخ، وقبل أن يأتي إلى قهوة الشط، ذهب إلى أسطة اسماعيل.

كان الأسطة اسماعيل منهمكاً بتحضير بعض الأدوية، لإزالة التآليل التي انتشرت على يدي ملا حمادي، والملا حمادي لابد مثل قط مذعور

في الزاوية، يراقب تحضير الدواء، ويتطلع بين لحظة وأخرى إلى أصابعه بحزن ممزوج بالخوف، وتتوالى أسئلته التي لا ينتظر جواباً لها: «وهذا الدوا، أبو حقي، نوبة لو اكثر؟» «والإيدتين سوا لو كل يوم وحدة» «والواحد يتوجع هوايه؟ مثل مسمار محمي؟ مثل نقطة زيت حار؟» والأسطة الذي يجيب ولا يجيب، كان يدندن بألحان مختلطة، وينظر بضيق إلى هذا المريض اللجوج.

حين أطل ذنون، ورآه الأسطة إسماعيل قال ليخلق جواً من المرح، وليخيف الملا حمادي:

ـ ابن حلال، جيت بوقتك، والله جابك!

توجس الاثنان، تطلع الملا حمادي إلى سيد ذنون بهيئته المخيفة، في الوقت الذي توزعت نظرات ذنون بين هذا اللابد في الزاوية، ورائحة الأبخرة تتصاعد، ووجه الأسطة إسماعيل الذي تتبدى فيه الفرحة والشماتة معاً، وسأل:

ـ شنو الصاير بالدنيا، أبو حقي؟

ـ الملا حمادي هوايه وجعان؛ ينراد له جراحة، ووحدي ما أقدر عليه؛ فأريد منك تلزمه زين حتى أعرف شلون اشتغل!

وفجأة انتفض الملا حمادي. هب واقفاً، كأن ناراً كوته، وصرخ:

ـ كل شي ما بيّ، منين جبت لنا قصة الجراحة يا معود؟

ـ على كيفك ملا ومثل ما إنت ما تقبل ان يتدخل بشغلك أحد، لا تسأل شنو اللي راح أسويه، شلون راح أداويك، هذا شغلي . . .

والتفت الأسطة إسماعيل نحو ذنون وتابع:

ـ لحم الملا صاير خايس: الحبابي تارسه إيديه، ويجوز باچر تنتقل لوجهه، فينراد له جراحة، حتى نقطع الخياسة من منبتها، من جذرها، وصار لي ساعة أحضر الدوا اللي ينحط بعد الجراحة، فاريد منك تلزمه زين، حتى نخلّص شغلنا بالعجل!

قال الملاّ، وخرج صوته متلجلجاً:

ـ خاف من الله، أبو حقي، لان مثل هذه المسائل أبسط منها ماكو، لا تحتاج جراحة ولا من يحزنون، حتى الدوا زايد عليها، فإذا ببالك تقصّبني فآني بطّلت، ما أريد اتداوى!

وشرع يلملم نفسه يريد المغادرة، ومستعداً لأن يتعارك فيما لو حاول الأسطة إسماعيل مداواته بالقوة، لكن الضحكة الصاخبة التي صدرت من الأسطة إسماعيل غيَّرت الجو، وجعلت الملا حمادي يرتخي. تبادل بحيرة النظرات مع ذنون، قال الأسطة إسماعيل بمرح:

ـ الفيضان خلاّك تخاف أزيد من قبل، ملا! أو مثل ما يقولون: المقروصْ من الحبل يخاف!

ولما ارتمى الملا على الكرسي من جديد، وأخذ نفساً عميقاً، تابع الأسطة إسماعيل:

ـ وين اكو بينا نذبح دجاجة يا معود، فتريدنا هسه نسخى بك ونقصّبك؟

ـ الناس صاروا قُطّع يا أبو حقي، ما يخافون من الله، والواحد صار يخاف من كل كلمة يسمعها!

قال ذنون الذي ظل طوال هذه الفترة صامتاً، موجهاً الكلام إلى الملا حمادي:

ـ على كيفك مولانا، بعدها القاع جوا رجلينا ما يبست، ولولا تعاون الناس ومحبتهم كان بغداد هسه ماكو!

ـ خلونا هسه من هذا الكلام، واعطيني، ملا، ايدك، وإذا توجعت قول!

ومد الملا حمادي يده. نقّط عليها الأسطة الدواء، وقال:

ـ تنقّط عليها ثلاث نوبات يومياً، وباليوم الرابع تجي، وبدقيقة نشيل التالول، وأبوك الله يرحمه!

واقترب فم الملا حمادي من أذن الأسطة إسماعيل يسأله وشوشة، فرد الأسطة بحزم وبصوت عالٍ:

ـ استغفر الله . . ملا ، كل شي ما أريد ، وانت مُنعم ومفضّل . . .

وبعد قليل :

ـ بيها العافية ملا ، وشايف الخير .

ومثل ديك لمّ الملا نفسه ، وقبل أن ينزلق مغادراً ، قال بفخامة :

ـ اترخص هسه ، لأن أخاف أتأخر على أذان المغرب ، وآني ممنونك ، أبو حقي !

ـ الله وياك ، ملا ، وعوافي !

ذنون الذي لم يحفل بالمحاورة التي جرت ، واعتبرها تزجية للوقت ، كان لديه ما يقوله للأسطة إسماعيل . كان لديه هموم ورغبات ، لكن بدا له أن الجو غير مواتٍ ، أو لم يجد لديه الحماس الكافي ، ولذلك أخرج كرسياً صغيراً إلى خارج دكان الحلاقة ، وقال :

ـ يعجبني أقعد برا ، أبو حقي ، أباوع على الرايح والجاي .

ـ شكو بيها ، ويجوز القعدة برا أروَح ، لأن ريحة الدوا ترست التكان !

وجلسا على كرسيين متباعدين . أحس الأسطة إسماعيل أن لدى ذنون ما يقوله ، لكن تعمد أن لا يسأل ، أن يتركه وحده يتكلم . وذنون الذي كان مغتاظاً ، والغيظ هو الذي جاء به من صوب الرصافة إلى الكرخ ، لا يعرف كيف يبدأ الحديث . صمت ، وطال صمته ، وأبو حقي يوزع تحياته على المارة ، ينشغل بحد الموسى ، يدندن . وكان يعرف أنه بهذه الطريقة يحمل ذنون على أن يبوح بما في صدره .

فجأة ، ضرب ذنون الأرض بقدمه ، وخرج صوته من بين أسنانه :

ـ تعرف يا أبو حقي ، مثل ما اكو بالدنيا ناس خوش أوادم ، أكو ناس أولاد قحاب !

وزيادة في الاستفراز لم يتدخل الأسطة إسماعيل ، لم يسأل . أكثر من ذلك التفت إلى جهة ثم أخرى ، وكأنه يُشعر ذنون أنه غير مهتم ولا يصغي .

وذنون الذي أثير بهذا الصمت ثم بتلك الحركات ، لم يستطع الصبر :

ـ ابن الزفرة ميناس شافني اليوم بالميدان . باوع عليّ وكأنه يباوع

شادي، وقال: الله.. الله يا دنيا شقد تغيّر الناس، وأنا أسمع وساكت، لأن ما عندي وياه فد شي أقوله. لما شافني هالشكل طلّع من جيبه كم بارة وقال: تخرّج بهذي إلى أن أشوف القنصل، يمكن الله يلقى لك وظيفة تؤمن خبزتك. دفعت ايده، وكانت الفلوس بيها، فوقعت على القاع، وقلت له: هذي خليها على (...) أمك مع كمشة ماش يمكن الله يدزلها عريس! أما الوظيفة اللي تقول عليها فما اشتريها بكلاش، لأنها تلوق لك ولأمثالك! وقبل ما اتركه تفلت على القاع ومشيت!

استمع الأسطة إسماعيل باهتمام، ومع كل مقطع جديد كان يزحف بكرسيه نحو ذنون، وكان يهز رأسه عجباً وأسفاً. بعد أن انتهى، رد عليه بطريقة ساخرة:

ـ خاس الزمان يا أبو عمر. صارت المظاهر وحدها تغرّ الناس. من قبل كان الآدمي ينقاس بفعله، بأصله، بمروته. هالأيام بهدومه، بالسبحة اللي شايلها، وإذا شنشل روحه بمحبس ذهب صار أكبر وأكبر...

توقف فجأة الأسطة إسماعيل، نظر بإمعان إلى ذنون، وكأنه يعيد اكتشافه. نظر إلى ملابسه وحذائه، وتوقف أخيراً عند شعره المنفوش ولحيته الكثة. ابتسم ابتسامة صغيرة، وخرج صوته مسالماً:

ـ وانت يا أبو عمر أعطيت للعدوين الحجة والسبب: تارك روحك مهرگل، كأنك تريد تؤذي نفسك واسمك و...

ولم يتركه ذنون، قاطعه بحدة:

ـ ردناك عون، يا أبو حقي، طلعت لنا فرعون؟

واستغل ذنون قهقهة الأسطة، فتابع بمكر:

ـ لو صرت من جماعة الباليوز؟

ـ يخسون، هذول كلهم بكلاش ما اشتريهم، لأنهم أصل العلة، وهم السبب.

شعر الاثنان بالتعادل، فقد سجل كل واحد على الآخر نقطة، ولذلك لم يشأ أي منهما أن يواصل في نفس الاتجاه. بعد أن خيم الصمت فترة

كافية، قال الأسطة إسماعيل:

ـ إذا تثق بي يا أبو عمر، وتسمع رأيي، تقوم من ساعتك، وبوجهك على كرسي الزيان، ازين شعر راسك، وأقصقص الزايد من اللحية والشوارب، وبعدها شخّده واحد ابن أمه وابوه يقدر يقول كلمة!

ـ مالي واهس يا أبو حقي!

ـ آني أخوك واسمع مني.

وقام ذنون بتثاقل إلى كرسي الحلاقة. ولم يكن ذنون وحده فناناً، فقد كان الأسطة إسماعيل فناناً من نوع آخر، إذ قبل أن يرفع الملا حمادي أذان المغرب، أنجز الأسطة القسم الأكبر من الرأس، وقد أبقاه كثيفاً لكن مهيباً. أما حين أنجز تشذيب اللحية، فقد أصبح ذنون شخصاً آخر: مليئاً بالمهابة، مضيئاً كأنه ملاك، وجميلاً.

ورغم أن الأسطة إسماعيل بذل جهداً وهو يقوم بهذه المهمة، إلا أن الأكثر أهمية ما قاله إجابة على الأسئلة التي وجهها ذنون أثناء الحلاقة.

حين سأله ما إذا كانت العلاقة بين سيفو والحاج صالح العلو من المتانة والثقة، بحيث إذا لبى الدعوة التي وجهها اليه سيفو لا تغضب ولا تزعج الحاج صالح. قال أبو حقي بانفعال:

ـ العلاقة أكثر من الأخوة، ولا تظن أن الحاج مانّ على سيفو بفلوسه أو بغير شي، لكن الرب، من فوق، هو اللي يرهّم العلاقات، يخليها هالشكل، ويجوز بالكرخ كله ماكو اثنين يحبون بعضهم مثل هالاثنين.

أما حين سأله ما إذا كان الحاج صالح متعصباً، وقد يمانع، لأسباب دينية، أن يصنع ذنون بعض التماثيل في بستانه، فقد رد أبو حقي بدعابة:

ـ لعلمك، ويجوز ما تعرف، الهدية اللي أعطيتها لسيفو بذيك الزيارة، قدمها سيفو صوغة بزواج بدري، وأتذكر أن الحاج قال لي: صوغة سيفو ما ينراد لها إلا روح حتى تقوم تمشي. مو بس هالشي، لفّها بنفسه داخل لحاف العرس، ووصى الزغير والچبير، وقال: «لحاف العرس، يواش... يواش، حتى أنفاس أم قدري ما تطير منه، وحتى لعّابة سيفو

توصل سلامات».

ـ يعني إذا جيت ضيف بستان الحجي، إلى أن يخلص بستان الأعظمية، ماكو أحد يعترض؟

ـ وبيك حيل بعدها تطلع من بستان الحجي!

ـ هالشكل؟

ـ ويجوز مو بس سيفو يشتغل وياك، يجوز قبله الحجي يشتغل، وتعال بعدها اخلص!

وقبل أن تنتهي حلاقة ذنون، قال له الأسطة:

ـ هسه، إذا خلصت من زيانك بوجهك لحمام عبد، وبعد ما تغسل وترتاح، وبعد ليلة تنام بليا هز، اعبر وتعال، وراح تلاقي كل شي حاضر.

كان ذنون يوزع نظراته بين المرآة وبين وجه الأسطة إسماعيل وهو ينظر إليه مباشرة، معجباً مقدراً. ولكي يؤكد أبو حقي وعوده، يخرج صوته حنوناً أقرب إلى الوشوشة:

ـ خلّيها علّي. الليلة أشوف سيفو بالقهوة، واتفق وياه، وباچر أتخطى يم الحاج صالح وما يصير إلا الخير، فاترك هذي المسائل يمي آني أعقّبها، وما ينراد أحد يوصيني.

وحين انتهى من الحلاقة، قال بلهجة ودودة:

ـ عوافي.. مولانا. وأقدر أقول لنفسي، قبل ما أقول لك: عفاريم أسطة، لأنك رجّعت سيد ذنون مو عشر سنين، عشرين سنة. وتسلم ايدك!

أما وسيد ذنون ينفض عن كتفه ما يفترض أنه بقايا شعر، وينظر إلى المرآة بإمعان، فقال، وبدا مرحاً:

ـ هذا زيان أخ لأخوه.. سلمت إيدك يا أبو حقي، والله يقدّرنا على مجازاتك!

وأضاف وهو يودعه، وخرج صوته عميقاً:

ـ إن غداً لناظره قريب!

124

بعد الاجابات السلبية التي تلقاها ريتش من داود باشا حول التسليح والطريق البري، تأكد له أن هذا الوالي لا يمكن التفاهم معه، خاصة وأن نشوة النصر التي لعبت برأسه جعلته مغروراً، أقرب إلى الاستخفاف، وربما إلى الاستهانة، بقوة بريطانيا العظمى ونواياها، كما أصبح أكثر استعداداً للتحدي. صحيح أن كل ذلك يجري بتكتم، وبأسلوب ناعم، لكن لا تخفى مراميه.

وزوجة القنصل التي انشغلت منذ أن عادت من السفر، وبعد أن لاحظت بنفسها أثناء إقامتها في لندن الأهمية الفائقة التي تحظى بها المخطوطات القديمة، والعروض السخية التي قُدّمت لهما بخصوص ما يمتلكانه من تحف ومخطوطات وآثار، جعلتها تنكبُّ على ما لديهما من مجموعات، تصنّفها وتعيد ترتيبها، وتبذل أقصى الجهود من أجل زيادتها، الأمر الذي شغلها تماماً. لكن مجيء الفيضان على هذا الشكل في هذه السنة، والقلق الذي انتابهما جراء ذلك، دفعها لأن تطلب «ترحيل هذه الثروة التي لا تقدر بثمن إلى بريطانيا، قبل أن تبتلعها المياه العمياء في فيضان لاحق»، خاصة وأن مرض الشقيقة عاودها من جديد، «هذا المرض غير الخطر، لكن الشديد الازعاج للمريض وللذين حوله»، كما قال طبيب الباليوز، وهذا ما دفع ريتش لأن يعجل باتخاذ قرار السفر إلى الشمال.

قال ريتش لنفسه، ليزداد اقتناعاً بضرورة السفرة، وعدم تأخيرها:

«. . . ولا بد من تجنب الشرقيين في حالتين: حين يكونون منتصرين، أو

يظنون ذلك، ووقت الهزيمة؛ لأنهم إذا انتصروا يتملّكهم غرور يتوهمون معه أن لا أحد يوازيهم في القوة والذكاء، مما يجعل التفاهم معهم صعباً إلى أقصى حد، إن لم يكن مستحيلاً. أما إذا هزموا فإنهم يصبحون كالحيوانات الجريحة، لا يمكن أبداً تقدير أفعالهم، أو ردود أفعالهم، إزاء العدو والصديق، إذ يمكن أن يرتكبوا عنفاً دموياً لا يخطر ببال»، وهذا ما جعله لا يتردد في تجنب المواجهة، وإبلاغ السراي بسفره.

إذ ما كادت مجاري الأنهار والجداول تعود إلى حالتها السابقة، وما أن يبست الأرض قليلاً، حتى شرع ريتش في رحلته إلى الشمال، وقد تعمد أن يسلك هذه المرة طرقاً فرعية، حيث يحتمل أن توجد آثار، لم يتسن له الاطلاع عليها سابقاً، وليستكمل أيضاً التعرف على أنحاء جديدة، من أجل إنجاز الخرائط، لتتخذ لندن القرارات المناسبة بخصوص الطريق البري الذي سيُعتمد.

بدأت الرحلة في النصف الثاني من نيسان. ولان ريتش أراد منها أن تكون رسالة لجهات عديدة، حول قوة بريطانيا وما تمثله، فقد حشد فيها عدداً كبيراً من حرس الباليوز والموظفين والمرافقين والخدم. وكانت آمنة، ام ميناس، أقرب المرافقات لزوجة القنصل، كما كانت فيها وهيبة، تلك الفتاة التي تشبه الطيف، والتي جيء بها من البنجاب لتكون مربية للابن الذي تأخرت زوجة القنصل بإنجابه، ثم لتصبح بمرور الوقت من اللواتي لا يفارقن ماري. كانت أول مشكلة، وربما أطرفها طوال الرحلة، ومنذ اللحظة الأولى: كيفية موازنة التختروان الذي يتبع مباشرة هودج زوجة القنصل، وفيه أم ميناس ووهيبة.

ففي الوقت الذي تزداد أم ميناس سمنة كل يوم، كانت وهيبة الصغيرة الحجم الضامرة، تضعف وترقّ يوماً بعد آخر. ولأن كلاً منهما تحتل جانباً في التختروان، فيجب أن يبقى متوازناً. وإذا كانت المشكلة قد حُلّت منذ البداية، بأن وضعت مجموعة من الاثقال في الجانب الذي تحتله وهيبة، فإن التغير في وزن أم ميناس، أو طريقة جلوسها أو حركتها، اقتضت أن

يعاد النظر يومياً أو عدة مرات في اليوم الواحد للحفاظ على التوازن، علاوة على ما يحصل من مصاعب وطرائف أثناء الصعود والنزول!

كان الجو في اليوم الأول من الرحلة صافياً، ورغم الدفء، إلا أن الرطوبة كانت مرتفعة. لكن ما كادت الليلة الأولى تنقضي، وتأتي الليلة التالية، «حتى تلبدت الغيوم مساءً، وبدأ البرق بعد الغروب من الشمال والشمال الغربي، وسرعان ما هب نسيم عليل من ذينك الاتجاهين، لكن ما إن هب الا وتغلب على ريح قوية من الجنوب الشرقي، ثم غدا الأفق أسود يحاكي جناح الغراب في لونه، وعاد البرق يومض في جميع الآفاق وميضاً متتابعاً لا أذكر له مثيلاً، ولكن الرعد لا زال بعيداً عنا. أما الأفق في الغرب فكان حالكاً، وانعدام الضوء كان يضاهي ما يتخيله اللورد بايرون في حلمه الرهيب عن انطفاء الشمس!» هكذا كتب ريتش في مذكراته عن بداية الرحلة!

أما في الأيام التالية، ونتيجة الأمطار التي وقعت في أمكنة عديدة، فقد أصبح الجو منعشاً، الأمر الذي شجع ريتش أن يقارب بين المحطات، وان يلتفت إلى قياس الارتفاعات، وتحديد طبيعة التربة وميول الأرض. وإذا لم يكن هدفه هذه المرة التوقف طويلاً عند التلال الأثرية للتنقيب، فلم ينس أن يدوّن حتى التفاصيل الصغيرة المتعلقة بقياس الحرارة والهيئة والمسافات، وأن يسأل سكان القرى القريبة من التلال الأثرية عن معلوماتهم حول كل شيء، وأن يشتري منهم القطع الأثرية التي عثروا عليها. وكان يدفع بعض الأحيان بسخاء، ليس لقاء اللقى وحدها، بل وللتعبير عن الود أيضاً.

ولأن حجم الموكب الذي يرافقه كبير، وبعض الأحيان ثقيل الحركة، فلم يكن مضطراً أن يبقى دائماً على رأس الموكب، إذ كثيراً ما انطلق مع عدد قليل من الخيالة، قبل أن يتهيأ الآخرون للرحيل، وكان ذلك يشعره بالارتياح لأنه يخلّصه «من ضوضاء عدة لغات متباينة. فالضوضاء وصهيل الخيل ورنين أجراس البغال ونباح الكلاب، كلها من متممات المخيمات

الشرقية عادة» كما كتب في يومياته.

بعد أن تجاوز ريتش دلي عباس، وأخذ يتسلق جبال حمرين، بدأت الأمطار الغزيرة ومعها الصواعق، وقد تسببت هذه الأمطار للقافلة بالبلل والخوف، انعكست على كل من كان ضمن هذا الموكب الثقيل، خاصة وأنه لم تتخذ كافة الاستعدادات لمواجهة مثل هذا الجو «ما كنا لنشعر برهبة ذلك الظلام إلا حين يومض البرق، حيث كان يظهر لنا ساطعاً بنوره في ذلك المكان الحالك، وكنا نرى أسهم النور تصيب الأرض بين آونة وأخرى. وكان وهج البرق كلما أنار الاصقاع، يظهر لنا حارساً هندياً متكئاً على بندقية أو خيمة احتمت بها جماعة من المكارية. لقد كان المنظر من المناظر التي يعتز بها الشعراء».

ومع كل يوم يمر، وحين يأتيه القرويون بقطع النقود القديمة، أو بالحلي، وحين يشاهد قطع الفخار منثورة فوق التلال، أو مع مسايل المياه، لا يستطيع أن يقاوم الرغبة الحارقة في داخله لكي يتوقف، لأن يبحث بنفسه عن الآثار، خاصة وهو يرى ماري، وقد استعادت الكثير من العافية، ومعها ذلك الحماس الذي رافقها في رحلة سابقة، حين تشاهد الحلي الفضية والخرز الملون، فيندفع دون قدرة على المقاومة، لإجراء بعض الحفريات، فيتوقف بالقرب من كفري «على بعد نصف ميل إلى الجنوب الشرقي من كفري، وفي قاع المسيل، معالم جدران واطئة، أو أسس جدران كشفت عنها الأمطار التي هطلت أخيراً. وجدتُ في أحد الجدران قطعة من معجون المرمر المطلي المنقوش، وكنت حريصاً على الحفر كثيراً في هذه الخرائب، لأقف على حقيقة الأثر وتاريخه، وبنتيجة الحفر كشفنا عن غرفة صغيرة، أو بالأحرى عن بقاياها، وهي جدار ارتفاعه أربعة أقدام تقريباً ومدخل. فالغرفة صغيرة لا تتجاوز سعتها الاثني عشر قدماً مربعاً، والجدار مبني من أحجار جبسية غير منحوتة، واستخرجنا بعض القطع من الجبس وعليها نقوش من الورد أو نقوش عربية الطراز، وكان لون النقوش أحمر براقاً، أما لون خطوطها الأساسية فأسود»،

«واستخرج العمال عدداً من الفخارات وجاؤوا بقطع منها، وكانت من خزف خشن طلي داخلها بطلاء أسود تشبه ما عثر عليه في سلوقية وبابل تمام الشبه. ولدي سراج خزفي صغير عثر عليه هنالك، وهو يشبه الأسرجة التي يستعملها القرويون في هذه الأيام».

كان ريتش يجري هذه الحفريات بسرعة ليومين أو ثلاثة، ليتأكد، بصورة مبدئية، من أهمية الموقع، ولأية حضارة يعود، وبعد أن يدفع للمتنفذين في المنطقة بعض المبالغ، لقاء حماية الموقع، وللابلاغ عما إذا جاءت بعثات أثرية، خاصة فرنسية، للبحث والتنقيب، ثم يواصل سفره نحو السليمانية.

الرحلة تسير برضى، وما عدا تسجيل المعلومات الضرورية، وقياس الارتفاعات ودرجات الحرارة عدة مرات في اليوم الواحد، وأيضاً اتجاهات الريح، خاصة حين تهب تلك الريح الشرقية اللعينة، وما تحمله من حرارة وغبار، وأعداداً لا تحصى من البعوض، مما يولد خلافات مزعجة يتولى ميناس قمعها بكل قسوة، دون علم ريتش خوف إزعاجه. إلا أن تغيُّر المناظر، من حيث التضاريس والتربة، ثم النباتات والطيور، يجعل ماري تغرق في حالة من الانفعال اللذيذ، كما يصفه ريتش، مما دفعها لأن تكتب بعض الخواطر، ليس فقط عما شاهدته، بل وعما يعتمل في داخلها من مشاعر ورغبات، ولا تنسى أن تذكر، وإن بكلمات مقتضبة، ما يواجه ريتش من اكتشافات ومشاق، وبعض الهموم أيضاً، في عمله وعلاقاته مع رفاق الرحلة ومع الناس الذين يلتقيهم. وكانت تلك الكتابات تشي بعواطفها والحالة النفسية التي تعيشها. أما حين تلتقي بريتش في المخيم، فكانا يتبادلان الأخبار والطرائف، ولا بد من شيء عن أم ميناس، وما نتج عن إصعادها إلى التختروان أو انزالها منه.

وإذا كان ريتش قد ترك عدداً كافياً من الموظفين والحرس في بغداد لمتابعة العمل، ولموافاته بالأخبار والبريد بين فترة وأخرى، فقد حملت الجرائد التي وصلت من لندن، وكان موكب ريتش متوجهاً نحو

السليمانية، خبر وفاة ملك بريطانيا، هذا الخبر الذي وقع على ماري وقع الصاعقة، وجعلها تذرف دموعاً غزيرة، وتتذكر طفولتها والأيام السعيدة الماضية. كما جعلها تطيل التفكير بمسني العائلة، وما يمكن أن يكون قد حلّ بهم، وقد تسبب الحزن، ثم القلق، بحالة من الاحباط سيطرت عليها، وهي في ذلك الموقع، حتى تمنّت لو أنها لم تأت.

قالت وهي تشرق بالدموع:

ـ لقد حدثني قلبي، منذ البداية، أن مكروهاً سيقع، وكنت أنوي زيارة الكنيسة في بغداد وإشعال عدد من الشموع، لكن النسوة اللواتي جئن لوداعي، ثم الثرثرة والانشغالات الأخرى، جعلتني أنسى. لذلك أرجوك يا كلود أن تبعث رسولاً وبسرعة، لأن يفعل ذلك، لكي يحفظنا الله، ولراحة نفس الراحل العظيم الذي لن أنساه مدى الحياة!

لم يتأخر ريتش في أن يلبي هذه الرغبة، لتعود ماري بسرعة إلى وضع طبيعي قبل دخول السليمانية، ولئلا تستفحل الحالة السوداوية التي تستبد بها بعض الأحيان. كما قرر أن يصرف بضعة أيام إضافية يجوس خلالها، بجولات حرة، المنطقة، للترويح عن النفس، ومن أجل الحصول على معلومات أدق حول الزراعة والأصول القبلية والأمراض السارية، وما شابه ذلك من معلومات تساعده على معرفة أكمل للمنطقة وسكانها.

ومع أن الطريق الذي سلكه ريتش مذ غادر بغداد يعتبر ثانوياً، ولا يخلو من بعض الصعوبات، إلا أن المشهد الذي رأته عيناه لا يصدق وهو يقترب من السليمانية، فقد رأى ما لا يقل عن ألف من العمال يمهدون الطريق. كانوا يعملون بهمة وسرعة، وقد قدّر لباشا السليمانية هذه الالتفاتة المؤثرة، وشعر بأهمية إضافية لموقعه، وما يمثل، واعتبر أن جزءاً من هذا الاهتمام يعود لشخصه ولأسلوبه في التعامل، وكاد يبعث ميناس على جناح السرعة إلى الباشا لتقديم الشكر، لكن فكر أن خطوة مثل هذه لا تخلو من خفة، إذ يفترض أن يبعث الباشا أولاً رسولاً للترحيب، قبل أن يقدم ريتش الشكر. وهكذا أرجأ هذه المبادرة.

في اليوم التالي، ولأن العمال واصلوا اصلاح الطريق، متجاوزين موكب ريتش باتجاه بغداد، فقد اعتبر الأمر إجراء دورياً يتم تنفيذه في ربيع كل سنة، بعد انتهاء فصل الشتاء، لإصلاح ما خلّفته السيول من أضرار، فأثنى ريتش على حصافته لأنه لم يتسرع بإيفاد ميناس، إذ لو فعل للام نفسه، ومع ذلك قدر للباشا هذا العمل، وتوقيته أيضاً، فهو لا يخلو من دلالة تؤكد اهتمامه.

واصل موكب ريتش المسير، وقد التقى في إحدى مراحل الطريق بوالدة باشا السليمانية وهي في طريقها إلى بغداد للقاء داود باشا. ولم يتأخر ريتش في أن يقدم احترامه للسيدة الوالدة، وان تتناول ماري معها القهوة. صحيح أن اللقاء كان قصيراً، وكانت السيدة الكبيرة، رغم تهذيبها وحسن تصرفها، بادية القلق، مشغولة البال، وأكدت لزوجة القنصل أنها ستلتقي بها مجدداً في السليمانية، إذا لم تتأخر في بغداد، وإذا طالت زيارة سعادة القنصل للشمال، كما أكدت أن ولدها الباشا ينتظر هذه الزيارة بفارغ الصبر.

ما كادت والدة الباشا تواصل سفرها، وبعد أن غادر ريتش طوزخورماتو، وعند عبور نهر طاووق جاي، استقبله أحد ضباط محمود باشا، وبرفقته اكثر من خمسين رجلاً بطبولهم ومزاميرهم، وعبروا به النهر، وقد أبلغه الضابط أنه بتصرفه، وفي خدمته، ويمكن أن يكون دليلاً له.

خلال الأيام التالية طاف ريتش في أماكن عديدة، وتعرف على مواقع أثرية هامة، إلى أن وصل سرجنار، وهو نبع غزير بالقرب من الطريق يتدفق من خمسين عين ماء صغيرة، تؤلف جدولاً كبيراً، وكان لخرير الماء فوق الحصى وقع جميل. ونزولاً عند رغبة باشا السلمانية أقيم المخيم هناك، للاستراحة، وتمهيداً لدخول المدينة.

بعد إقامة المخيم بقليل، وردت المؤن الكثيرة العديدة الأنواع من الباشا، وقد أوفد الباشا عدداً من رجاله للبحث فيما يحتاجه القنصل أثناء إقامته في السلمانية. وبعد هذه الاستراحة، التي استمرت حتى عصر اليوم التالي، جاء من يخبر القنصل أن الباشا سيقوم بالزيارة للترحيب. كتب

ريتش في يومياته: «. . . قمت بخير الاستعدادات التي استطعت القيام بها في موقعي هذا لاستقبال محمود باشا، وبعد العصر بقليل أعلن عن قدومه. كان منظر موكبه بدائياً مفرحاً. لقد كان وحده ممتطياً جواداً، ولما كان رجلاً صغير الجسم جداً فقد كاد يخفى عن الانظار لجمهور من الأكراد الطويلي القامة، وقد ارتدوا ملابس ألوانها ألوان قوس قزح كلها، وردي وأصفر وقرمزي، وكانت هذه الألوان هي الغالبة في شراشيب أغطية رؤوسهم، وكان الموكب صامتاً، ووقع أقدامهم يسمع من بعيد. وعندما أدى حرسي التحية ردها الباشا بوضع يده فوق صدره بوقار عظيم. وقد أرسلت عرفائي للقياه، وخرجت شخصياً بعيداً عن باب الخيمة لاستقباله. وما أن رآني حتى ترجل بين هتاف عرفائه، فصافحني بكلتا يديه، ودخلنا الخيمة وجلسنا سوية على بساط أحضرته خصيصاً لهذه المناسبة. وقد تمكنت بصعوبة من اقناعه بأن يتخذ جلسة مريحة، إذ كان مصراً على أن يتجشم صعوبة الجلوس ليظهر الاحترام الزائد» «وبعد أن سلمته رسالة باشا بغداد، ولما كانت رسالة رقيقة جداً فقد عنيت العناية كلها بتسليمها على مشهد من حاشيته وملازميه، وقد ظهر لي أنه أدرك اهتمامي، وقد تكلم عن حالة البلاد، مبدياً لي الصعوبات التي يكابدها بسبب وضعه على حدود سلطتين متنافستين، لا تنفك الأولى عن اضطهاده في طلب الجزيات والضرائب، والثانية، وهي السلطة المنقاد إليها حكماً، أي سلطة الاتراك، الذين كانوا يلحفون عليه أن لا يخدم الايرانيين».

«. . . ولم يكن لمحمود باشا ما يميزه في شخصيته وحديثه، ذلك أنه رجل بسيط رشيد، وهو في الوقت ذاته رقيق الحاشية دمث الطبع، ويقال إن اخلاقه الفردية كاملة لا شائبة فيها! وذلك أمر لم يكن من الأمور الاعتيادية بين الأكراد» «وأردف الباشا زيارته بهدية كبيرة من الأغنام والمؤن الأخرى لجميع حاشيتي، إلا أنني معتزم أن أضع حداً لذلك، حالما ينتهي استقبالي الرسمي».

بعد أن غادر الباشا، نُقل ريتش الى مخيم جديد، على مشارف

السليمانية، وكان من المفترض أن يواصل سيره ليدخل إلى المدينة، إلا إن رجال الباشا طلبوا بإلحاح شديد التريث، وقد فُسر الأمر بضرورة زيادة الاستعداد ليكون الاحتفال بدخوله كبيراً ولائقاً، مما جعل ماري، رغم القلق والحزن، تطير فرحاً، وقد عبَّرت عن ذلك بكثير من الانفعال:

ـ الناس هنا شديدو الأدب والتهذيب، إذ ينظرون إلى الغريب أو الضيف، بطريقة مختلفة عن أهل بغداد، فالودُّ هنا ينبع من العيون، والكرم يزيد عن الحد المعقول، كأنهم بهذه الطريقة يعبِّرون، دون كلمات، عما يكنُّونه من عواطف.

ريتش الذي وافقها الرأي، أضاف كأنه يحدث نفسه:

ـ ولديهم القدرة على التمييز بين الأعداء والأصدقاء، وفي جلسة الباشا أمس دليل يؤكد ذلك!

ونام ريتش تلك الليلة وهو يشعر بنشوة، لأن القتامة التي طوَّقته في بغداد، بعد حملة الفرات الأوسط، يجد نقيضها في الشمال. لقد بدا الباشا أكثر تفهماً وانفتاحاً، فهو غير واقع في دائرة الهوس المجنون الذي خلقه داود؛ وليس أقل من ذلك الزيارة المؤثرة، حيث جاء بنفسه ليقدم تحياته وترحيبه، وليقول بوضوح إن بريطانيا العظمى لا يضيرها فيما لو تصرف باشا بغداد بتلك الطريقة.

في صباح اليوم التالي، وحين سمع ريتش أصوات الطبول القادمة، ثم رأى بمنظاره المقرّب الحشود التي تزحف باتجاه استراحته قبل دخول السليمانية، ووصول رسل متعاقبين من قبل الباشا يطلبون إليه، بخشوع أقرب إلى الذل، أن يتهيأ بسرعة لدخول المدينة، فقد أحس أن باشا هذه المنطقة يعرف اللياقة وكيفية التصرف، وأحس بأهمية مضاعفة للمنصب الذي يشغله. ولم يتأخر في الاستعداد، خاصة وأن الحشود تقترب، ومعها بالإضافة إلى أصوات الطبول المزامير والفرسان، وذلك الفرح الذي يندلع من العيون والقلوب معاً.

ماري، التي تأكدت من حسن قيافته، ومن أنه يضع في خنصر يده

اليمنى الخاتم الذي قدَّمته إليه هدية في فترة خطوبتهما، قالت بانفعال، وهي تودعه، لأن العادات المتبعة أن يدخل المدينة دون اصطحابها:

ـ سوف يكتب التاريخ انك أول قنصل أوروبي يدخل الى هذه المنطقة باحتفال الملوك!

قالت الكلمة الأخيرة بطريقة لذيذة، هكذا قال ريتش لنفسه، وهو يقبلها بسرعة ليلتحق بموكب الرجال.

ظلت النشوة تسيطر على ريتش طوال الطريق، ثم وهو يدخل المدينة، وأثناء لقاء الباشا، وأثناء حفلة الغداء الرسمية التي أقيمت له، وبعد ذلك، وهو يتناول القهوة، ثم بعد أن ودعه الباشا، «لينال قسطاً من الراحة، بعد هذه المشقة». وقد رافقه الحرس الخاص للباشا حتى المنزل الذي خصص له في السليمانية. أما بعد أن ودَّع الذين رافقوه، واستدعى ميناس، لكي يأخذ «النشرة اليومية للناس» كما تعود أن يسمي هذه اللقاءات، خاصة أثناء السفر، فقد سمع، ولم يسمع، كلمات قالها ميناس، وكان ينقل اليه ما سمعه أو نقل إليه عن الموكب، وما قاله الكثيرون، وكيف كان وقع كل ذلك على الجميع، حتى الذين سمعوا بوصول موكب قنصل بريطانيا إلى السليمانية، دون أن يروه.

قال له ميناس، بكلمات سريعة:

ـ لقد أخّر الباشا دخول موكب سعادة القنصل، لأن المنجمين هم الذين حددوا الوقت والساعة التي يحسن أن تكون لحظة الوصول.

وخلافاً لعادته، لم يتوقف ريتش، ولم يستوضح عن سبب تأخيره في دخول المدينة، ولم يسأل عما قاله المنجمون.

أما في الليل المتأخر، وحين تبادل ريتش وماري الأخبار والملاحظات عما جرى لكل منهما أثناء الاستقبال والحفلات التي جرت، فلم يشأ أن يتوقف عند الملاحظة التي قالها له منياس، قال بطريقة غامضة:

ـ هذا الشرق مليء بالعجائب، وقد يقضي الإنسان عمره كله دون أن يستوعب ما يجري في عقول هؤلاء البشر!

125

كان استقبال محمود باشا لريتش حافلاً، إذ بالإضافة إلى وجود عدد من أقربائه ومساعديه، فإن الحديث كان ودياً، وقد تركز في القسم الأكبر منه على العشائر والأسر الحاكمة، والعلاقة بين القبائل واللهجات، إضافة إلى الطقس. وحين تلفت ريتش في أنحاء البهو الكبير، وتأمّل الزخرفة الجميلة، لكن الحائلة اللون، أوضح الباشا:

ـ الوالد، رحمه الله، هو الذي أشرف على البناء، وأمر بهذه الزخرفة، التي تحتاج الآن إلى التجديد والترميم، وكان يمكن أن أعتني بذلك، لكن. . .

ابتسم بحزن، وأضاف بلهجة تتسم بالألم:

ـ لكن من ذا الذي يرمم شيئاً وهو غير متأكد من استمتاعه به؟ قد يقوضه، فجأة، الأتراك أو الإيرانيون بعد أيام معدودات!

لم يشأ ريتش أن يخوض في هذا الموضوع الآن، إذ استمر في الاستفسار حول الأسر، خاصة الأسرة البابانية، وقدَّم الباشا ورجاله إيضاحات كثيرة، لا يخلو بعضها من التشويش. أما حين غادر ريتش القصر فقد وجد جواداً جميلاً عليه عدة مزركشة جميلة مهيأ له كهدية، «فلم أستطع إلا القبول» كما دوّن باختصار في يومياته.

ورغم أن البيت الذي أعدّ لريتش يولّد الكآبة في النفس، وقد ظهر عليه ذلك، إلا أنه رفض بإصرار تغييره «لأن الفرق بين المساكن في المدينة لا بد أن يكون ضئيلاً على كل حال» وقد شعر أن إصراره على البقاء «قوبل بارتياح

عام»، «وحالما وصلت الامتعة نصبت خيمة بعمودين فجعلتها ديواناً أو غرفة استقبال، وبعد أن زودتها بأسلحتي وفرشتها بسجادة جميلة، ومدات تلطف الباشا بإرسالها إلي، أصبحت غرفة استقبال غربية لا يزدرى بمظهرها، بل أصبحت أحسن من أية غرفة في المدينة. ونصب السباهيون خيامهم في ساحة الدار».

وبدءاً من اليوم التالي، ومن أجل إدخال المتعة لقلب ريتش ومرافقيه، بدأ المضيفون يتفنون في إقامة الاحتفالات لسباقات الخيل وعراك الحجل والكباش والكلاب. وإذا كان ريتش قد رأى في بغداد، وأماكن أخرى، عدداً من هذه السباقات، فإن أكثر ما لفت نظره عراك الحجل، ثم الكلاب.

لقد وصف لماري مشهد عراك الحجل، حين رآه أول مرة، ثم كتب هذا الوصف في يومياته: «تقدمت مجموعة من الأكراد الأقوياء تحمل على اكتافها اثنين وثلاثين قفصاً، في كل قفص حجل فحل، وقد أثارت أصوات هذه الطيور الاجماعية المتواصلة ضجة غريبة أشبه بأصوات دقات ألف ساعة جسيمة، ولم يخلدوا إلى الصمت لحظة إلا عند العراك، وأعقب الأقفاص جماعة من المتهوسين، وكلهم شوق لمشاهدة المنظر. ولو لم أوعز بغلق الأبواب لأوفر الأذى على من لا يقف عند حده إلا بضربه بالهراوات والعصي، لاندفع إلى داخل الدار كثير غيرهم. ثم صفت الأقفاص على شكل دائرة، ووقف المشاهدون من ورائها، وأنا ومصرف وأولاده نتمم المحيط عند الخيمة، وكان المنظر جديراً بالرسم، إلا أن ذلك كان مستحيلاً علي، إن لم أره عدة مرات لتتكون عندي فكرة لوضع خطوط الرسم الأساسية.

«فتح أحد المعاونين باب أحد الأقفاص وأطلق أحد الطيور، فانتفض هذا في الهواء كالمتحدي، ثم شرع يتبختر بانتظار غريمه. وبعد أن أفرج عن الطير الثاني بدأ العراك، وكان المنظر مؤنساً، لم يكن فيه أية قسوة مطلقاً. وكان من المبهج جداً رؤية هذه الطيور الصغيرة تتبختر على رؤوس

أصابعها متحدية، تقفز وتنقر بعضها بعضاً، وتتحايل لتنال ممسكاً ملائماً، وتتحاذر الوقوع بما لا تريد. وقد لاحظت أن البراعة كلها كانت في نوال الغريم من قفا رقبته، فإذا نال الطير غريمه على ذلك النحو تمسَّك به كالكلب الأفطس، وقد يدور به أحياناً مرتين أو ثلاث مرات حول الدائرة، وقد يرتاع أحد الغريمين أحياناً فيهرب خارج ساحة العراك، وعندئذٍ ترجح الكفة وينتهي النضال بينهما حقاً، أما الطير المغلوب فلا يعود ميالاً إلى عراك آخر قبل مضي شهرين أو ثلاثة أشهر. ولكل طير من الطيور اسمه. أما أجنحتها فلا تقص. وهذه الطيور مروضة إلى حد لا تمانع في مسكها. وإذا انتهى العراك تراها ترجع إلى أقفاصها من تلقاء نفسها، ولا تتنافر مطلقاً، ولا تهجم إلا للسعي وراء مسك الغريم».

هذا النوع من العراك ولّد مشاعر متناقضة لدى ريتش، فقد أحبه، واعتبره شيئاً صبيانياً في نفس الوقت. أما وهو يرى عراك الكلاب، فقد قال له أحد مضيفيه:

ـ إنك أول انكليزي رأيناه هنا، وإنك ستكون مدار حديث أحفادنا، وإننا لمغتبطون بوجودك بيننا في هذا الاحتفال.

ورغم المشاعر المتناقضة، وهو يرى حفلات عراك الحجل تتكرر مرة بعد أخرى، فقد كان حريصاً على أن يستكمل المعلومات حول طريقة القبض على الحجل ثم تدريبه. قيل له يجب أن يتم اصطياد الحجل من العش، وأن يدرب من قبل محترفين، ولا بد أن يجوّع يوم العراك، أما أيام الصيف فيلزم أخذه إلى الجبال.. وإلا ضاعت مزايا هذه الطيور.

ولما كان ريتش قد أبدى حرصاً بالغاً لمعرفة كل شيء، فلم يتأخر في زيارة عدد من حمامات المدينة، فاكتشف أن واحداً منها يضاهي ما رآه في القاهرة وحلب ودمشق، ولم يشاهد مثله في بغداد!

وفي إطار هذا الحرص، ومن أجل استمرار الحوار، فقد كان مضطراً للإجابة على الأسئلة التي تطرح عليه، وكان أكثرها يوجه من قبل الباشا محمود وأحد مساعديه عثمان آغا. كانت الأسئلة حول انكلترا وفرنسا

وروسيا، وعن مراسيم البلاط الانكليزي والجيش. ومن عادة الباشا أن يتوقف عند القضايا الطريفة، كأن يسأل عن وجود القبائل في انكلترا؛ وما إذا كان أحد غيره من الانكليز يعرف العربية والتركية، وحول دور النساء، وما إذا كان لهن تأثير أو أهمية. أما عثمان آغا فقد سأل عن تفاصيل معركة واترلو، وربما سمع بأخبارها من الإيرانيين، وإن لم يتذكر اسمها. وسمع أيضاً عن بونابارت، أو كما سماه: الامبراطول. ثم جاء على ذكر الصين، وقد عجب لأن لبريطانيا قنصلاً هناك. ونفس الأسئلة التي وجهها عثمان آغا وجهها آخرون، ولا بد أن يكون قد جرى تداولها فيما بينهم، إذ سألوها من جديد ليتأكدوا ما إذا كانت الاجابات التي نقلت إليهم واضحة، وهي ذاتها!

أما هندستان فكانت تشغل بال عدد منهم، وقد سأل عثمان آغا كيف أن فتوحات بريطانيا تتوسع سنة بعد سنة هناك. وريتش الذي استفاض في شرح الأمر، قال في إحدى الليالي، عندما وجه إليه ذلك السؤال:

- إن فتوحات بريطانيا في الهند، إنما ترجع إلى أن الأروبيين الذين فتحوا تلك الأصقاع تغلّبت عليهم بريطانيا، كما أن قسماً آخر من الهند سُلّم من قبل الهنود أنفسهم، كما اشترت بريطانيا بعض الأقسام، ثم إن المعاهدات التي أبرمت مع أهل البلاد، لقاء الخدمات والمنافع، أعطت بريطانيا المزيد من الأراضي والاحترام!

وحين بدا الأمر واضحاً وغير واضح بنفس المقدار، أضاف ريتش شارحاً:

- ان الانكليز مسالمون بالطبع حيال من هم على غرارهم، وهم أيضاً شعب لا يخضع لإرادة الغير، وأن ضرورة الدفاع عن حقوقنا، وصيانة شرفنا، كثيراً ما أدت بنا إلى الحروب، وكان الله وله الحمد، في عوننا، ولم نكن في أي من هذه الفتوحات البادئين في العدوان.

وغالباً ما تتشعب الأحاديث بعد ذلك، إذ كان يروق للكثيرين أن يسألوا كيف تم اختراع البندقية، وكيف أن المسدس الصغير قادر على قتل ثور

كبير؛ وكانوا يسألون عن المناظير المقربة، وهل يستطيع الإنسان في يوم من الأيام أن يخترع مناظير تمكّن من رؤية ما تحت الأرض، ومعرفة أين توجد الكنوز؟ وهل يستطاع معرفة ما يمكن أن يحدث غداً، أو محادثة الموتى؟ وإذا حصل شيء مثل هذا، فهل يبطل عمل المنجمين؟

كان الأغوات يسألون عن هذه الأمور العلمية الدقيقة، وينصتون بانتباه لكل ما يقوله ريتش، ولا يترددون في طلب المزيد من الايضاحات! أما عندما جرى الحديث عن المناطيد، فقد اعتبر الكثيرون أن الأمر تعدٍ على إرادة الله، وانه لا يليق بالإنسان أن يفعل ذلك، لأن الأرض إذا سُخّرت للإنسان، وكذا المياه، وكل ما هو على الأرض، فإن السماء من اختصاص الله وحده، وعلى الإنسان أن يبقى قانعاً ومتواضعاً، فلا يفكر بأكثر من ذلك، وإلا فإن السخط ينتظر البشر جميعاً، وإلا كيف نفسر أن شعوباً كثيرة أبيدت من قبل، ولم يبق أحد من أفرادها، مع أن آثار أولئك الناس ما زالت باقية؟ ألا تكفي هذه عبرة لكل من يعتبر؟

وريتش الذي كان يروق له أن يخوض في مثل هذه الموضوعات، وكان يفيض في الشرح والتوضيح، يعتبر أن الثقة، ثم التبسّط، وبعض الأحيان الأمثلة الملموسة، من شأنها أن تزيل جميع العوائق، وأن تولّد ثقة متزايدة، وهذا ما جعله أكثر معرفة ودراية بأمور عديدة، بما في ذلك أسعار المحاصيل، وكيفية قطع الأخشاب وارسالها إلى بغداد، إضافة إلى طبيعة العلاقة بين الرجال والنساء، خاصة الرجل وزوجته.

ما كادت بضعة أسابيع تمر على إقامته في السليمانية حتى عرف ريتش أن أم محمود باشا قابلت داود باشا، وكان استقبالها رائعاً وإيجابياً، ومن المحتمل أن يوافق على الاقتراحات التي تقدمت بها، فضاً للنزاعات التي كانت تقع بين أفراد الأسرة البابانية، كما وعد أن يسلّم حسن بك إلى محمود باشا، ليؤكّد أنه لا يلتزم أحداً من أفراد الأسرة في مواجهة الآخرين، مع أن حسن بك التحق ببغداد قبل فترة ليست قصيرة، احتجاجاً على سلوك الآغا عليوي حين كان القائد العسكري في الشمال، وأراد أن

يدفع محمود باشا للارتباط بكرمنشاه.

هذه الأخبار والمعلومات من داخل الأسرة، ما كانت لتصل إلى ريتش لولا الثقة التي محضها له بعض المقربين من محمود باشا، ولأن هذه المعلومات أصبحت تحت يديه، لا بد أن يقيم اساساً الخطة التي سيتبعها في مواجهة داود، والأفضل أن لا يندفع ويلجأ إلى التحريض الآن، كما أن من الأفضل الابتعاد عن النزاعات المباشرة، وربما الأحقاد، التي دفعت الأخوة لمعاداة بعضهم.

أكثر من ذلك، وكي يبدو أنه لم يأت لهدف أو غرض سياسي، لا بد أن يواصل الحديث عن التاريخ واللهجات والقبائل، وأن يحضر عراك الحجل. ومن المفيد أيضاً أن يخلق اهتمامات وألعاباً لا يعرفونها، وهذا ما دعاه، وهو يتحدث عن تاريخ المنطقة، وحين عرف أن هناك مخطوطات تتناول هذا التاريخ أن يطلب بإلحاح الاطلاع عليها، ويفضل أكثر من ذلك لو يحصل على هذه المخطوطات. والباشا الذي وعد ببذل جهد كبير من أجل تجميع الكتب التي تتناول هذه الموضوعات، وعد أن يقدم هدية لريتش كتاباً قديماً حول تاريخ الأكراد. وعثمان آغا، أكد أن لديه كتاباً تاريخياً هاماً، لكن لا يعرف أين أصبح، ولا بد أن يجده، وسوف يطلع ريتش عليه!

أما لعبة المبارزة بالسيف التي اتقنها ريتش في وقت سابق، فقد أصبحت رغبة عدد غير قليل من الأغوات، لو يتكرم القنصل أن يعلمهم أصولها، إذ قد تصبح لعبة الشمال كله، خاصة وأن سكان الجبال يعتبرون السيف أول سلاح منّ به الله على عبيده، لذلك فهو سلاح مقدس، ويجدر بالإنسان مهما تقدم، الا يتخلى عنه. وتأكيداً لهذا الاعتزاز والتعلق أقيمت لريتش عدة سباقات لقطع اللباد بالسيوف، وقد شارك في هذه السباقات خيرة سيّافي المنطقة من حيث البراعة والقوة.

ومثلما السيف يستثير خيال الاكراد، فإن الرماية بالبنادق لا تقل أهمية، وقد أقام الباشا لضيفه عدة سباقات للرماية، وكان عثمان آغا أمهر الرماة،

وقد سجل ريتش في يومياته متسائلاً ما إذا كان عثمان آغا أحسن الرماة فعلاً، أم أن الآخرين أفسحوا له المجال لكي يبدو كذلك؟ وأشار أيضاً: «إن الرماية، ومدى المهارة فيها، تتناسب مع الموقع الذي يشغله الإنسان، وبمدى قرابته مع الباشا!»

عثمان آغا الذي أصبح أكثر قرباً من ريتش، كان يريد شهادة منه أنه أحسن الرماة! كما رغب أن يعلّمه المبارزة بالسيف، ورمي الهدف بالمسدس، إلا أن ارتفاع الحرارة، وتلك الرياح الشرقية اللافحة جعلت ريتش يحس بالتعب الأقرب إلى التوعك، مما اضطره إلى إرجاء الاستجابة لمثل هذه الرغبات.

وبحدس فطري، وفي محاولة لأن يدخل عثمان السرور إلى قلب ريتش، أخذ يحدثه ويفيض عن الآثار الموجودة في هذه الأنحاء، وعن المخطوطات التي يمكن الظفر بها في البيوت أو في المساجد، وانه سيتولى تجميعها. ولأن ريتش بدا ضيق الصدر من غبار الخماسين ورياحها، وما تجلبه من البعوض والحرارة واعتكار المزاج، فقد أقام عثمان آغا حفلاً موسيقياً غنائياً، جلب إليه عدداً من المغنين. كتب ريتش عن تلك الأمسية في يومياته: «كانت الألحان حزينة رتيبة، ومملة أيضاً، وكانت أحسن الألحان أغنية اسمها ليلى جان، أما حين غنى قائد الجوق الموسيقي أبياتاً من الشعر، فكان يصل بين شطري البيت الواحد بنحيب وينهيه بشهيق، أما الأغنية ذاتها فكانت كمثل العويل تماماً، وليس فيها شيء من الفرح».

ولا ينقضي يوم دون أن يحصل جديد، فإذا لم يُقم احتفال أو سباق، كان ريتش يقوم بجولات في الأسواق، وفي المناطق المجاورة للسليمانية، وخلال تلك الجولات يسأل ويدون المعلومات، وبعض الكلمات الجديدة. يسأل عن الأسعار والمواسم وأجور النقل، وما يستحق للفلاح حين يعمل في أرض الآغا، ويسأل عن مواسم البذار والحصاد ومواعيد جني الثمار. كما يدقق في المعلومات التي حصل عليها سابقاً، خاصة عن العشائر والقرابات والمصاهرات، وكان يتذكر مساعده هايني، وكثيراً ما

كان يبتسم وهو يدقق في كلمات بعض الأغاني، ويقول في نفسه: «من الصعب اتخاذ مواقف سياسية صائبة دون معرفة ردود الفعل لدى الناس الذين تعنيهم هذه المواقف. أما ردود الفعل فتعتمد على العقل، والعقل نفسه يستند إلى مجموعة كبيرة من العادات والأساليب وطريقة التفكير... وهذه ما يجب معرفتها».

في اليوم الأخير من أيار جاء الباشا بزيارة لريتش، وقد بدا في حالة من التألق، إذ وصلته الأخبار من بغداد أن رستم أفندي، أو الريح السوداء، كما سماه محمود باشا، سوف يصل في اليوم التالي، وسيكون معه هديتان: الخلعة التي بعثها إليه داود باشا، والآبق حسن بعد أن تخلى عنه باشا بغداد.

كانت فرصة لان يخوض ريتش في الأمور السياسية، فعل ذلك على شكل أسئلة أو تعليقات قصيرة، إذ لا يريد التدخل في قضايا شائكة قبل أن يعرف رد فعل الباشا تجاه أخيه، وأيضاً تجاه دفتردار بغداد السابق، رسول داود باشا، رستم أفندي. وقد استطاع ريتش الالمام من خلال الأحاديث السريعة، ومن بعض الإجابات المتحفظة، أن الباشا شديد الحذر تجاه بغداد، فهو لا يستطيع أن يعاديها، خوفاً من بطش داود، وامكانية أن يحرك عليه عدداً من أفراد الأسرة. كما لا يستطيع أن يعادي كرمنشاه التي يهدد حاكمها بأخذ رهينة ثمينة: ابن محمود باشا!

قال الباشا لريتش الذي يحاصره بالأسئلة:

ـ أريد أن أراك كثيراً. وأريد منك وعداً: أن تأتي لزيارتي كل سنة.

ولما رأى ريتش يبتسم ويهز رأسه، دون أن يعني ذلك موافقة، أضاف بانفعال:

ـ إذا وعدتني بالمجيء كل سنة فسوف ابني لك هنا داراً أجمل من كل دور السليمانية!

وكطريقة غير مباشرة للاعتذار قال ريتش أنه سيفكر بالأمر.

أما حين وصل رستم أفندي في صباح اليوم التالي، وقد دخل

السليمانية دخولاً رسمياً، ومع حسن بك، فقد خرج الباشا من المدينة مسافة ميل لكي يستقبله، باعتباره ممثلاً لداود باشا. وحين ذهب ريتش في اليوم التالي لتهنئة الباشا بالخلعة، وجد لديه حسن بك، الذي بدا في وضع طبيعي. ومن خلال الأحاديث المتفرقة والمتباعدة، ذُكر أن الام، حين توسطت من أجل حل الخلاف مع الشمال، وبين أفراد الأسرة البابانية، اقسم داود باشا بالله وبراس ابنه يوسف أنه لمحمود كالوالد لولده، وأنه يحبه ويقدره، كما ينوي أن يحافظ على وضعه ومصالحه!

ولم ينس ريتش أن يقوم بزيارة رستم أفندي للترحيب، وان لم تستمر الزيارة أكثر من الوقت الذي يستغرقه تدخين الغليون وشرب القهوة، كما لم ينس أن يطلب منه إبلاغ الوالي احترامه وتحياته!

ومع زيادة الحرارة، بدا أن جو السليمانية لا يلائم ريتش، بل أكثر من ذلك بدأت تعاوده نوبات الحمى، نتيجة إصابة مبكرة بالملاريا، الأمر الذي اضطره إلى ملازمة الدار وقتاً غير قصير. وفي هذه الفترة اتيحت له الفرصة أن يقضي وقتاً أطول مع ماري، التي أخذت تضيق بتلك الزيارات النسائية، وبتكرار الإجابة على أسئلة بذاتها، خاصة فيما يتعلق بالانجاب. كما أن أم منياس التي حرصت على مرافقة زوجة القنصل في زياراتها خلال الفترة الأولى، أو أثناء استقبال الزائرات اللواتي دفعهن الفضول لرؤية امرأة أجنبية، فقد تعرفت على عدد من العائلات المسيحية في المدينة، مما جعلها تتباطأ في مرافقة ماري، أو تعتذر بالمرض، وأن تقضي وقتاً طويلاً خارج البيت.

أما وهيبة التي كانت ترافق سيدتها، دون أن تعرف كلمة من اللغتين التركية أو العربية، وكانت تبقى في كل لقاء صامتة وحزينة معاً، جعل ماري لا تتحمس لاصطحابها، مفضلة عليها عدة نسوة طلب الباشا أن يكنّ في خدمتها.

خلال بقاء وهيبة في الدار، ولأن فاكهة الصيف تتنوع ولا تنتهي، وكانت تصل إلى ريتش بكميات وفيرة، وتسلّم إلى رئيس الحرس، مهاد

غلامي، كان رئيس الحرس يسلمها بدوره إلى المسؤول عن المطبخ، لكن في الدخول والخروج كان يصطدم بوهيبة، وهكذا اصبحت حبات الفاكهة فراشات تنقل الرائحة الزكية، واللذة وبعض الكلمات، إلى أن تحولت، مع ساعات الصباح المبكرة، ثم خلال كل النهار، وفي قسم من الليل إلى رسائل عشق لم تتأخر وهيبة في استلامها، ثم الرد عليها، بحيث لم تمض أسابيع قليلة حتى تحولت هذه الرسائل إلى حب جارف، وكانت أم ميناس أول من اكتشف هذا الحب. قالت في أحد العصاري لوهيبة بنوع من التساؤل الذي لا يخلو من تأنيب، وبإنكليزية تشبه الوقوقة:

ـ مهاذ غلامي راح يخرب شغل أيام وليالي إذا ما درتِ بالك.

ولما ظلت وهيبة صامتة، وتنظر إلى حيث تشير أم منياس، أضافت المرأة المجربة:

ـ زوجة القنصل تحرق الدنيا إذا أحد طخّ الشرف!

قالت ذلك، وهي تنظر إلى الخطوات المضطربة لمهاد الذي كان يحمل الفواكه ويدخل بها إلى المطبخ، لكن عينيه لا تفارقان وهيبة، وكان يصطدم بالجدران، بالأبواب، مدعياً أن الحمل ثقيل، في الوقت الذي لا ينظر إلى الطريق!

ولم تتأخر وهيبة في الاعتراف انها تعلقت برئيس الحرس. ولم تتأخر أم ميناس في نقل ما رأت وما قدرت أنه الصحيح إلى زوجة القنصل. وماري التي فرحت وتهللت لم تتأخر بنقل ما قيل لها لريتش. ولم يتأخر ريتش في أن يسأل الاثنين، وهيبة أولاً، ثم مهاد غلامي، فيما إذا كانا يحبان بعضهما، وأن هذا الحب يمكن أن يفضي إلى الزواج.

وهيبة قالت انها لا تعرف كيف تفسر عواطفها. قالت ان مهاد رجل شهم، يحب الآخرين وقد لمست هذا الشيء بنفسها. وقالت انه قوي وشجاع، لكن صوته، وهو يصرخ على الجنود السباهيين، يثير الخوف. أما وهو ينقل الخضار والفواكه فيصبح شخصاً آخر، لا تعرف كيف!

حين سأل ريتش مهاد غلامي عن علاقته بوهيبة، كان أكثر صراحة،

قال، وهو يلتفت، لئلا يسمعه أحد:

ـ لو كان الأمر هناك لعرفت كيف أتصرف، أما هنا فلا أعرف ماذا أفعل أو ماذا أقول!

وحين استسفر ريتش أكثر من ذلك، رد مهاد بحيرة:

ـ في الأماكن البعيدة والغريبة يفقد الإنسان قدرته على التصرف، يصبح محتاراً وعاجزاً، ولذلك أترك لك، يا مستر ريتش أن تتصرف.

وقبل أن ينتهي حزيران أقيم حفل كبير في السليمانية: زواج وهيبة من مهاد غلامي. وقد عقد هذا الزواج الشيخ خالد وباركه الباشا، إذ بعث عشرة رؤوس من الخراف هدية زواج، إضافة إلى مجموعة أزياء للعروسين، وأهدى مهاد ثلاثة أزواج من الحجل، وقال سعدو الذي قدمها:

ـ ديك الحجل مثل ديك الدجاج، والباشا يريد أن تكون قوياً وأن تخلّف كثيراً!

أما ريتش فقد منح مهاد غلامي رتبة إضافية، وقدم له مسدساً، قال له وهو يقدم المسدس:

ـ أرواحنا بين يديك، وحياتنا، ماري وأنا، بين يدي وهيبة، فإذا كنت أقدم إليك هذا المسدس عنواناً للثقة، وشعوراً أن حياتي اليوم أكثر أمناً، فإن وهيبة تعرف كيف تشيع الرقّة والحنان على كل من حولها!

126

. . . والأماكن تدفع الضرائب. . أيضاً!

فمن يُقدَّر عليه أن يعيش في أماكن معينة يجب أن يتحمل نتائجها، وأن يشارك في دفع الضرائب المترتبة عليها، سواء في مواجهة الطقس أو تجاه الجوار.

فالسليمانية خلال فصل الصيف يسود الهدوء جوها عند الفجر، لكن ما أن ترتفع الشمس فوق التلال، حتى تهب ريح تظل خفيفة إلى الظهر، أما بعد ذلك، وحتى الغروب، فتتحول هذه الريح لتصبح قوية، ويكون اتجاهها غربياً. فإذا أتت الريح من ناحية الشرق، وعادة تأتي في الليل، وغالباً ما تختلط برياح آتية من ناحية الشمال، فتحمل معها الحرارة اللافحة والبعوض، كما تحرك الحشرات والزواحف، وتكون شديدة السرعة معظم الأحيان، فتترك آثارها في الجسد والروح. أما إذا أصبحت الريح شرقية تماماً، فعندئذٍ يتشاءم الكثيرون، وتخرج من أفواههم كلمة واحدة، أقرب إلى الشتيمة: الشرقي.

هكذا يكون الطقس في السليمانية خلال أيام وليال كثيرة. ولو اقتصر الأمر على الطقس وحده لعرف الإنسان كيف يتعامل معه. يمكن أن يهرب منه إلى الجبال العالية خلال شهري تموز وآب؛ يمكن أن يحتال عليه بوسائل ابتكرها الأجداد وطورها الأحفاد؛ ويمكن أن يتحمل هذا الطقس ويتعود عليه كضريبة للمكان. أما أن يترافق هذا الطقس بتلك الحالة من الريبة والانتظار، لأن مكروهاً لا بد أن يقع، فلا يمكن التعامل مع هذه

الحالة بسهولة، أو الاحتيال عليها في كل الأوقات. إنها ضريبة القدر، أو هكذا تحولت بمرور الأيام، ولا بدّ عندئذ من وجود الكثير من العقل والشجاعة، أو ربما ابتكار حلول هي بين العبقرية والجنون!

محمود باشا حصيلة هذا المكان، وتجسيد له. فمنذ أن كان صغيراً، أخذ رهينة لكرمنشاه، ليبقى عند الشاهزاده، ضمانة لاستمرار ولاء أبيه. أما بعد أن أصبح باشا السليمانية فأخذ يواجه المصاعب والتحديات، والتي تشبه المآسي، من البعيد والقريب. وإذا كان قادراً على فهم مطالب بغداد، وما تحاول فرضه كرمنشاه، فإن أكثر ما يؤرقه هذا الذي يحصل داخل الأسرة بالذات، وآخر هذه المآسي: أخوه حسن. إذ بعد أن التحق ببغداد، تعبيراً عن موقف مناوىء للآغا عليوي، أصبح طامحاً ومطالباً أن يكون باشا السليمانية، «لأن محمود من الضعف إلى درجة يعجز عن الوقوف في وجه كرمنشاه» كما أخذ يعلن. وقد استفاد الوالي داود من نزاع الأخوة، فأغدق على حسن، وجعله قريباً منه، وأخذ يلوح به كباشا محتمل إذا لم يستجب محمود لما يريد.

أما بعد أن ذهبت ناظرة خاتون، الوالدة، إلى بغداد، ولما يكنّه داود لزوجها، عبد الرحمن باشا، من الود والاعتراف بالجميل، حين كان في الشمال، والمساعدات التي قدمها له، فقد وافق داود على الاقتراحات التي قُدّمت كتسوية، وبعد أن أخذ العهد أن لا يؤذى حسن، وأن يُدفع ما يستحق على الشمال، عاد الأخ المتمرد معتذراً وراضياً أن يكون تحت لواء أخيه، محمود باشا.

كان يمكن بطي هذه الصفحة، أن تبدأ مرحلة جديدة من الصفاء وهدوء البال، خاصة بعد أن انتهى النزاع السابق داخل الأسرة، بالاتفاق الذي جرى، بحضور مولانا الشيخ خالد، بين محمود وعمه عبد الله، وبين محمود وأخويه، عثمان وسليمان، وقد أقسم الجميع على السيف والقرآن، وبالطلاق أيضاً، أن يعترفوا بباشوية محمود أولاً، وأن يؤازر بعضهم بعضاً ما داموا أحياء؛ كما اتفقوا أن لا يتخذ أي موقف إلا بعد

التشاور. أما الرسائل التي تأتي من كرمنشاه لأي واحد منهم، أو حتى من بغداد، فلا تفتح إلا بحضورهم جميعاً، وفي دار الشيخ خالد.

بعودة حسن افترض الجميع أن عهداً جديداً قد بدأ، إذ تبادل أفراد الأسرة الزيارات وتبادلوا الهدايا. كما أن الذين ناصروا أحد أفراد الأسرة، وعادوا الآخرين، تنازلوا عن عداواتهم، ولاموا أنفسهم كثيراً لأنهم تصرفوا بهذه الطريقة الخرقاء. وفي محاولة للتكفير عن الأخطاء السابقة، ونسيان الماضي، ولأن موسم هذه السنة كان خيّراً، فقد أقيمت ولائم أكثر من سنوات أخرى، وتبايعوا أكثر من السنوات السابقة، كما عقدت زيجات فيما بينهم ما كانت لتتم في ظل الأجواء التي سادت من قبل؛ قال الكثيرون إن فترة من الرخاء لا بد أن تعمّ الشمال كله.

إذا كان هذا قد حصل داخل أسرة الباشا، وكان موضع رضى الكثيرين، فإنه لم يرضِ غيرهم.

فالعم، عبد الله باشا، الذي لم يسلم بسهولة أن يكون ابن أخيه، الأصغر منه سناً، والذي يفتقر إلى التجربة والحنكة، حاكماً للشمال، وقد ذهب إلى بغداد أكثر من مرة علّه يقنع داود باشا أنه الأصلح وهو الذي يجب أن يكون، لكن لم يجد آذاناً صاغية في بغداد. ولما ألحّ أكثر مما ينبغي، وهدد وتوعد، فقد خيّره داود باشا بين السجن، أو العودة طائعاً إلى الشمال، وبأمرة محمود باشا. فعاد بغلّ وعدم اقتناع، لكنه اضطر مرغماً للذهاب إلى دار الشيخ خالد، وهناك أقسم على السيف والقرآن، وبالطلاق أيضاً، أن لا يخون، وأن يسري عليه ما يسري على الآخرين بخصوص الرسائل التي تأتي من كرمنشاه تحديداً. وفي محاولة من محمود باشا لاسترضائه، وإزالة الغل من صدره، أغدق عليه الكثير، وقرّبه، وكان يشاوره بالكبيرة والصغيرة.

ظلت الأمور هكذا إلى أن أوصل داود باشا مع رستم أفندي: الخلعة وحسن بك، وأيضاً همسة صغيرة في أذن محمود باشا: «عبد الله باشا تلقى رسالة من كرمنشاه، وهو يعدّ العدة للذهاب إلى هناك، تمهيداً لعمل

كبير!».

محمود باشا الذي فرح بتوبة حسن وعودته، ولبس الخلعة في الاحتفال الذي أقيم، أقلقته الهمسة التي همسها بأذنه رستم أفندي، ثم أزعجته، بل اعتبر أن ما يعطيه داود بيده اليمنى ينتزعه باليسرى، وأن الاتفاق الذي يوشك أن يكتمل داخل الأسرة يجري الآن تخريبه أو الانتقاص منه، وربما تكون هذه الهمسة هي البداية.

ولما كانت تجارب الفترة الماضية قد أكدت تماسك العائلة ووحدتها، ولعل أبرز مظاهر التماسك أن الأخوة الثلاثة كانوا يطلبون من حامل أية رسالة إلى أي واحد منهم أن يذهب من فوره إلى الشيخ خالد، ولديه يودع الرسالة، وأنهم سيأتون فيما بعد، عصراً أو خلال الليل، لكي تفتح بحضورهم وتقرأ. فإن عبد الله باشا كان يفعل شيئاً قريباً، لكي لا يثير الشكوك، إذ يستلم الرسالة بنفسه، ويذهب من فوره إلى الشيخ خالد، ليبعث من يستدعي الآخرين، «لأن الصغار يجب أن يأتوا عند الكبار» رافضاً أن يذهب شخصياً إلى محمود باشا أو أحد أخويه، وغالباً ما يخف الثلاثة، دون تأخير، استجابة لطلب الشيخ خالد. وتقديراً للعم «الذي أصبح مثل أب بعد أن توفي الوالد».. هذه التجارب أكدت الثقة، وأزالت الكثير من الشكوك.

حتى الرسالة التي بعث بها الشاهزاده إلى عثمان، والذي يدعوه فيها إلى زيارة كرمنشاه، ويعده أن يقلده منصب باشوية السليمانية، قرئت من قبل الشيخ خالد بحضورهم جميعاً، وقال عبدالله باشا، بعد فترة الصمت التي رانت على الجميع:

ـ الجماعة هناك ما يعرفون أهل السليمانية زين، ولازم لهم أيام ودروس حتى يتعلموا!

أما الأخوة الثلاثة فقد تلاقت نظراتهم، وحين قالت العيون ما يجب أن يقال، وكثيراً ما تكون العيون أبلغ من أي كلام، فقد آثروا الصمت. وكان لدى كل واحد منهم ما يفعله، فلم يتأخروا في الاستئذان ثم الانصراف.

بعد هذا الدرس، وكانت دلالاته واضحة وقوية، تعززت الثقة داخل الأسرة، وكانت ناظرة خاتون، بما تملك من حنان وتجارب الأيام، تبذل جهداً لا ينقطع من أجل ترسيخ هذه الثقة، وإشاعة الحنان في القلوب، كما لا تتعب من ترديد الأمثال التي تؤكد أن القوة في وحدة الجماعة، وأن هزيمة أي واحد منهم هزيمة للجميع. أما إذا تدخل الغرباء، مهما حسنت النوايا، فبداية الخراب. حين لا تكفي الأمثال، أو تجد أن كلامها لم يصل، كانت تستعين بالحوادث التي عاشتها أو سمعت بها، وبالقصص التي تروى. ولم تكن تتردد في اللجوء إلى الأغاني، إذ تردد بعضها بنغم. صحيح أن صوتها لم يكن جميلاً، لكنه شجي، وفيه تلك البحة التي تجعله محبوباً، وفي أحيان ساخراً، وهي تردد ما ورد في ليلى جان، أو في أغانٍ أخرى قديمة، انحدرت من قمم الجبال لتستوطن العقول والقلوب في أعماق الأودية.

الآن، بهمسة الريح السوداء، كما يطلق محمود باشا على الدفتردار القديم الماكر، رستم أفندي، لا يعرف هل يصدق أو لا يصدق. هل جاء هذا من أجل الوفاق أم ليبذر شقاقاً جديداً في العائلة؟ وإذا كان في كلامه شيء من الحقيقة، فإن عمه، عبد الله باشا، في هذه الأيام بالذات، يبدو أكثر وداً، وقليل المشاكل، قياساً لأيام سابقة، فهل يروق لداود باشا أن يبقى الخصام داخل العائلة، لكي يتحكم، في النتيجة، بالجميع؟

ترك محمود باشا الهمسة تمر، لكن فتح عينيه إلى أقصى حد، فهو يريد أن يتأكد. أصبح كالذئب المتربص وراء صخرة انتظاراً لمعرفة نوايا الراعي، ولاختيار الوقت المناسب للانقضاض.

قال لرستم أفندي، وهو يودعه:

ـ . . . وتسلم لي على الباشا كثير السلام، وتقول له نحن ممنونين أكثر مما يتصور، على الخلعة، وعلى الثقة، وكل ما وصّاه صار معلوم!

لم يقل له انه سيتخذ اجراء بحق عمه عبد الله، ولم يقل ان له به كل الثقة. ترك لنفسه كل الخيارات، انتظاراً لفترة لاحقة، وبعد أن يتأكد.

ريتش الذي ظن أن جو السليمانية أرحم من جو بغداد، وافترض أنه بمجرد وصوله إلى الشمال سينعم بالبرودة وراحة البال، اكتشف كماً غير قليل من المزعجات، بدءاً من الريح الشرقية التي تجعل الإنسان عصبياً، مروراً بالحمى التي أخذت تعاوده بين فترة وأخرى، ثم المرض الذي أصاب عينه اليمنى، وما يسببه من ألم، ومن عجز عن القراءة والكتابة، نتيجة الغبار والشمس الحادة، وربما رائحة بعض النباتات!

هذه المنغصات كان بالامكان احتمالها لو أن الجو مؤاتٍ لبحث الأمور الكبيرة، التي يعتبرها أساسية وتستحق التضحية وتحمّل المشاق، لكن ما يكاد يهيىء الجو للخوض في هذه الموضوعات حتى تبدأ «ذكريات الأبالسة» كما يسمي تلك الأسئلة التي يوجهها إليه محمود باشا. كان يسأله عن اخوانه وأسرته؛ عن أسعار الخضار والفواكه في لندن؛ وما إذا البغال في انكلترا أكبر أو أصغر حجماً، وعن مدى احتمالها، وهل تتسلق الجبال بكفاءة! ويسأله عن السن التي يتزوج فيها الرجال والنساء، ومقدار المهر الذي يدفع، وما إذا المرأة تعمل في الحقول وفي قطف الثمار، وعشرات الأسئلة، بحيث تنقضي السهرات في أحاديث من هذا النوع.

صحيح أن تلك الأسئلة كانت توجه بتهذيب، وبشيء من الخجل، مع كلمات الاعتذار أن لا يكون بتوجيهها أي ازعاج. وريتش الذي يلمس الصدق، ورغبة المعرفة، لا يتردد في الإجابة. ويسترسل بعض الأحيان، ثم لايجد الطريقة المناسبة لينتقل إلى موضوعات أخرى، مؤملاً أن تكون الفرصة في الأيام التالية أفضل.

ولأن شمعون جاء خلال إقامة ريتش في السليمانية مرتين، فقد حمل في كل مرة أشياء ثمينة من القطع الأثرية الصغيرة والمخطوطات. وكان يوم وصوله من نواحي الموصل عيداً حقيقياً لماري. فما كان يحمله من قطع أثرية، بين أكوام التبن، يشغلها لأيام، إذ تغرق في تأمل هذه القطع، والمقارنة بينها، ثم تبدأ بتصنيفها، واعادة التصنيف، خاصة وأنها جلبت معها خلال سفرتها الأخيرة عدداً من الكتب المتخصصة، وفيها تعليمات

حول الطرق المناسبة للتعامل مع الآثار.

وشمعون الذي كلّفه ريتش الطواف بالقرى الشمالية، خاصة منطقة الموصل، وشراء الآثار، كان يعرف كيف يغري البائعين بالتخلي عن «البضاعة المزنجرة» لقاء بضائع جديدة، ومتنوعة، وحسب ما يرغب البائع! أو لقاء مبالغ بسيطة، ويعرف أكثر كيف يسوقها لريتش، أو بالأحرى لماري، التي أصبحت أكثر افتتاناً من زوجها بهذه القطع «لأن ليس لها مثيل في أي مكان آخر من العالم» كما يقول شمعون، ومشيراً إلى ما تكلف من مال ومشقة من أجل الحصول عليها. لا يكتفي شمعون بذلك «فالأشياء التي تركتها في الموصل، لثقلها، أو للخوف عليها، أكثر من هذه».

لولا هذا العالم السحري الرائع الذي فتن ماري، ولاقى اهتماماً جدياً من ريتش، لربما وقعت ماري في نوبة من تلك النوبات السوداوية التي تعاودها بين فترة وأخرى، نتيجة الجو، أو بسبب الحنين الذي يستبد بها، خاصة وهي تتذكر مسني العائلة، وما يمكن أن يكون قد حلّ بهم خلال غيابها، ويزيد شعورها بالذنب أنها لم تستطع أن تقدم لهم أية خدمة، أو أن تكون إلى جانبهم في اللحظات الضرورية.

ثم هناك شعور غامض لدى ماري يجعلها تحارب مرضها، وتتغلب عليه، حين تجد أن كلود مريض أو يحتمل أن يقع في المرض، إذ كثيراً ما وجدت أن تلك «الشقيقة الملعونة» تغادرها إذا لمحت في عيني كلود التعب أو الحزن، والذي أحدهما أو كلاهما يؤدي إلى المرض. كانت تقول، وبنعومة آسرة:

- إنني أصح الآن؛ أشعر بتحسن، وكأن تلك الروح الشريرة، والتي اسمها المرض تغادرني. . .

فإذا لمحت ابتسامة غبطة في عينيه، على وجهه، تتابع برقة أبهى، وان شابها شيء من الحزن:

- يجب أن يبقى أحدنا، على الأقل، في صحة جيدة، كي يساعد الآخر على تحمل الحياة في هذا المكان الحزين. . والبعيد. . البعيد جداً.

ويهز ريتش رأسه موافقاً ومقدّراً، فتضيف:

ـ الموت في الأمكنة البعيدة شديد الوحشة، ولا أريد أن يقع لأي منا!

ـ لا زلنا في بداية الحياة، يا ماري، وحرام أن نفكر بالموت، لأن أمامنا أشياء كثيرة نفعلها!

هكذا يرد ريتش، ويتخلل صوته شيء من التحدي، فيتابع:

ـ ثم ان ما أشعر به الآن وعكة خفيفة، ولا بد أن تنتهي اليوم أو غداً.

حصلت الأمور بهذا الشكل أكثر من مرة، وتغلّب الاثنان، بوسائل شتى، على وحشة المكان، على البعد، وأيضاً على المنغصات الصغيرة، بل الكبيرة أحياناً، التي واجهتهما خلال السنين السابقة. والآن، ورغم قسوة الحياة ورتابتها، وتلك الريح الشرقية، فإن الآثار كانت سلوى رائعة لماري شغلتها وانشغلت بها، مما أفسح مجالاً واسعاً أمام ريتش لكي يستكمل المهمة. فإذا وجدت ماري فراغاً، بعد أن أصبحت تعتذر عن استقبال النساء، أو عن تلبية دعواتهن، متذرعة بالتعب أو المرض، وبعد أن تفرغ من التصنيف وترتيب ما لديها، ولا تعرف هل من الأصوب أن تستبقي هذه الأشياء أم تبعث بها إلى بغداد، تمهيداً لإرسالها إلى حيث يجب أن تكون، إلى المكان الجدير بها... بعد أن تقرّر ما يجب عمله، وجدت أن كتابة الرسائل، خاصة لمسني العائلة، أمر لا يخلو من متعة وفائدة، ما جعلها تضع قائمة تدوّن فيها أسماء الذين يجب أن تكتب لهم، والموضوعات التي يجب أن تكتبها، وهذا ما شغل ماري وقتاً غير قصير.

أما بعد أن اكتشف ريتش أمر «المقناكارتا الصفراء»، كما سمى الاتفاق الذي جرى بين الباشا محمود وأخوته وعمه، وأن الشيخ خالد هو العراب لهذا الاتفاق، فقد شعر بالمرض الحقيقي، وشعر أن الرياح الشرقية أثّرت جدياً على صحته، كما أصبحت عينه اليمنى تؤلمه أكثر من السابق.

وحين وجد أن حسن بك، وخلال أسابيع قليلة، عاد بقوة إلى حضن العائلة، وأنه بدأ يمارس الهوايات التي تستغرق الكثيرين في الشمال، فقد قال ريتش لنفسه «عبقرية الشرقيين تتجلى في حالة واحدة: يحتربون

ويريقون الدماء بسخاء، ثم يتصالحون، ولا تعرف لماذا تحاربوا وكيف تصالحوا، وهذا ما يجعل اعتماد المنطق في تفسير هذه الحالة يقود تماماً إلى الموقف الخاطىء».

أما وهو يستعيد ملامح الشيخ خالد، خاصة حين يجيب على الأسئلة التي توجه إليه، إذ يبقى محدقاً إلى الأسفل، لا يتطلع إلى سائله، فيبدو صوته كأنه صاعد من بئر عميق، أو آت من مكان بعيد، فقد اعتبر ريتش أن الرجل يتخفى وراء هذه المظاهر، ولا بد أن يكون شديد المكر، وربما مرتبطاً بالاتراك ارتباطاً وثيقاً. وقرر أن يكتب رسالتين، الأولى رسمية إلى وزارة المستعمرات في الهند، والثانية لصديق عسكري هناك يستفسر فيهما عن الصوفي سلطان عبد الله، الذي كان الشيخ خالد من مريديه. وتساءل ريتش باستغراب: ولكن ما الذي أرسل الشيخ خالد إلى الهند؟ وكيف ذهب، وكم بقي هناك وماذا فعل؟

وعنّ له لو يكلف مهاد غلامي بمحادثته والتقرب منه، لعله يصل إلى بعض المعلومات، لكنه ابتسم لهذه الفكرة الساذجة وقال في نفسه: «إذا كان مهاد غلامي إلى الآن يقظاً وموثوقاً في الحراسة، فإنه بعد أن فقد نصف عقله بحب وهيبة، فلا بد أن يفقد النصف الثاني من خلال علاقته مع هذا العرّاب، الذي عقد له الزواج».

لما بلغت الأخبار الجديدة ريتش، وكان يستعد لمغادرة السليمانية الى مصيف جبلي بارد، فقد اعتبر أن التعجيل بالسفر أمر ضروري، «لأن التدخل بين المتخاصمين غير مجدٍ أثناء فورات الغضب، وإذا لم يطلب أحد منك ذلك، أو حين لا يجدي التدخل. أما بعد أن يتعب المقاتلون، وحين تتأرجح الكفة في هذا الاتجاه، وفي الاتجاه المعاكس، وكلا الطرفين خائف من نتائج أسوأ، وإذا طلب الطرفان، وبإلحاح، أن تتدخل، فعندئذٍ يمكن أن تصل إلى نتائج، أن تفرضها، وقد تكون أنت الأقوى، خاصة إذا اعتبر كل طرف أنك في جانبه».

قال ريتش ذلك بعد أن اضطربت السليمانية في إحدى الليالي، بحثاً

عن بعض رجال عبد الله باشا المقربين، بعد أن تم اعتقاله وعدد من أقربائه، وكان السبب أن الشاهزاده بعث إليه سراً برسالة يطلب إليه أن يأتي بسرعة إلى كرمنشاه، ولم يطلع أحداً على هذه الرسالة، كما أخذ يستعد، سراً، للسفر، إلا أن خزنداره تسلل في الليلة السابقة على مغادرته، ومعه الرسالة ذاتها، وأبلغ محمود باشا، الذي أبلغ بدوره أخوته والشيخ خالد بهذه الخيانة، واتفق الجميع على اعتقاله، تمهيداً لتحديد الطريقة التي يجب أن يعامل بها.

لم يستطع محمود باشا أن يودّع ريتش، وهو يسافر إلى الجبال. لذا كلف أحد معاونيه، عثمان بك، القيام بهذه المهمة، نظراً للصداقة التي نشأت بين الاثنين. وعثمان الذي لم يتردد في القيام بهذه المهمة، وحمل معه هدايا الباشا، واعتذاره، ورغبته في أن تكون السليمانية محطة أساسية في طريق العودة. كما أضاف عثمان بك عواطفه وإلحاحه بضرورة أن يعود ريتش إلى السليمانية، وأكد له أن كتاب التاريخ الذي وعد باطلاعه عليه سيكون جاهزاً. أما حول الخصومة التي نشأت بين الباشا وعمه، فقد اعتبرها سحابة صيف، وسوف تنتهي بكل تأكيد خلال فترة قصيرة.

قال ريتش لنفسه: «الأكراد بدو أيضاً، فإذا كان بدو العرب يسكنون الصحارى فإن بدو الأكراد يسكنون الجبال، وكل زعيم منهم يفترض أنه الأجدر، ويجب أن يطيعه الآخرون، والطرفان لم يصلا بعد إلى درجة يمكن أن يتحدث معهم بالقضايا السياسية، لأن السياسة بالنسبة لأي منهما مجموعة من الطرائف والأمثال والحكم الميتة. وإذا كان من البلاهة الاعتماد عليهم كقوى أساسية، فإن وجود قيادة مركزية تستطيع أن تسيّرهم، أن تجعلهم مجرد محاربين». وقرر ريتش أن يواصل رحلته إلى حيث يمكن الوصول إلى نتيجة، وإرغام داود على الامتثال أو الرحيل.

وهكذا قرر ريتش ان يواصل رحلته متوغلاً في الشمال. . . وكانت أصداء المشاكل تتابعه في هذه الرحلة.

127

وبدأ ريتش يصعد في الجبال، نحو المصيف الذي اقتُرح عليه.

كانت المسالك وعرة، وفي بعض المناطق بالغة الخطورة، مما دفع ميناس لإعادة ترتيب سير القافلة. تخلّى عن التختروان، وأصبحت البغال الوسيلة الأساسية للنقل، إضافة إلى عدد من الخيول المروضة والمجربة. وإذا كان قد اختار حصاناً صغير الحجم لركوب ماري، فإن واحداً من أقوى البغال، وأكثرها رصانة، اختاره لأمه، خاصة بعد أن زاد وزنها بشكل ملفت، نظراً لقلة الحركة والأكل الدسم، ثم لجلوسها فترة طويلة وهي تحيك الصوف لأحفادها. كما وعدت، وهي تغمز، بحياكة أشياء جميلة للذين سيأتون، وكانت تشير إلى ماري ووهيبة، طالبة منهما، وبالإشارات، أن ترتفع البطون بسرعة، لتبدأ العمل!

كانت أم ميناس، السمينة كبطة، البطيئة كسلحفاة، ضرورية لهذه القافلة، إذ لولاها لخيم جو من الكآبة، فهي تعرف كيف تجعل كل الذين حولها يبتسمون ثم يقهقهون، حتى لو لم يفهموا كل ما تقول! فالحركات التي تقوم بها، والأخطاء التي تتعمد ارتكابها، ثم الأنغام التي تنفجر فجأة، خاصة حين يخيم الصمت، تجعل تلك المرأة، بوجهها الطفولي، وطريقة نطقها للكلمات، حاجة ضرورية لمغالبة الجو الحار، والسفر الطويل. أما مهارتها في صناعة الحلوى، وبعض الأطباق الأخرى، فربما كانت السبب في إصرار ماري على اصطحابها.

وإذا كان ميناس لجأ إلى هذا التنظيم الجديد للقافلة، فقد اقتضى الأمر

أن يتحرك الخدم وعدد من المسؤولين عن التموين ونصب الخيام قبل الآخرين، وهذا ما جعل ريتش يتجنب مرافقة القافلة كلها، وبالتالي خلّصه من الضوضاء التي تتولد من الكثافة والعدد الكبير.

كتب في يومياته بعد هذا الإجراء الذي اتخذه منياس: «لا يمكن في هذه البلاد إنجاز عمل ما دون ضوضاء وصراخ لا يتناسبان مطلقاً مع العمل الذي يراد إنجازه. ويظهر أنه حتى الحيوانات تتهيج فتساهم في الضوضاء بنهيقها وزعيقها، في الوقت الذي يتشاتم أصحابها».

ولا ينسى ريتش أن يدون الملاحظات حول كل ما يمر به: «مسيرنا في هذا اليوم كان باتجاه شمال شرقي بخمسين درجة. وبعد أن اجتزنا ممراً ضيقاً بلغنا قرية بناويلا، وهي إلى جانب نبع رائع، وقد رأينا في النبع عدداً كبيراً من أسماك الشبوط. كان السمك أليفاً، لأن القرويين لا يزعجونه» وبعد أن يقطع مسافة غير قصيرة يكتب «وصلنا إلى قمة أحد الجبال وجدنا أنفسنا في جو يختلف تمام الاختلاف عما كان من قبل»، ويكتب في يوم ثانٍ «كان الطريق جميلاً، تتخلله أشجار البلوط والكروم، وقد التقينا بفتح الله آغا، رئيس تشريفات محمود باشا، وكان عائداً من سنه. ثم بعد قليل التقينا بضابط أرسله كبير المنطقة، خالد بك، وكان هذا الضابط لا يتكلم التركية، وان حفظ بعض الإجابات على أسئلة توقع أن توجه إليه، فحين سألته كم بقي في الطريق، أجابني أن سيده ذهب بالأمس إلى السليمانية!».

ولأن المصيف الذي اقترح على ريتش في منطقة قزلجة، «فعند قاعدة الجبل التقينا بولدَيّ خالد، وهما على رأس حرسه، وعددهم مئتا فارس بكامل سلاحهم». «وعند التقاء هذه الكتيبة مع جماعتنا قامت جلبة وضوضاء وأصوات لا يدرك مغزاها إلا من نال شرف الاستقبال! أما الخيل فحيوانات لا تعرف للاستقبال معنى، إذ استاءت جيادنا من تلك الخيول الغريبة التي اختلطت بها، واغتاظت هذه بدورها، والخيول الكردية كلها شرسة سريعة الاهتياج، وذلك مما جعل المشهد كله شهيق وصهيل وصراخ وخبط ولبط وعراك».

«وفي السابعة والنصف بلغنا مضاربنا عند التلال، وعلى مسافة ميل واحد في الشمال الغربي من كلوان، وكانت مساكننا التي أقامها لنا خالد بك واقعة عند نبع جميل، وهي مصنوعة باتقان من الأغصان، وكان إلى جانب الحرم والديوان حقول القمح، لم يزل الحاصدون يحصدونها وهم يتغنون بقصة فرهاد وشيرين!»

بعد بضعة أيام قضاها ريتش في هذا المكان قرر مواصلة السفر، إلى بيستان، حيث يقيم خالد بك، مفوض الباشا. وقد لاحظ ريتش، وهو يجتاز الجبال والمنحدرات «أن معظم القرى الكردية تقع في مخابىء مستورة؛ وفي وديان بعيدة عن النظر، وقد يكون ذلك تخلصاً من زيارات قطعات الجيش التي تمر بجوارها»، أما عندما بلغ بيستان وجد أن القرية تقع «في أسفل التلال، وفي مكان عجيب، ولم تكن في موضع له محاسنه، إذ أنها تحت صخرة كبيرة منعزلة يبلغ ارتفاعها مائتي قدم، تعزلها عن الوادي الذي يسيل فيه النهر، وتجعل مكانها مستتراً دافئاً».

ولأن المنطقة مليئة بالآثار، فقد قضى ريتش فيها أياماً، استطاع خلالها أن يحصل على مجموعة من اللقى الثمينة. اشترى قسماً منها من اليهود المقيمين في القرية، وعثر على القسم الآخر في التلال القريبة. كانت هذه اللقى مصدر فرح لا يوصف لماري، التي انشغلت بتنظيفها وترتيبها. واتفق ريتش مع خالد بك، ومع أحد التجار اليهود، أن يرسل لهم بين فترة وأخرى رسولاً من عنده، لشراء «الأشياء القديمة التي تصل لأيديهم، لأنها تروق لزوجته، ولأنه يريد أن يقدم بعضها لأصدقاء في لندن، إذ طلب هؤلاء أن يحتفظوا بتذكارات من الشرق، الشرق الرائع، مهد الحضارات ومهبط الأديان».

لكن تلك الأيام التي قضاها في بيستان لم تكن كلها متعة، فالحمّى الصفراء أصابته وعدداً كبيراً من حاشيته ومرافقيه، الأمر الذي حوّل المخيم إلى مستشفى في الهواء الطلق، وجعل خالد بك يحار كيف يواجه هذه المشكلة، خاصة لو توفي أحد هؤلاء الضيوف!

أم ميناس التي وقعت فريسة لهذه الحمّى، أخذت تهذي، ثم أصبحت تدور في أنحاء المخيم وهي تتمايل كالسكرى! وإذا كانت حركاتها وإشاراتها تثير الضحك دون أن تكون محمومة، فإنها الآن وهي تترنح وتهذي جعلت الجميع في حالة من المرح الحزين، إذ لا يعرف من يراها أيضحك أم يأسى أو أن يشاركها الألم!

ولما كانت لكل مريض بالحمّى لازمة تستبد به وتسيطر عليه، وتجعله لا يرى غيرها، فإن تلك الشجرة العملاقة، التي استراحت القافلة عندها، وهي في طريقها إلى بيستان، على ضفاف نهر قزلجة، وبالقرب من بقايا قلعة يطلق عليها حصن الفتاة، كانت شجرة الحور تلك هي اللازمة لأم ميناس.

كانت تدور في المخيم وهي تهذي «أنا وذيك الحورة أخوة من زمان زمان، نعيش سوا ونموت سوا، وأنت يا ميناس لا أعرفك ولا أتعرف عليك إذا ما أخذتني لهناك».

لقد فسّرت ماري هذيان أم ميناس بأن الإنسان، حين يفقد القدرة على التحكم، نتيجة السكر أو الحمّى، تسيطر عليه الأشياء التي يحبها أو يكرهها، ويظل يرددها. ولأن شجرة الحور الضخمة أثارت استغراب وإعجاب الجميع، حين توقفت القافلة هناك فترة طويلة، وبعد أن قاس كلود محيط ساقها ووجده يزيد قليلاً عن ستة عشر قدماً، فقد أخذ أكثر من في القافلة يضع رقماً لارتفاعها، إلى أن صرخت أم منياس، لإشاعة جو من المرح، انها مستعدة لتسلقها، وستأخذ معها حبلاً تدلّيه من أعلاها، وتترك لهم أن يقيسوا! إذا كانت الفكرة قد راقت لعدد من المرافقين، وأخذوا يلحّون على أم ميناس أن تفعل، فإن كلود، جرياً مع جو المرح، استبدل الصعود، بأن يطوق عدد من الرجال ساق الشجرة، وأصرت أم منياس أن تكون بين هؤلاء!

أشارت ماري لهذه الحادثة، وكانت تجلس تحت صفصافة مع بوليني، ذلك الألماني الذي رافقهم في الرحلة من السليمانية، وكان في طريقه إلى

ايران. قالت وهما يرقبان أم ميناس، وكانت تتمايل وتصرخ مطالبة ابنها بإلحاح أن يأخذها إلى شجرة الحور!

ولم يُطِل ريتش اقامته في هذا المكان الموبوء، إذ ما كاد يبلّ قليلاً، ويقوى على التحرك حتى طلب إعادة أغلب القافلة إلى السليمانية، خاصة من الذين أرهقهم المرض، وان يتحرك هو نحو مكان آخر. وهكذا، وبعد محطات قصيرة، وصل إلى بنجوين، في طريقه إلى سنه، للوصول إلى ايران. وبعد أن استراح أياماً تابع سفره إلى سنه، فلما وصلها «فاجأتنا المناظر الجميلة مفاجأة سارة. ولجنا ممرات تكتنفها أشجار الحور الباسقة الجميلة من الجانبين إلى قصر فخم، تحيط به الحدائق، وأحواض مربعة جميلة تعلوها النافورات، وهي أمام القصر وخلفه. وكان القصر شامخاً وقد زُيِّن بالنقوش المذهبة على الطراز الايراني». «واستقبلني عند مدخل الحديقة ميرزا فرج» باعتبار أن والي سنه كان غائباً. وقد أنزل ريتش في هذا القصر، وما كاد يستقر قليلاً حتى جاءته أول هدية، ستة بغال محملة بالفواكه، وحمل بغل من الثلج، ووصل رسول من الوالي يرجوه أن يكون طريقه أثناء العودة إلى السليمانية بالمكان الذي هو فيه الآن.

لقد كان والي سنه في جولة على مناطق نفوذه لكي يجمع الأموال اللازمة، لتكون مهراً لابنة الشاه التي سيتزوجها ابنه في الربيع القادم، وفي عيد النوروز تحديداً. ورغم ما لديه من أموال، «لا تأكلها النيران» كما همس أحد الرجال، الذين لا يكنُّون له الود في أذن ميناس، والذي نقل ما سمع إلى ريتش، فإن قسوته تبلغ حداً أن يصبح فقء عيون أعدائه، أو الذين يمتنعون عن أداء الأموال المقررة عليهم، إحدى هواياته! يكتب ريتش حين أدخل إلى الغرفة الخاصة في القصر: «قاعة أنيقة عُلِّقت على جدرانها صور نساء، قيل إن إحداهن كانت جارية أهداها الشاه عباس الكبير إلى أحد أجداد الوالي. دخلنا الغرفة قبل أن تهيأ لنا، وحالما فتحت لنا أبوابها فاحت رائحة خمور شديدة. لقد شاهدنا على الرفوف بعض الزجاجات، الأمر الذي دلّنا بوضوح أن الوالي لم يكن من المسلمين الشديدي التمسك

بدينهم».

بعد أن أوفد ريتش عدة رسل إلى كرمنشاه وطهران، وبعد أن تجول في المناطق المحيطة، وسجّل المعلومات التي تعنيه، لم يشأ أن يتوغل أكثر من ذلك، كما رأى أن مقابلة الوالي بالمكان الذي حدده، ستصل أخبارها لداود، وربما من أكثر من مصدر، ولا بد أن تحتدم بينهما الخصومة قبل الأوان، أي قبل أن يرتب أوراقه وخططه، لذلك فكر أن يصرف النظر عن هذا اللقاء.

ما كاد يبلّغ رجال الوالي بعزمه على العودة إلى السليمانية مباشرة، دون المرور بالوالي، لضيق وقته، ولأن الجو أخذ يميل إلى البرودة، حتى جنَّ رجال الوالي، لأن مخالفة رغبته سوف تؤدي إلى إنزال أقسى العقوبات بهم، وأخذوا يتوسلون، ويبذلون جهدهم مباشرة، وعن طريق المرافقين، ليغيّر ريتش رأيه، فيوافق على المرور، ولو لوقت قصير. وحين وجدوه متصلباً رافضاً، وبعد مفاوضات واقتراحات، بما فيها أن يهرب رجال الوالي إلى السليمانية لعدم قدرتهم على مواجهة غضبه، وبعد أن ذرفوا دموعاً غزيرة، أرسلوا نساءهم في محاولة لاقناع ماري، وقد أعولت النسوة ونزلت دموعهن مدراراً، ما جعل ريتش يوافق مكرهاً على المرور.

قال ميناس أن رجال الوالي، في الليلة التي قرر فيها ريتش أن يعطي كلمته الأخيرة، لازموا مقام مولاي حافظ الشيرازي يستنجدون به، بدعاء أقرب إلى النشيج، أن يهدي الله ريتش ويوافق على زيارة الوالي. أما حين وصلوا إلى عتبة غرفة ريتش، قبل منتصف الليل بقليل، فكانت عيونهم متورمة حمراء من البكاء. ما كاد يراهم ريتش هكذا حتى أعلن موافقته. حين تأكدوا من هذه الموافقة، جثوا على ركبهم يريدون أن يقبلوا قدميه!

بعد أيام من السفر، وصل ريتش إلى المكان الذي يقيم فيه الوالي. وبعد أن التقى به كتب في يومياته «وجدته جالساً في إيوانه تحيط به كمية من البطيخ، فنهض ليستقبلني ماداً يده. وجدته ايرانياً اعتيادياً، خشن المظهر، أو بالأحرى مستهجناً. لا تلمس الطلاوة في حديثه الذي يقتصر

على توجيه الأسئلة المقتضبة وابداء الملاحظات القصيرة» «خاطبني بالتركية، وقد أصبحت لغة الطبقة الراقية في إيران. كان يكرر توجيه الأسئلة التافهة. سألني عن عمري، وحين أجبته أنه الثالثة والثلاثون، أبدى ملاحظة بالكردية أنني أبدو وكأني ابن الأربعين. ثم سألني عن مرضي بسيل من المصطلحات الطبية الشرقية. ثم سألني عما تكون واجبات المقيم البريطاني في بغداد، وتمادى فسألني عن راتبي! ثم جيء إليه بخمسين بطيخة تقريباً، فاستل سكينة برمنكهامية من جيبه وذاق كل واحدة من البطيخ، وقدم لي. ثم سألني كثيراً عن بونابارت. وسأل عن أتباعه في سنه، وما إذا أكرموا وفادتي، أو أساء أحدهم سلوكه».

في اليوم التالي زار الوالي ريتش، ويذكر ميناس أن موكبه حين وصل كان رثاً فقيراً، خلافاً لمواكب الولاة الأتراك. وفي هذه الزيارة ذكر لريتش أن الشاه وعده بعدة مدافع، وأنه سيكون مدفعياً جيداً، إذ حالما يستلم المدافع سوف يتمرن عليها كل يوم. سيضع ثيراناً مقابل قصره، ولا بد أن تكون هذه أهدافاً جيدة! وفي لحظة مفاجئة التفت إلى أحد رجاله وخاطبه باللغة الكردية وقال له: «لقد جذبني هذا الرجل وأريد مؤاخاته» ثم أخذ يتحدث عن نيته بالسفر إلى مكة وأداء فريضة الحج. وفجأة سأل أحد مرافقيه عن الوقت، فلما أخبره تناول حبة صغيرة من الأفيون، وأردفها بقطعة من السكر، وبعد أن دُخنت الغلايين استأذن وغادر.

ولما كان ريتش مقرراً السفر في اليوم الذي أعقب الزيارة، فقد قام بزيارة وداعية للوالي، لكن الوالي كان قد سافر لقضاء بعض الأمور، تاركاً خبراً لريتش أن يتأخر ليوم آخر، وسيرافقه مسافة من الطريق. وحين اعتذر ريتش، مؤكداً تصميمه على السفر، وقبل أن يأوي تلك الليلة إلى فراشه جاء رجال الوالي لتقويض الخيام، ولما احتج ريتش على ذلك، وبعد مشاورات واتصالات، أعيد نصب الخيام، وكتب ريتش في يومياته: «أن الأمر صدر من الوالي في نوبة سكر شديد».

في صباح اليوم التالي، موعد السفر، وجد ريتش أن البغال قد سُحبت

بأمر الوالي. وبعد جهد واتصالات متوالية أعيد عدد منها، وسافر أغلب المرافقين. وحين قابل ريتش الوالي اعتذر الأخير عن هذا الخطأ، وأهداه رهواناً، لكن طلب مقابله مقداراً من البارود! ووعد أن يرسل إليه بعض الكتب القديمة. وجرى الوداع بكثير من الود، على أمل اللقاء مجدداً!

لقد تعرَّض ريتش إلى السرقة في طريق عودته إلى السليمانية، وحالما وصل إلى المنطقة الخاضعة لمحمود باشا كتب في يومياته «شعرت بغبطة قلبية لنجاتي من أرض المشاكل والشحاذين، ودخولي بلاد الضيافة الحقة، وشعرت أيضاً كأنني عدت إلى داري».

كانت أم ميناس في السليمانية بالانتظار، لكن بعد أن خسرت مقداراً غير قليل من وزنها، وكان بطن وهيبة قد ارتفع، اعلاناً أنها حامل. ماري التي فرحت بهذا اللقاء، بعد أن افترقت عنهما طوال الفترة الماضية، وجدت أيضاً أن شمعون قد وصل إلى السليمانية، ومعه كمية من الأواني الفخارية، إضافة إلى عدد من الأختام والأسرجة، ويحمل خبراً مدوياً: مكتبة كاملة من المخطوطات اشتراها من ورثة أحد الباشوات السابقين، ونظراً لأهميتها، ولعدد ما تحويه، لم ير مناسباً أن ينقلها، الأمر الذي يستدعي أن تكون عودة ريتش إلى بغداد عن طريق الموصل.

هذه الأخبار السارة كانت بانتظار ريتش وهو متوجه إلى السليمانية، وكان يتوقع أيضاً أن تكون قضية عبد الله باشا وصلت إلى حل يمكن أن يكون وسيطاً مناسباً، بل ضرورياً، تمهيداً لأن يتحدث في الأمور التي يجب أن يبحثها، وأن يصل إلى نتائج فيها، قبل عودته إلى بغداد.

لكن أمراً ليس في الحسبان كان ينتظره في السليمانية أيضاً. فمرض الجدري الذي كان يجتاح المنطقة، وقد تسبب بوفيات كثيرة، خاصة للأطفال، أثار حزنه وحزن ماري، وكمحاولة لوضع حد له، فقد طلبت ماري أن يُرسل لها اللقاح من طبيب الباليوز، مع ممرض، لكي يتولى معالجة المرضى. وكان الابن الأصغر لمحمود باشا تعرض لهذا المرض، وصدف أن يموت في اليوم التالي لوصول ماري، وبعد أيام يصل ريتش،

فيجد أن جو السليمانية لا يحتمل أي حديث، غير المواساة والعزاء، مع محمود باشا.

قال ريتش لنفسه، بعد أن قام بتعزية محمود باشا بوفاة ابنه: «فقد الأعزاء أليم، لا يناقش أحد في هذه المسألة، وهي حالة انسانية في كل مكان، لكن ما يثير تساؤلي هو موقف الشرقيين تجاه الموت، إذ بمقدار ما يبدون قدريين، وإلى الحد الأقصى، حيث يعتبرون الموت جزءاً من الحياة، هكذا يقولون بصوت عالٍ، فإنه حين يموت لأحدهم قريب أو عزيز، يتحول إلى إنسان آخر، وكأن الموت شيء مفاجىء وغريب، أو بمقدار ما كان يفهمه حين يقع للآخرين، يرفض أن يعتبره ممكناً بالنسبة له، ولا يتصور أو لا يحتمل أن يحلّ به، مما يجعله في وضع مأساوي إلى أقصى حد، وهذا ما يجعلني عاجزاً عن الخوض في أي موضوع مع محمود باشا سوى موضوع ابنه!».

حتى أم ميناس التي كان لديها ما تقوله، وبمرح، عن مرضها، عن شجرة الحور، عن نساء بيستان، وأيضاً الأشياء الصغيرة التي اكتشفتها في هذه السفرة، وجدت أن أي حديث عن هذه الأمور لن يُسمع، بل سيكون غريباً إن لم يكن نابياً.

أما مهاد غلامي الذي ظل مرافقاً لريتش طوال الرحلة، وكان يروق له أن يعلن فرحه بفخر وكبرياء، خاصة وهو يرى زوجته قد صحت وامتلأت، ولن يكون محرجاً وهو يراها تصعد إلى التختروان، وجد من غير المناسب أن يعلن الفرح، أو أن يظهر الكبرياء في جو القتام الذي بدأ في السليمانية، ثم سرى إلى الآخرين، ولم يبق أحد من القافلة إلا وشارك في ذلك، وهكذا ابتلع مهاد فرحه، واعتبر حمل زوجته أمراً عادياً، لا يستحق الحديث. بل أكثر من ذلك قال لميناس، في الليلة التالية لوصولهما إلى السليمانية:

ـ يحزن الإنسان لكثرة الأولاد في هذه المدينة، ويحزن أكثر أن أولاد الفقراء يولدون بصمت ويموتون بصمت. أما أولاد الحكام فحالما ترتفع

حرارة الواحد منهم، فإن كل من في المدينة، الصغار والكبار، يجب أن يمرض!

وميناس الذي نظر إليه بطرف عينه، رد بسخرية:

ـ ليس صغارهم فقط. . . بل وبغالهم!

وحين لم يفهم مهاد، أضاف ميناس:

ـ ولادة الصغار وموت الكبار، في كل مكان، يتعلقان بالمواقع التي فيها أو تنتظر هؤلاء وأولئك!

وفهم مهاد غلامي ولم يفهم!

لو اقتصر الأمر على وفاة الابن الأصغر لمحمود باشا لأمكن فهم مجريات القدر، في امتحان إرادة الأفراد وإمكانيتهم على الاحتمال، فالزمن كفيل بتدبر مثل هذه المصائب. لكن لم تمر أيام على هذه الوفاة حتى جاء رسول من الشاهزاده، لا لتقديم العزاء، بل ولم يتطرق لهذه المسألة بكلمة واحدة، وإنما حمل رسالة شفوية مختصرة لمحمود باشا: إما أن يرسل ابنه عبد الرحمن إلى كرمنشاه، ليكون «ضيفاً» عند الشاهزاده، أو الحرب.

لم يجد الباشا بداً من الاستجابة لهذا الطلب. وإذا كان قد بكى على وفاة ابنه الصغير سراً، وقد فعل ذلك عدة ليالٍ قبل أن يأوي إلى فراشه، فإن الكثيرين رأوه يبكي وهو يودع ابنه عبد الرحمن، الذي لم يبلغ السنين السبع بعد. حاول أن يتماسك. تذكر عندما أرسله أبوه إلى كرمنشاه، كان قوياً وحاول أن يبتسم، وقال له: اذهب، اكتشف العالم، وتعلم، ولا بد أن تعود في وقت غير بعيد. الآن، وهو يودع ابنه، لا يجد لديه ما يقوله. تطلّع إليه كثيراً، وفي لحظة وجد نفسه يبكي. بكى بصمت، والرجال الذين كانوا حوله رأوا دموعه فالتفتوا أو نظروا إلى الأرض، كي لا يتابعوا سقوط الدمعات الصغيرة. وحين قال عثمان بك ان وقت السفر قد حان، انتبه محمود باشا فجأة. نهض. فك الحزام واستخرج خنجره وأعطاه للصغير. وقبّل الصغير يد أبيه وأعمامه، ومضى مع مرافقيه، ذهب إلى

كرمنشاه، ولا يعرف ان كان سيعود أم لا.

مولاي الشيخ خالد، الذي أكد لمحمود باشا أن مرض الصغير عابر، ولن يصيبه مكروه، وزيادة في الحيطة كتب له حجاباً عُلق في عنقه، ثم قام بزيارته عدة مرات، وأكد في كل مرة أن الابنين ينتظرهما مستقبل زاهر. وربما الصغير أكثر من أخيه الأكبر، وسوف يعيشان في كنف الوالد عمراً مديداً! لكن ما إن قضى الصغير، وقبل أن يشيَّع الى مثواه الأخير، كان الشيخ خالد قد غادر وزوجاته الأربع، وجميع أفراد أسرته، السليمانية، لا يعرف إلى أين!

ولكي تكتمل لعبة القدر اعتزل محمود باشا الناس، لازم قصره لا يغادره. وجاء عثمان بك إلى ريتش يبلّغه بهذه الأمور، ويطلب منه أن يفعل شيئاً، خاصة وأن محمود باشا لم يعتزل الناس بسبب الحزن وحده، وإنما نتيجة الخلاف بين الأخوة أيضاً، وأنه الآن لا يريد شيئاً سوى ترك السلطة. وقد بعث إلى داود باشا يبلّغه بهذه الرغبة وبهذا القرار، ولا أحد يعرف ماذا يمكن أن يحصل بعد ذلك!

ولأن البريد وصل إلى ريتش من بومبي، وطُلب منه أن يرسله بصورة مستعجلة إلى اسطنبول، فقد وجد أنه لا يستطيع عمل شيء الآن، لذلك انهمك بإرسال البريد، وكتب عدة رسائل لسفارته في اسطنبول، ورسالة إلى الوزارة في لندن، وقد ضمّن رسائله العديد من الانطباعات والأفكار والاقتراحات. كما أبلغ رجال محمود باشا أن ضرورات وظيفته تلزمه بالمغادرة، ورجاهم أن يبلّغوا الباشا شكره وتحياته، مع وعد أكيد بزيارة قريبة قادمة.

قال لعثمان آغا الذي رافقه قسماً من الطريق:

ـ المهم أن يبقى الباشا في موقعه. يجب أن تفعلوا أقصى ما تستطيعون من أجل هذا الهدف، أما الحزن الذي يغرقه الآن فإن الزمن وحده كفيل بمعالجته، ولا بد أن يفعل!

ولم ينس عثمان آغا أن تكون هديته الأخيرة لريتش، وقد قدمها بطريقة

احتفالية، تعبيراً عن الود: لفافة طويلة مكتوبة بالفارسية، قال ان فيها من المعلومات ما تعتبر حلقة متممة لتاريخ الأكراد، كما قدم كتاباً قديماً يحتوي على مجموعة من الشعر الديني.

واتجه ريتش إلى الموصل، لتكون محطته الأخيرة في هذه الرحلة.

خلال الطريق، وفي المحطات التي كان يتوقف فيها، صار يستعيد الكثير مما رأى، وكي لا ينسى شيئاً، أخذ يدوّن بعض الأفكار والانطباعات، لتكون مادة للتقارير التي سيكتبها للندن، وربما أصبحت ذات يوم سجلاً، حين تخرج في كتاب أو مجموعة كتب، خاصة وأنه من المكتشفين الأوائل لمنطقة ظلت مجهولة وقتاً طويلاً بالنسبة للغربيين.

وهو يقارن بين ما تطبعه لندن من كتب، وما يطبع في اسطنبول، كتب: «طبعت اسطنبول بعض الكتب الجيدة، لكن الغريب أن القليلين يطلبونها، وهؤلاء إذا وصلت لأيديهم لا يطالعونها! ان ما يتهافت عليه الذين يعرفون القراءة: القواميس؛ وحتى القواميس تكون للتباهي أو لأن يحزّر بعضهم بعضاً حول بعض الكلمات الطريفة».

في يوم آخر، وحين استعرض وجوه الولاة والحكام الذين رآهم في هذه السفرة، أو حتى الذين عرفهم في بغداد، وقارن بين النظام السائد هنا وذاك الموجود في انكلترا، كتب: «. . . الأمة لا تتقدم بالقوة أو بالاكراه، كما لا تتقدم بجهود فرد، مهما كان، ومع ذلك فإن للايرانيين كفاية أوسع من الأتراك، ولو كانت اسطنبول عاصمتهم لتمكنوا منذ أمد بعيد من الوقوف في صف الأمم الأوروبية. ذلك لأن الدين الاسلامي هو الذي يحول دون الرقي، . . . ويعيق التقدم ويشجع على الجمود . . .».

أما حين استعاد صورة محمود باشا فكتب: «الخطأ الكبير لمحمود باشا هو ضعفه أو احترامه للأتراك الاحترام الكلي، المنبعث في الحقيقة عن الشعور الديني، وكثيراً ما استغربت ضعف الباشا النفساني في هذا الشأن.

---

* الفقرات بين المزدوجين، مأخوذة من مذكرات القنصل البريطاني آنذاك.

ومن المؤسف أن يلاحظ المرء شدة انخداعه بباشا بغداد».

وتذكّر ريتش الورقة التي دسها أحد رجال الدين في يده، ولا يعرف لماذا غفل عنها، إذ وضعها مع أوراق أخرى.. حين استخرجها مجدداً، قرأ الرسالة التالية: «إلى كبير قومه، باليوز بك

السلام على من اتبع الهدى. الذي أباركه وأرجو من الله هدايته إلى الصراط المستقيم في بدني طفح جلدي مستديم منذ عدة أشهر، فأملي أن تكتبوا لي وصفة قد أشفى باستعمالها فادعو لكم بالخير.

«ولديَّ صديق حميم، وهو الآن مثقل بالضعف البدني الحاد، فإذا كان لهذا الذاء من دواء فارجو أن تبينوا لنا خصائصه فيعود مريضنا مسروراً إلى حالته السابقة. وارجو أن لا تقطع الرجاء للاهتداء إلى عبادة الله وإلى نوال السعادة التامة. الفقير: معروف».

طوى ريتش الرسالة. ابتسم. كتب في يومياته: «لو كنت أعرف أين أصبح ذلك العرّاب، الشيخ خالد، لكلفته أن يكتب لهذا العبد الفقير حجاباً علّه يشفيه.. أو ربما يقضي عليه!».

حين بدت الموصل لأنظار ريتش توقف قليلاً عند بئر «يعتقد الأهلون أن في مياهها شفاء لكثير من الأمراض، ليس لخصائصها الطبية، بل لبعض الأمور الخرافية المنسوبة إلى البئر، وكلهم يعتقدون أنها مسكونة من الجان، ولا يجرؤ أحد على التقرب منها بعد حلول الظلام، وقد أخبرني حسين آغا أنه مرّ في ظلام ليلة من الليالي بالبئر فسمع دقات طبول وضجيجاً صاخباً من داخلها، فحث جواده هرباً، ذلك لأن الرجل الذي يجرؤ، ولو بغير قصد، على الوقوف لمشاهدة الجان، فإنه إما أن يموت لساعته، وإما أن يفقد صوابه. لقد ذقت الماء فوجدته عذباً، وكان صافياً ونقياً».

وأقام ريتش خارج الموصل، في بيت هيأه له أحد الأصدقاء، وهناك استقبل عدداً من معارفه، إضافة إلى شمعون، الذي أطلعه على نماذج من محتويات المكتبة التي اشتراها، وكمية غير قليلة من القطع الأثرية. ولأن

ريتش تلقى رسالة من سفارته في اسطنبول بضرورة العودة السريعة إلى بغداد، لأن ممثلاً من لندن سيصل قريباً إلى اسطنبول، ويواصل سفره إلى بغداد فالهند، وهناك أمور عديدة يريد بحثها، فقد قرر ريتش أن يلتحق بمقر عمله بسرعة. ولأن الطقس لا زال مساعداً، ومياه النهر هادئة، وتلبية لوعد سابق قدّمه لماري أن يأخذا طريق النهر في العودة، فقد تهيأت الأمور بسرعة، إذ أمر منياس بعودة الكثيرين عن طريق البر، وركب ريتش وماري وعدد من المساعدين والحرس في اكلاك أعدت بأمر باشا الموصل، وغادر بعد أيام، بعد أن ودّع الباشا بطريقة لا تخلو من مرح. إذ بعد أن زار الباشا، وقدم احترامه، حتى ردد ذلك البيت من الشعر، كمدخل للاستئذان بالسفر، قال له:

يا من تحوّل عنا وهو يألفنا بعدت عنا، أبعد الآن تلقانا؟
فاعلم بأنك قد فارقت جيرتنا بدّلت جاراً وما بدّلت جيرانا

والباشا الذي كان يريد أن يجري أحاديث واسعة مع ريتش، تلقى وعداً بأن تتم زيارة تخصص للموصل بالذات في الربيع القادم، أو كما قال ريتش بطريقة فخمة، وهو ينطق بالكلمات على مهله:

ـ قبل أن يصفرّ الشعير، سأكون في أم الربيعين، سأكون في حضرتكم!

ولان ريتش أخذ طريق النهر، وكان الموج هو الذي يقوده منحدراً مع التيار، فلم يشأ أن يبلّغ بغداد بموعد وصوله، خاصة وأن الأكلاك سوف تقف مقابل الباليوز، وسوف يكون في استقباله الرجال الذين يعرفهم، «لا ذلك الذي يتكلم من أنفه، ولا أعرف كيف امتلك أبوه تلك الفراسة الهائلة لكي يسميه: ناطق».

وهكذا عاد ريتش إلى بغداد مع أول أمطار الشتاء، ولم تعرف بغداد بعودته إلا بعد بضعة أيام، أما السراي فقد وصلها الخبر في نفس الليلة، ومن أكثر من مصدر!

128

لم يصدق ريتش أن كل هذا التغيُّر قد حصل أثناء غيابه، فبناء السراي يرتفع يومياً، لأن العمل فيه يتواصل منذ ساعات الصباح الأولى ولا يتوقف إلا بحلول الظلام. بوابات بغداد جددت وأعيد تنظيم الحراسات عليها. الجسر الخشبي وُسّع ودُعمت جوانبه، بحيث أصبح قادراً على استيعاب عربتين واحدة في الذهاب وأخرى في الإياب. عدا الجانب الأيمن الذي خصص للمشاة. أما الأسواق، أما عدد من الميادين، فقد أصبحت أكثر نظافة وتنظيماً من قبل.

كانت هذه البداية، وكان رجال الباشا يواصلون العمل دون انقطاع. ورغم الضرائب التي فرضت على التجار وأصحاب الأملاك، خاصة الكبيرة، فإن الشكاوى كانت خافتة، وتقتصر على أفراد، لأن حركة البيع والتجارة نشيطة وفي ازدياد. أكثر من ذلك، بدأ التجار يسافرون إلى أماكن بعيدة، ويأتون بأشياء جديدة لم يسمع بها أهل بغداد من قبل. كما أصبح يصل إلى المدينة عدد من التجار الأجانب يزيد شهراً بعد آخر. وهؤلاء بالإضافة إلى الأشياء التي يبيعونها، كانوا يبحثون عن وكلاء لهم أو عن شركاء، وبمقدار ما كانوا يجلبون من السلع الجديدة، لم يكونوا يترددون في شراء سلع كثيرة من أسواق بغداد والمدن الأخرى. اشتروا الجلود، والعباءات والفضة، اشتروا الصمغ وعرق السوس، وكميات غير قليلة من البهارات والأشياء المجلوبة من الهند. أما السجاد بأنواعه، فكان له أربابه، وغالباً ما تجري عمليات تبادل واسعة في هذا المجال.

أما الشيء الذي لم يصدقه ريتش فذلك الانتظام الصارم أثناء زيارته للسراي، بدءاً من حراس البوابات وانتهاء بالذين يقدمون الغلايين. لقد تغيرت الأشكال والهيئات، ملابس موحّدة للمجموعات حسب مواقعها أو حسب الوظائف، وكلها في غاية الاتقان واللياقة، وكأن هؤلاء ادخلوا دورات أو استبدلوا بغيرهم أكثر كفاءة.

زيارة ريتش للسراي كانت للمجاملة، وليرى بعينه كيف أصبح الباشا بعد هذه الفترة الطويلة من الانقطاع.

أبلغ قسم التشريفات برغبة القنصل زيارة الباشا. جوزيف الديراني الذي قام بنقل الرغبة وطلب تحديد الموعد، ولأنه لا يعرف المجاملة مثل بطرس يعقوب، اكتشف أيضاً أن صفوت قرداغ رسمي ومحايد مثله، إذ بعد كلمات مجاملة قليلة، سأل بوجهه قبل أن يسأل بلسانه عن سبب الزيارة، وما كاد يُبلّغ حتى فتح سجلاً كبيراً، كان موضوعاً على طاولة جانبية، وبعد أن دقق فيه ملياً، قال وخرج صوته محايداً:

ـ الثلاثاء الساعة الرابعة بعد الظهر.

ولم يزد كلمة واحدة. الديراني هز رأسه موافقاً وغادر.

وإذا كانت نية ريتش أن يحوّل الزيارة إلى حدث، خاصة وأن الاستقبالات التي جرت له في الشمال لا تزال تضج في رأسه، فقد عزم أن يكون موكبه حافلاً. أوعز لرجاله بنشر الخبر، طلب من ميناس أن يهيىء المرافقين وأن يجري لهم تدريباً وثانياً، طلب أن تُعدّ أفضل خيول الاسطبل. أما الفرقة الموسيقية التي ظلت أنغامها تصدح في محيط الباليوز فقد قُصد من ذلك التنبيه، وأيضاً للتغلب على الضجة التي يحدثها العاملون في بناء السراي الجديدة، فالأصوات خليط من الهوسات والنداءات، وتُسمع من مسافة بعيدة، خاصة في الصباح الباكر وعند الغروب.

ورغم أن أهل بغداد لم يروا موكب القنصل منذ فترة طويلة، أو على وجه التحديد منذ أن زار السراي ومعه قائد السفينة، خمّاس أو خميّس، كما أصبح الكثيرون يطلقون عليه حين يتذكرون تلك «البلية» وزيارتها قبل

شهور طويلة، فإن الفضول الذي لمسه ريتش وهو ينظر إلى الناس في الشوارع، دونما توقع، إذ التفت الذين سمعوا دوي الطبل أولاً، ثم حين اقتربت الفرقة الموسيقية، وعادوا بسرعة إلى ما كانوا فيه. ومما زاد في الفتور الذي خيم على الطريق الذي مرّ فيه، أن رجال الباشا زجروا الصبية عن متابعة الموكب، بل وضُرب عدد منهم، مما أخاف الآخرين، وجعل غيرهم يرقبون الموكب عن بُعد.

كان وجه الباشا وهو يلتقي القنصل، محايداً، هكذا أراده الباشا، أما ريتش فقد رأى في ذلك الوجه مكراً مخاتلاً وكأنه يرتدي أكثر من قناع. بادره الباشا بكلمات تحمل معانٍ كثيرة. قال له وهو يشد على يده:

ـ لقد افتقدناك كثيراً طوال الفترة الماضية، يا سعادة القنصل!

شكره ريتش على هذه العاطفة، ولم يجد كلمات كثيرة يقولها، فابتسم.

تابع الباشا بذات النبرة:

ـ أقدّر أن طقس بغداد خلال الصيف قاسٍ، خاصة على من لم يتعود. . .

واصل ابتسامته الصغيرة، وهو يضيف:

ـ حتى الذين تعودوا على طقس بغداد، فقد كان هذا الصيف أشد حرارة من سنوات سابقة، ولولا مشاغلي الكثيرة لفعلت مثلك، يا سعادة القنصل، وذهبت إلى الشمال!

لا يعرف ريتش كيف يجيبه، فهو ليس متأكداً ان كان جاداً ويعني ما يقول، أم أنه يعرّض به، وكأنه يتهمه أن ليس لديه عمل إلا الذهاب إلى الشمال ليثيره عليه، ويخلق له المشاكل.

رد ريتش بكلمات زلقة:

ـ لم يكن الشمال بارداً كما افترضت، يا فخامة الباشا، وربما كانت أيام كثيرة لا تقل بحرّها عن بغداد، خاصة في السليمانية!

ـ فقط خلال ساعات الظهيرة، يا سعادة القنصل، ثم إن هواء الجبال

منعش، ويصبح الجو أطيب وأكثر برودة كلما اتجهت نحو الشمال الشرقي!

أحسّ ريتش أن الباشا يقول له، بطريقة غير مباشرة، أنه يعرف أين ذهب، وأين وصل، وبمن التقى. أكثر من ذلك، قدّر أن للباشا عيونه في كل مكان، وهؤلاء لا ينقلون إليه الأخبار فقط، بل ويختلقون الكثير. لكن ماذا لو أن بين رجاله بالذات جواسيساً ينقلون للسراي كل الأخبار؟

مرت هذه الأفكار والهواجس في رأسه، وكان يستمع إلى الباشا يحدثه عن جمال الشمال وبرودته ومياهه العذبة وشلالاته التي تتساقط من أعالي الجبال. وريتش يعلّق، يذكر بعض الأماكن، فيبتسم الباشا حين يسمع طريقة لفظه، وكانت طريقة أهل الشمال في نطق الحروف، بالترقيق أو الإمالة، ولا يترك الباشا ان يساء فهم تلك الابتسامة، إذ يقول، وهو يصحح بعض الكلمات، أو كما يرددها أهل وسط العراق:

ـ لقد اتقنت أكثر مني، يا سعادة القنصل، لفظ بعض الأسماء والكلمات على طريقة أهل الشمال!

ويقارن الباشا كيف يقول أهل بغداد بعض الحروف وبعض الأسماء، وكيف ينطقها أهل الشمال، ويضيف بمداعبة ماكرة:

ـ وربما من الأخطاء التي لا أغفرها لنفسي أنني لم أتعلم اللغة الكردية بطريقة منظمة، كما أن الإقامة الدائمة في بغداد، ما عدا فترات قصيرة في الشمال، لم تتح لي أن أعطيها ما تستحقه من اهتمام لكي أتقنها مثلك!

قد يكون في هذه المرة، أكثر من كل المرات السابقة، يكتشف ريتش أن الباشا ليس ماكراً فقط، بل وبالغ الدهاء وشديد الكتمان. ماذا يريد أن يقول له الآن؟ وكيف يجب أن يرد على هذا القدر من الوخزات التي يوجهها إليه؟ قال لنفسه، وقد صمم أن يلعب معه بذات الطريقة «هؤلاء الشرقيون كثيراً ما يتصورون أن كسب المعارك الكلامية كسب للحرب، وبالتالي يخطئون في فهم الآخر».

قال للباشا، في محاولة للرد:

ـ أعرف أنكم، يا فخامة الوالي، قضيتم وقتاً في الشمال، لكن لا أدري ماذا تسنى لكم أن تشاهدوا هناك؟

ـ لقد قضيت وقتاً قصيراً، نسبياً، هناك، ثم إنك تعرف في أية ظروف، وبالتالي لم أرَ إلا القليل!

ـ لكن ما مررت بمكان، وما التقيت أحداً، إلا والجميع يلهج باسم داود باشا!

ومع أن ريتش أراد من هذا اللقاء أن يكون للمجاملة، وأن يبقى كذلك، إلا أن الباشا، وقد استغل لحظة صمت ليسأله بعدها حول التكاليف التي يقدرها كي يصبح النهران صالحين للملاحة حتى الأعالي القصية، وفي تبرير ذلك أشار إلى أن هذا المشروع إذا تم يُسهل وصول البريد والبضائع من اسطنبول إلى بغداد والبصرة.. وربما أبعد من ذلك.

وريتش الذي لم يكن مهيئاً للإجابة، رد أن الأمر يحتاج إلى دراسة ميدانية، وحالما يوافق الباشا على الفكرة يمكن أن يُطلب من لندن إرسال فريق متخصص لدراسة المشروع، وأكد أيضاً أن بريطانيا العظمى مهتمة بالأمر.

وانقضى اللقاء دون أن يتطرق الباشا لموضوع السلاح، مع أن ريتش رغب لو أن الحديث تناوله، إذ عن طريقه يمكن أن تكون بداية لإحكام الطوق، والوصول إلى نتائج محددة.

قال ريتش للباشا، وهو يودعه:

ـ سوف يقوم أحد موظفي الخارجية بزيارة بغداد خلال فترة قريبة، ولديه رغبة أن يلتقي فخامتكم، واعتقد أنه ستتاح لنا في هذا اللقاء مناقشة أمور تهم بلدينا، وآمل وأتوقع، أن تكون النتائج ايجابية.

تعمد أن يقول الكلمة الأخيرة ليشعر الباشا أنه فوّت على نفسه فرصة ثمينة ولا بد أن يحاول استدراكها في مرة قادمة.

الباشا الذي ودَّعه حتى الردهة الخارجية من السراي، تعمّد أن يسير معه هذه المسافة، خلافاً لمرات سابقة، لكي يشعره بالثقة، وليقول له انه

من النبالة والقوة بحيث لا يخاف مما حصل، وأن ما يعنيه هو الآتي!

أما ريتش، الذي رافقه صفوت قرداغ حتى البوابة الخارجية، فقد بدا مستغرباً أن أموراً كثيرة حصلت أثناء غيابه: الحدائق الغنَّاء؛ النظافة؛ الحرس المنظم؛ حتى المكان الذي وقفت عنده الخيول أُعدّ بطريقة لا تخلو من اتقان وجمال؛ بما في ذلك الفسحة الواسعة التي خصصت للمرافقين والحرس.

أثناء العودة، كان الوقت غروباً. بدأت الأسواق تقفر، وأغلب المتاجر أغلقت أبوابها. الهواء البارد يهب، الظلال ترتخي فوق الأشياء، الصور في ذهن ريتش تتداخل وهو يعتلي صهوة جواده الأسود. قال لنفسه وهو يعبر البوابة الرئيسية للسراي: «الشرقيون مغرمون بأمرين: الماضي والكلمات الكبيرة، ثم بالتدريج يصبحون عبيداً لهما. قد يقرؤون التاريخ أكثر من غيرهم، لكن بسرعة يحولونه إلى كلمات ضاجة، ويستريحون في ظلال تلك الكلمات. لا يعرفون أن الماضي ذهب إلى الأبد ولن يعود. كما لا يدركون أن الزمن الذي يعيشونه حالياً يختلف، وهذا ما يجعلهم سكارى تائهين، فلا هم في الماضي ولا هم في الحاضر، وإن ما كان صحيحاً أو قوياً في الماضي لم يعد كذلك الآن. ومن هذا الطريق يمكن أن نصل إلى تحقيق ما نريد. إذ في الوقت الذي يعتبرون أنفسهم ورثة أكثر من حضارة وأكبر امبراطورية، إلا أن الحضارة كالنهر لا تعرف التوقف، ولا تثبت على حال، وهذا سر قوتنا الآن!».

وإذا كانت الشكوك قد سيطرت على ريتش منذ أن عرف بتفاصيل محاكمة الآغا عليوي، وكيف أن الباشا وظف عدداً لمراقبته، ونقل كل حركاته وسكناته، فقد أصبح ميالاً إلى عدم الاعتماد على العناصر المحلية إلا في أضيق الحدود، وأخذ يفكر بالاستعانة بقوى لا يملك الباشا عليها أي سلطان. فكر بكرمنشاه وتوثيق العلاقة معها، ثم تشجيعها لأن تفعل شيئاً. فكر بباشا مصر، وإغرائه ليكون العراق مجالاً لطموحاته وفتوحاته. فكر بالاستعانة بالإدارة في الهند، إذا لم تتحمس لندن بالمقدار الكافي،

خاصة وأن الضباط الذين كانوا يأتون من الهند لا يخفون رغبتهم أن تواصل بريطانيا فتوحاتها، وأن تعبّر عن قوتها، عملياً، بعد أن تخلصت من نابليون.

ولئلا يبقى متردداً، باشر الاتصال لمعرفة مدى استعداد هذه الجهات.

كتب رسائل عديدة إلى الإدارة البريطانية في الهند، وقد ضمّن هذه الرسائل معلومات واسعة عما يزخر به العراق من الخيرات، إضافة إلى ما يشكّله من أهمية للامبراطورية. وأشار إلى الطريق البري الذي يختصر الوقت والجهد من أجل الوصول إلى الهند. كما لم ينس الحديث عن الآثار التي تملأ البلد من أقصاه إلى أقصاه، وبالتالي الثروة التي تشكلها لبريطانيا فيما إذا نقلت إلى هناك.

وكتب إلى سفارته في اسطنبول كيف أن داود باشا ليس له من همٌ سوى مراقبة دار المقيمية، ومنع الوصول إليها، من خلال التضييق والتهديد، وأن عدداً من الموظفين يتعرضون إلى الأذى، وهذا ما جعله يصطحب بطرس يعقوب، لئلا يتعرض للاضطهاد على أيدي رجال الوالي، وأن الأمر قد يطال الآخرين مستقبلاً. كما أشار إلى أن داود باشا يحمل الضغينة لكل من يخالفه في العقيدة الدينية أو في الموقف السياسي. وقد أسر للقنصل زعماء الطوائف بذلك، خاصة في منطقة الموصل. لذلك يطلب من السفارة في اسطنبول أن تفعل شيئاً كي تضع حداً لمواقف التمييز، ولا بد من شرح كل هذه الأمور لأصحاب القرار هناك، علّهم يغيرون هذا الوالي، أو يضعون حداً لطموحاته، والتي قد تطال اسطنبول ذاتها في وقت لاحق. وأشار مجدداً إلى عدد من التقارير التي أرسلها سابقاً، إضافة إلى التوضيحات التي قدّمها أثناء زيارته الأخيرة لاسطنبول.

ولأن ريتش ليس من رجال الدواوين الذين يكتفون برسائل يدبجونها لرؤسائهم، فقد قرر إيفاد منياس والديراني، كلٍ في اتجاه. أوفد ميناس إلى كرمنشاه، ومنها إلى طهران لمقابلة السفير، وأوفد الديراني إلى مصر.

كان يتمنى لو يذهب بنفسه، لكن غيابه الطويل عن بغداد، ثم أن قيامه

بهذه الأسفار بنفسه يثير الشكوك، خاصة وأن الباشا لا يتركه لحظة واحدة. أما الرجال الذين سوف يوفدهم فيمكن أن يفلتوا من الرقابة، ثم أن مهمتهم حمل رسائل، وإيضاح بعض الأمور. وهكذا أُعلن أن ميناس يرافق أمه لزيارة أختها في بوشهر، هذه الأخت التي شارفت على الموت، وقد انقضت عشرون سنة لم ترها خلالها. لم يكن منياس راغباً بهذه الرحلة، «لكن الجنة تحت أقدام الأمهات» هكذا قال، وهو يفسر سفره، حين سئل في قهوة الگمرك، التي تردد عليها أياماً متوالية قبل السفر.

أما الديراني الذي تعمد أن يلتقي بعدد من الأصدقاء في قهوة مراد، فقد تكلم بوجد واستفاضة عن الملاك الذي جاءه في عدة ليال متوالية، وطلب منه أن يزور كنيسة القيامة، وأن يقدم قرباناً هناك، لعلّ الله يمنّ عليه بذرية، ولا يهم أن تكون من الإناث أو الذكور! وهذا ما جعله يحزم أمره ويقرر السفر، بغض النظر عن رضا القنصل أو غضبه، لأن «الأولاد في هذه الدنيا هم قرة العين، وهم الاستمرار والذكر الطيب!».

قال ريتش لميناس يوصيه:

ـ. . . وتقول للشاهزاده: كل يوم إضافي خسارة جديدة؛ وإذا كان له، حتى الآن، كلمة في الشمال، فإن داوود يسعى للسيطرة على الأول والتالي. وداود إذا تمكن لا يُعرف ماذا يفعل وإلى أين يمكن أن يصل!

ميناس الذي هز رأسه موافقاً على كل كلمة قالها ريتش، سأل:

ـ وإذا سألني الشاهزاده عن صادق أفندي والشاوي وثامر بن حمود؟

ـ تقول له: البدو كلهم مستعدين، بس البدو، وحتى جماعة الشمال، لا يتجرؤون على الثورة وإعلان العصيان إلا إذا تأكدوا أن الشاهزاده أعلن الحرب على داود، عندها، هم وغيرهم، وحتى الناس العاديين في بغداد يمكن أن يكونوا ضد داود.

ووافق ميناس مجدداً على ما قاله ريتش، لكن بوادر الحيرة، وربما الشك، ظهرت على وجهه. حين رآه ريتش هكذا أضاف بانفعال:

ـ وأنت تعرف تفاصيل كثيرة، ورأيت بعينك أثناء رحلة الشمال. الناس

ضد داود، لكن أكثرهم خايف، غير متأكد، فإذا لم يجدوا سنداً قوياً قد يخمد حماسهم، ويجوز مع الأيام ما تكون عندهم قدرة على المقاومة.

وهكذا اتفق الاثنان على تفاصيل كثيرة، وضرورة اقناع الشاهزاده أن يبادر إلى عمل ما، وبسرعة.

أما وقد استعد ميناس للسفر، فقد قال له ريتش وهو يودعه:

ـ لا تنسَ تسلم على الخالة، ولا تنسَ تداري «العجوز»، لأنه خلال غيابها ما راح نأكل حلويات مثل ما تعودنا. . .

وأضاف ريتش بعد قليل وبمرح:

ـ ويجوز تعرف يا ميناس أفندي أن مثل الايرانيين بصناعة الحلويات ما تلقى بالدنيا كلها، ومثل ما تنتظر ماري أنواعاً جديدة من الحلويات، فأنا انتظر «حلويات» من نوع آخر، فارجو أن لا تتأخر علينا، وأن تأتينا بحلويات كثيرة!

أما بالنسبة لجوزيف ديراني، وقد أوصاه أن يتصل هناك بهنري دايتون، الذي سيصله بالأشخاص الذين لهم علاقة بباشا مصر، أو بأحد أبنائه، فقد قال له ريتش في محاولة للاستمرار بالتمويه:

ـ ولا تنس أن تكثر الهدايا من القدس وبيت لحم، لأن الناس لا يصدقون إلا بأعينهم، فحين يرون الصدف وخشب الزيتون، وإذا جلبت عدداً من الأزياء النسائية المشغولة باليد، فإن الجميع سوف يصدقون أنك كنت هناك، وانك تمتلىء بعبق بخور الأديرة المقدسة، والنساء اللواتي ستصل إليهن هذه الأزياء سوف يكنّ البرهان الحاسم أين كنت، وماذا فعلت، فالملابس حين تُرتدى وحدها تتكلم بصوت عالٍ!

وسافر ميناس؛ وبعد ثلاثة أيام سافر الديراني. وقال الناس في قهوة الگمرك أن ميناس سيرجع من بوشهر بالحلويات والسجاد. أما في قهوة مراد، فقد قال الأسطة:

ـ زيارة بيت المقدس الأمل والمنتهى، ونيّاله اللي يزور!

129

صادق أفندي، ابن سليمان الكبير، بعد أن ترك بغداد خلسة، وتحالف مع ابن الشاوي، كان يراهن على صمود البدو في الفرات الأوسط، وقد حاول الكثير أثناء المعارك لتحريض القبائل الأخرى ودفعها إلى مواجهة قوات الباشا، مع وعود كثيرة بالأموال والخيول والأراضي فيما إذا عاونوه ليصبح والياً لبغداد، لكن بعد الهزيمة التي منيت بها القبائل، أسقط بيد صادق، واضطر أن يلتجىء إلى الأهوار أولاً، ثم واصل طريقه نحو الجنوب.

قال الذين عرفوا أن صادق يواصل طريقه نحو الجنوب، وربما يلتحق بقبيلة لام:

ـ أولاد سليمان أصابهم النحس من يوم ما عادوا داود، وإذا سعيد انقصّ راسه، وصار أثراً بعد عين، فمصير صادق ما راح يكون أحسن!

قالوا هذا، وأفاضوا بذكر الحوادث التي مرَّت، وأكدوا أن داود يمكن أن يغفر لكثيرين، وقد ينسى أشياء كثيرة، لكنه لن يغفر لأي من أبناء سليمان، لأن هؤلاء هم المنافسون الفعليون، كما لا ينسى من يخونه، لذلك إذا ظفر بصادق فسوف يجعله أمثولة، لأن صادق ينافسه، ولأن صادق بعد العناية والرعاية، خانه وتنكر لكل أفضاله.

هذا ما قيل في أعقاب معركة الفرات الأوسط، لكن بمرور الأيام نسي الناس صادق وانقطعت أخباره، وما كان أحد ليتذكره لولا الظهور المفاجىء لعباس اسطنبول في بغداد.

لم يصدق أحد الخبر في البداية، خاصة في صوب الكرخ. وفي محاولة لنفي احتمال مثل هذا تصدى أكثر من واحد ليقول:

ـ لو ابن الحجية داس بغداد، أول ما يدوس قهوة الشط؛ والله يخلق من الشبه أربعين!

أما بعد أن جاء من يؤكد أن عباس اسطنبول شوهد أكثر من مرة وهو يدخل إلى السراي، أو يخرج منها، فقد قال سيفو، وهو يقلب شفتيه:

ـ عباس سر ببير يا جماعة الخير، وهذا مو من اليوم، صار له سنين، وإذا فد شي فاته تعلمه بقعدته الطويلة باسطنبول!

ولمّا ذكر أحد الذين يسمعون أن الحجية رابطت خلال شهر شعبان في مقام الشيخ عبد القادر، لمعرفتها أن الباشا سيزور المقام، وما أن رأته حتى وقعت على رجليه تبكي وتتوسل ليعفو عن ابنها، وبعد أن عرف، قال، وسمعه الذين حوله:

ـ من تلفات الدنيا جبناه وقلنا له: تعال وصير آدمي. أعطيناه ودللناه، لكن ما صفّى ويانا النية.

ولما ارتفع صوت بكائها، وألحت بالرجاء، التفت الباشا إلى خلف وقال له:

ـ لخاطر العجيّزة عفينا عنه، سجل اسمه يا خلف، ودزوا عليه خليه يجي.

ورغم العفو، وإذا جاء، فلا يمكن تفسير تردده على السراي إلا بعمليات التحقيق والاستنطاق التي خضع لها، الأمر الذي لم يمكنه من رؤية أمه أو الوصول إلى صوب الكرخ.

مرت بضعة أيام، والإشاعة عن وصول عباس اسطنبول تتردد، إلى أن قبضت عليه خارجاً من السراي زينب كوشان! كان مع اثنين من الضباط، يتكلم ويضحك. وإذا كانت زينب لم تميز ملامحه بدقة، فقد عرفته من صوته وإشارته، ومن ذلك الهرج الذي يخلقه أينما ذهب. هجمت عليه وأمسكته من ثيابه، الأمر الذي أدى إلى تناثر الأوراق التي كانت تحملها،

قالت بصوت مرتجف:

- إذا ما كذبني ربي أنت ابن الحجية، صدق لو لا؟

وعباس الذي فوجىء، نظر إليها بإمعان ليتأكد. ما أن عرفها حتى صرخ:

- هلا.. ومية هلا بالخالة زينب، شلونك؟ شلون كيفك؟ شلون الجماعة كلهم؟

وانكبّ عباس وأحد زملائه يجمعون الأوراق التي تطايرت، وزينب التي كانت فرحة ومرتبكة ومستغربة، قالت، وخرج صوتها كالصراخ:

- جيت والله جابك، يا عباس الورد، وهسه صارت قضيتي يمك، فأريد مروتك، وايدي بحزامك!

ولأن عباس يعرف مشكلة زينب كوشان، ولا يعرفها، قال، بعد أن جمع الأوراق:

- تؤمرين خالة، وكل شي تريدينه يصير!

- وهذول ربعك، النشامة، أولاد الحلال، يعاونوك.

وتطلعت بإمعان إلى الأول ثم إلى الثاني، علّها ترسّخ الملامح في الذاكرة، على أمل أن يساعد أحدهما أو كلاهما في حل مشكلتها! بعد أن وعدها عباس خيراً، وأكد لها أنه سيهتم بحل المشكلة، سألته:

- صار لي أيام وشهور لا شفتك ولا شفت الحجية؛ ما تقول لي وين صرت؟ جاك ولد لو بعد؟ صار عندك بيت ملك؟

ولم تنتظر ان يجيبها، تدفقت من جديد:

- وانت، يا ابن أختي، تعرف القضية من الأول للتالي، فما أريد أوصّيك، وآني إذا شفت الباشا، بصايتك وبصاية ربعك، وما أن يسمع الكلام اللي أقوله حتى يطلّع من حزامه المهر ويدمغ الأوراق كلها من الأول للتالي، ويصيح على مختار المحلة ويقوله: ترجّعوا القاع لأصحابها، وبعد اليوم ظلم ما أريد. سمعت؟

ووعد عباس أنه سيساعدها بكل تأكيد، لكن يريد أن تمهله بضعة أيام،

وأنه سيمر عليها ويراها في الكرخ، ولا حاجة لأن تتردد على السراي، كل يوم. ردت باستغراب:

ـ بابا. . عباس، ترى صار لي شهور وسنين أريد أشوف الباشا، وكل يوم يقولون لي باچر، فلا تچذّب عليّ مثلهم وتقشمرني. لا تقول لي: اقعدي بيتك وحقك يوصلك، لأن مثل هذا الكلام هوايه سمعته، وقلبي خزّن من هذي السوالف. . .

واستعادت بعصبية الأوراق من يده ويد زميله، وقالت، وبدا صوتها مختلفاً:

ـ من هسه قول لي: تقدر لو ما تقدر؟ إذا تقدر قول، وإذا ما تقدر قول، لأن الله ما يسد باب إلا ويفتح ألف باب!

ـ خلص. . خالة زينب، وكِّلي الله، وما يصير إلا كل خير!

ـ وشوكت أشوف الباشا وأقول له عن الأول والتالي؟

رد أحد زميلي عباس:

ـ إذا سألت عني بعد أيام، حجية، آني أتولى المسألة.

ـ بابا. . إنت منو؟ إنت شنو؟

ـ آني صديق عباس، واسمي طاهر متولي، وانشاء الله أقدر أساعدك!

وتحرك الثلاثة، لأن وقوفهم قد طال، وبدا لهم أن النقاش دون جدوى. وسُمعت كلمات وأسئلة كثيرة، لكن لم تكن واضحة.

كانت زينب كوشان أول من أكد وصول عباس الحجية إلى بغداد، لأنها رأته بنفسها. ولم تتأخر في العبور إلى جانب الكرخ، وقد بدت متهللة أقرب إلى الفرح. أما عندما توقفت عند قهوة الشط، لتشرب، خلافاً لمعظم النسوة، فقد قالت للأسطة عواد:

ـ ترى ابن المحلة، عباس، ابن الحجية، صار يحكم ويرسم بذاك الصوب!

ـ شلون، يا معودة، قولي!

ـ لو تعرف شلون تلقاني، يا أبو نجم! تلقاني بالهلا والمرحبا، وويّاه

عسكر داود، وقال لي: قضيتك خالصة، وبين يوم والثاني راح تصيرين زنقينة.

وبعد قليل وبمرح يمازجه الحزن:

ـ إنت تعرف يا أبو نجم.. الفلوس مو بعيني، لكن ما أحب الظلم والقشمرة. والفلوس اللي راح تجيني راح انطيها للي يستاهلها، للفقرا واللي ما عندهم خبز يومهم!

ـ عفية يا خيّرة، يا بنت الأصل!

وترك لحظة صمت، وكانت زينب تبتسم وتحلم، ثم سألها:

ـ وليش عباس شامر خشمه وما قال لجماعته: مرحبا؟

ـ علمي علمك، يا أبو نجم...

وبعد قليل:

ـ ليش ما جا؟ ما مرّ وقال مرحبا؟

ولما رأت هزات رأس الأسطة عواد، دلالة الأسف، ولتأكيد أنه لم يمر ولم يره أحد، قالت وخرج صوتها عميقاً:

ـ من يومي أقول: هذول جماعة السراي أبد ما يتصدقون، يسولفون هواية، يضحكون، يواعدون، لكن قبض ماكو!

بعد هذا الحديث السريع، قامت زينب كوشان مذعورة، قالت، وهي تتعثر بخطواتها:

ـ من رخصتك، أبو نجم، ترى البزازين هسه ميتة من الجوع!

في اليوم التالي جاء عباس اسطنبول إلى صوب الكرخ. مرّ على قهوة الشط. سلّم بسرعة وغادر. قال للذين طلبوا منه البقاء:

ـ ما لي وجه يا جماعة الخير، لأن الحجية إذا عرفت اني قاعد بالقهوة، قبل ما أشوفها، تخبص الدنيا، فخلوني أشوفها أول نوبة، وبعدين أجيكم!

وجاء في اليوم التالي، مع أن كثيرين توقعوا مجيئه في الليلة السابقة، وقد انتظروا لكن الأسطة اسماعيل قال للذين ينتظرون، وهو يهم بالمغادرة:

ـ هذا عباس، وأنا أعرفه كلش زين، إذا قعد بفد مكان ينسى نفسه، تاخذه الهرجة، حتى روحته لاسطنبول، وانتو تعرفون، وهو بروحه قال: زيارة عزا: الفاتحة وقهوة مُرَّة، وأبوكم الله يرحمه، وأجيكم، وانقضت سنين قبل ما يرجع، فلا تنتظروا!

قال عباس، وقد وصل إلى القهوة بين العصر والمغرب، حين سئل متى وصل بغداد:

ـ بغداد مثل الأفيون، يا جماعة الخير، ما تغيب من البال. . . وأبد ما تُنسى!

وبمكر خفي أخذ يحدّث الذين سألوه كيف تورط بمشاركة بعض البدو بصفقة غنم، مما اضطره للذهاب إلى الحلة لمعرفة مصير هذه الغنم، ولما نشبت الحرب لم يستطع أن يعود، فبقي هناك، ثم مدّد إقامته مرة بعد أخرى إلى أن تخلّف الغنم، وحين وجد الفرصة مناسبة عاد!

وبطريقته الماكرة أخذ يسأل عن الأصدقاء، ماذا حل بهم، وأين أصبحوا. كان يسأل عن كل فرد، ويتذكر، ويروي، ويستعيد أيام اسطنبول، بحيث لم يستطع الكثيرون أن يعرفوا أين كان على وجه اليقين، وكيف أو لماذا عاد.

ولما سئل من جديد عن السراي وزينب كوشان، رد وهو يضحك:

ـ ما تقولوا لي يا جماعة شنو راح تسوي بالفلوس إذا حصّلتها؟

وانطلق يتحدث عن زينب كوشان، كيف كانت وكيف هي الآن، وقال انها امرأة حزينة. وذكر أنه التقى برجل في اسطنبول كان يربي القطط أيضاً، وكان رجلاً حزيناً، لأنه فقد زوجته وثلاثة من أولاده، إذ غرق بهم المركب، ومنذ أن صحا من الغيبوبة التي وقع فيها نتيجة صدمة الحادث، أقسم أن يربي عدداً كبيراً من الكائنات التي خلقها الله، ولم يجد سوى القطط، وهكذا صرف حياته وثروته في العناية بالقطط، وكان لا يدعها تغادر البيت، إلى أن جاء يوم ومرض، ولما جاعت القطط أكلته!

وفي آخر سهرة المقهى، قال للذين حوله، انه مضطر للعودة إلى الحلة

لكي يحاسب شركاءه، مالكي الغنم، ويعود نهائياً إلى بغداد.

وبعد فترة لم تطل عرف أن رسائل عديدة تم تبادلها عن طريق عباس اسطنبول بين داود باشا وصادق بك. وقبل أن يبدأ ربيع السنة التالية عاد صادق إلى بغداد، بعد أن عفا عنه داود. وقيل إن عباس اسطنبول كان الوسيط في هذه العودة.

بعودة صادق قال الناس: أعداء داود سلّموا أو صاروا تحت التراب، ومن اليوم راح تصير بغداد درة الدنيا، ومن يعش يرَ!

130

وأقبل الشتاء مبكراً هذه السنة، هطلت الأمطار بغزارة، لكن ما أن صحا الجو حتى اندفع الفلاحون للزراعة، وخرجت القطعان إلى البراري، وزادت التوقعات أن تكون هذه السنة من سنوات الخير. ومع أن الأمطار كسرت حدّة البرد، إلا أن الفقراء استمروا يرددون أن برودة بغداد قاسية إلى درجة لا يوجد لها مثيل في مكان آخر! قالوا هذا وتذكروا لسعات المياه الباردة وهي تلامس وجوههم صباحاً، أو عدوانية الفراش أول ما يدخلون فيه. كما عاودهم ذلك الشعور بالكمد وهم يستقبلون الصباحات الشتوية. أما حين تذكروا الأمطار الغزيرة وهي تتوالى، فقالوا إنها تشبه انصباب القرب، مع ما تخلّفه من أوحال وزلق وصعوبة الانتقال من مكان إلى آخر، وقد تأتي أيضاً بزودات للنهر قبل أوانها، مع ما تحمله من أضرار وخوف.

لكن رغم المشقة والذكريات لم يتخلَّ الناس عن تفاؤلهم. وما زاد التفاؤل أكثر أن التجار، خلافاً لعادتهم في مطلع كل شتاء، لم يرفعوا أسعارهم، ولم يلبسوا ثيابهم القديمة، كما ظلت الابتسامات تملأ الوجوه! وأهل بغداد يعرفون الأخبار عن طريق التجار أكثر مما يعرفونها عن طريق غيرهم، ليس من خلال الكلام الذي يقولونه، وإنما بطريقة التصرف. إذا ابتسموا بتحفظ فإن الأسعار على حالها لم تتغير. إذا ابتسموا وبانت أسنانهم الذهبية، فمعنى ذلك أن الأسعار تغيرت وقد تميل إلى الهبوط. أما إذا أرفقوا الابتسامات بالسؤال عن الأهل والأصدقاء، وببعض الأمازيح، فالأسعار هبطت بكل تأكيد، لكنهم يريدون أن يتكتموا على ذلك،

فيبتسمون ويفيضون بالود ليغروا بالشراء، والأفضل أن تتم الصفقة دون مساومة، أو حتى دون سؤال، لأن ذلك يريح الطرفين، أو كما يجيب التاجر رداً على سؤال، للتغلب على التردد والممانعة:

ـ على بختك يا معود، سعرنا مثل قبل، ونحن معاميل مو من البارحة، واليوم، صار لنا سنين.

أما إذا تلبدت وجوه التجار مثلما تتلبد صفحة السماء بالغيوم، وبدوا غير مستعدين لأي حديث، حتى لو كان سؤالاً عن الصحة، وحين تبدو المتاجر فارغة، أو أقرب ما تكون إلى الفراغ، فهذا يعني أن الأسعار ارتفعت، وقد ترتفع غداً أكثر، مما يجعل التجار نزقين، وعلى من يريد الشراء أن يفعل ذلك فوراً أو أن يمشي.

هذه السنة بقي التجار يوزعون ابتساماتهم مع تحياتهم على كل قادم جديد. كانوا يضعون كراسيهم عند أبواب المتاجر، وكانوا يتبادلون الأحاديث بأصوات مرتفعة، ولا يترددون في إطالة الحديث مع الذين يشترون أو الذين يساومون.

ولأن الرصافة، أو أسواق محددة فيها، هي التي تتحكم بالأسعار، فإن تجار الكرخ لا تصلهم الأصداء إلا متأخرة، وقد لا يستجيبون إلا بعد أن يمر وقت طويل، الأمر الذي يدفع أعداداً متزايدة من الكرخيين لعبور النهر من أجل شراء الحاجات بسعر أرخص. كانوا يفعلون ذلك بنوع من التكتم، وبغير قليل من المكر، لئلا يغضبوا تجار الكرخ، وبحجة أنهم يشترون لمن أوصوهم من خارج المدينة، أو يشترون تموينا للسنة كلها!

من جملة الذين عبروا النهر، بعد أن عرف بفارق الأسعار، الأسطه عواد، وقد أقنع سيفو أن يرافقه بهذه «التجرة»، كما أطلق على ما ينوي شراءه من السكر والقهوة والشاي والتنباك. ومع أن الأسطة ارتدى ثياباً جديدة، أقرب ما تكون إلى ثياب العيد أو مقابلة الحكام، فقد تعمد التظاهر أنه آتٍ للسوق للزيارة وليس من أجل الشراء! وحين توقف عند بعض معارفه من التجار، وبعد أن خاض في أحاديث متنوعة، سأل، عرضاً، عن

الأسعار، بحجة المعرفة والمقارنة بين أسعار السنة الحالية والسنين التي مضت! كان يفعل ذلك، ويغمز لسيفو منبهاً للفرق بين واحد وآخر. وسيفو الذي كان بعيداً عن هذا الجو، ولا يعرف التفاصيل، لم يستطع أن يخفي استغرابه، وبعض الأحيان دهشته، مع أن التجار يبدون مهارة فائقة لتبرير الأسعار المرتفعة التي يطالبون بها، مرة لجودة البضاعة، ومرة لطريقة حفظها كي لا تلحق بها الرطوبة، وبالتالي يزداد وزنها؛ مع التعريض أن تجاراً آخرين لا يفعلون ذلك، وهذا ما يجعلهم يوافقون على سعر أدنى «لكن ما يعطونه بيد يلقفونه باليد الثانية، وهذا لا يقبله دين ولا ناموس!».

سيفو طوال الجولة كان مراقباً، كان يسمع دون أن يتكلم، ومع كل وقفة عند تاجر جديد يزداد عجباً.

حين جلسا عند أبو ساره، وكيل عزرا، وقد تعمد الأسطه عواد المرور عليه، ولما ذكر الأسعار التي يطلبها للشاي والقهوة، وكانت أعلى من الآخرين، داس الأسطه عواد على رِجل سيفو، في محاولة للتنبيه، لكنه أخطأ وداس رجل أبو ساره، وحين تكرر الأمر أكثر من مرة، انفعل أبو ساره، وقال بحدة:

- ترى الرِجل التي تدوس عليها، أبو نجم، هي رِجلي، مو رجل غيري!

حاول الأسطه عواد الاعتذار، وأوضح أنه أصيب خلال الفترة الأخيرة بداء النقرس، ولم يعد يتحكم بحركة رجله اليسرى، «وإذا طخت رجلي برجلك، أبو ساره، فبليا قصد، وماكو غاية». وفهم أبو ساره الإشارة بأكثر من معنى!

لما رجع الاثنان إلى صوب الكرخ ببضاعة قليلة، لا تعادل مشقة الرحلة، قال الأسطه عواد في محاولة للتبرير:

- تجار الشورجة كلهم يضحكون، وضحكة الواحد منهم شبر، فقلت لروحي: مجنون اللي يشتري اليوم، لأن الأسعار راح تنزل أكثر وأكثر.

ولما رأى الشك والاستغراب على وجه سيفو، استطرد:

ـ إذا شفت اليهودي مدلغم، وما يضحك لخبز التنور، فاعرف أنه خايف، وخوفه من الخسارة اللي صارت أو من الخسارة اللي راح تصير!

سأل سيفو بطريقة استنكارية:

ـ ما تقول لي، أبو نجم، هذي تجارة لو نهب؟

وبعد قليل، كأنه يحدّث نفسه:

ـ والقواويد كلهم يحلفون ويتكفرون!

ـ والشريف بيهم ماكل الأخضر واليابس!

التفت سيفو إلى أكثر من جهة، وقال، وهو يغالب ابتسامة ماكرة:

ـ ترى أبو ساره خاف على روحه. قال لنفسه: بعد طخة الرِجل هذي ما يندرى شنو اللي يصير!

ـ لا تخاف عليه، يا معود، لأن كل شي يجر فلوس زين وما يخالف!

وغرق الاثنان في استعادة المشاهد التي مرت بهما، لكن فجأة نهض سيفو وهو يقول:

ـ لازم أمشي يا أبو نجم، لأن صار وقت أكل الخيل...

وقبل أن يحكم شد حزامه، قال، وقد تذكر شيئاً:

ـ الحمد لله والشكر لأن الحاج صالح بطّل التجارة!

ابتسم الأسطه عواد، ورد بمرح:

ـ تيسر على شغلك أبو فلاح، وآني راح أشتري سكر وشاي يوم بيومه، أحسن ما أشتري وأكوّم، لأن الواحد ما يدري شنو اللي يصير باچر وعقبه!

ـ وتنفّع جماعتنا بهذا الصوب أحسن، يا أبو نجم، لأن واحدهم ينشلع قلبه حتى يحصّل فلس انقص من هذول الظلاّم.

واتجه سيفو إلى بستان المتولي.

وبستان المتولي تحول خلال الشهور الأخيرة إلى جنة صغيرة، إذ بعد أن أقيم إسطبل الخيل في الجهة الشمالية، بُني مشتمل في الجهة الجنوبية المقابلة، وقد قُصد منه في البداية أن يكون استراحة للحاج صالح حين يأتي إلى البستان، ثم ما لبث أن أصبح مكان إقامته الدائم.

بعد مضي عدة أشهر على إقامته هناك، لا يُعرف كيف أمكن إقناع أم قدوري بزيارة البستان، ترويحاً عن النفس، وهرباً من المشاحنات التي أخذت تتزايد في البيت خلال الفترة الأخيرة.

ما أن وصلت أم قدوري، وحين رأت البستان والمشتمل والحديقة، أحست أنه لا ينقص هذا المكان إلا المرأة، كي تهتم به وتزيل عنه تلك المسحة الخشنة التي تميز الأماكن التي يقيم فيها الرجال بمفردهم، وتضع حداً للفوضى التي تغيب عن الرجال أغلب الأحيان، لأنهم يعالجونها بطريقة بدائية سريعة، أو لا يعتبرون وجودها ذا بال. ما أن رأت أم قدوري الوضع هكذا، وفي لحظة تيقظ فيها حس المرأة ومسؤوليتها، حتى قررت أن تبقى مع الحاج صالح.

قالت فطيم التي جاءت مع أم قدوري في هذه الزيارة:

- قبل ما نطبّ البستان هفّت ريحة الرازقي، ريحة تحيي القلب، ومعها ريحة الورد والريحان، والخضرة شلون خضرة.. ما يندار الآدمي إلا ويشوف الخضرة كأنها عرق النعناع، تفوح وتضوي من كل صفحة، والجهنميات معربشة على الحياطين، على الشجر، توّج. شفت هذي الشوفة، وبعد ما امتلا صدري بهذي الريحة، قلت: صلوات على محمد. وحتى أبو فلاح، يا جماعة الخير، بذاك البستان صار غير آدمي. حاط دشداشته بحزامه، ولازم المسحاة بإيد وبالثانية السطل يرش الزرع. باوعت وسألت روحي: هذا سيفو لو واحد غيره؟ وقبل ما يشوفنا، سمعت صوته، كان يغني، وهو يفتر ويندار على الزرع عبالك شاب ابن عشرين!

ولأن الصور متداخلة وسريعة لم تستطع فطيم أن تواصل رسم المشهد، خاصة حين رأت الحاج صالح جالساً على كرسي واطىء أمام ذلك الساحر، الذي لا يُعرف إن كان ملاكاً أم عفريتاً، بشعره الأبيض ولحيته الكثيفة، وهو يعجن الطين كما يُعجن الطحين. كان الحاج صالح يضع ذقنه على يديه، وقد جعل عصاه متكأً لهما، ويتابع ما يفعله ذنون.

نعيم الذي كان يقود المجموعة، أمه وأخته نعيمة وفطيم، وقد تعمد أن

يمر بهن على أغلب جوانب البستان، لتكون المحطة الأخيرة عند أبيه وذنون، وقد دخل بهن إلى المشتمل أيضاً، وكان يشير أكثر مما يشرح، ويحاول أن يقرأ الانطباع في حدقات العيون.

حسون أول من انتبه للحركة غير العادية، كان في الإسطبل، وربما الخيل هي التي نبهته، إذ ما كادت ترفع رؤوسها وتتشمم الهواء، ثم تتلفت، حتى أحس أن أحداً أو شيئاً حواليه، لما خرج وسار خطوات رأى الجمع، صرخ مرحباً وكي ينبّه الآخرين:

ـ هلا ومية مرحبا. . هذا يوم مبارك.

كان حسون حائراً لا يعرف هل يتقدم نحو الضيوف ليرحب بهم أم يبلغ الآخرين بوصولهم، فوجد نفسه ينادي:

ـ عمي أبو قدوري، أبو فلاح، وينكم يا جماعة!

لأول مرة منذ وقت طويل أحس الجميع أن شيئاً ما قد حدث، ولا بد أن يكون كبيراً أو مختلفاً، وإلا لَما صرخ حسون بهذه الطريقة. وأطلوا.

ابتسامة الحاج صالح كانت كبيرة. تطلع إلى الوجوه واحداً بعد آخر ولم يتكلم، لكن عينيه وهما تتركزان على أم قدوري شعر أن مقداراً غير قليل من الحزن الذي استبد بها خلال الفترة الماضية بدأ يتراجع. صحيح أنه لم يسقط، لكنه لم يعد كما كان من قبل.

نعيمة ونعيم كانا يوزعان نظراتهما بين أمهما والأب، وقد عادا إلى أيام قديمة، إلى الأيام التي سبقت الحزن وذلك السواد الذي لم يلف البيت وحده بل ولفّ الأرواح كلها وجعلها كامدة، أقرب إلى الضياع.

سيفو الذي أنزل دشداشته، ترك المسحاة، والتقط غصناً صغيراً يابساً، وجاء على مهله. قال في محاولة ليخلق جواً من الألفة والود:

ـ زارتنا البركة يا أم قدوري. . .

والتفت إلى نعيم وتابع بمرح:

ـ اللي يطوّل الغيبات يرجع بالغنايم يا أبو صالح!

ـ أكبر غنيمة زيارة أم قدوري، لو تريد أكثر، عمي سيفو؟

الوحيد الذي بدا غريباً ضمن هذه المجموعة هو ذنون. كان محرجاً، أقرب إلى الخجل، فلا يعرف هل يواصل عمله أم يتوقف، خاصة وأن شكله، وقد امتلأت ملابسه بالطين، بدا معفراً ولا يخلو من غرابة. كان نعيم يريد أن يقول لأمه من يكون ذنون، ولعل أقرب صورة خطرت له التمثال الذي لفته بلحاف العرس، لكنه أبعد الفكرة بسرعة، قال مخاطباً سيفو:

- لازم فد يوم، عمي أبو فلاح، ناخذ بلم ونسيّر على بستان سيد ذنون. . .

والتفت إلى أمه، وتابع بدعابة:

- بستان سيد ذنون بالأعظمية، بستان ياخذ العقل، ولازم فد يوم ناخذك ونروح، تزورين أبو حنيفة والكاظم، وهمين نتونس، وتكون همّ زيارة وهم ونسة!

والتفت من جديد نحو ذنون يسأله:

- شتقول أبو عمر؟

- مو على عيني، هاي أمنية أتمناها، واليوم قبل باچر!

أم قدوري كانت تسمع، لكن عقلها في مكان آخر، فقد أقلقتها فوضى البيت وقلة النظافة، وهذه الخشونة التي تتبدى في الكثير من الزوايا.

ما إن حلّت لحظة صمت حتى قالت لنعيمة بطريقة أقرب إلى الأمر:

- خفي رِجلك بنتي، خلينا نتعاون وننظف البيت، حتى يقدر الحجي يقعد ويرتاح.

- إنت ما عليك، حجّية، قالت فطيم، آني ونعيمة نساوي كل شي.

وقبل أن يتحرك أحد جاء حسون حاملاً الشاي، ومع الرشفات المتمهلة التي تتذوق باستمتاع الطعم والرائحة، ومع نظرات أم قدوري المستطلعة المشفقة، وفي لحظة صمت قالت، وكأنها تخاطب نفسها، لكنها تريد للآخرين أن يسمعوا:

- نزول عليّ، لأن مثل سوايتي ماكو أحد يسوي. . .

لما تعلقت بها الأنظار مستطلعة ما سوف تضيف أيضاً، قالت بأسى:

ـ الحجي قاعد بوحده، وما يندرى شلون ياكل، شلون يغسل، وعلى أيا جنب ينام، وآني كأنْ ما عليّ... ولا دايرة بال...

وتغيرت اللهجة تماماً، أصبحت حازمة، ولا تخلو من ود:

ـ يحرم عليّ بعد اليوم أن أترك الحجي...

وبالغت أكثر وهي تضيف:

ـ راح أشيل غراضي وأجي على البستان، شتقول حجي؟

ـ الزينة ما ينراد لها سؤال يا بنت الحلال؟

وبعد قليل وبمرح:

ـ واليوم قبل باچر!

ربما ندمت مهيبة، أم قدوري، على هذا التسرع، إذ يمكن أن تفعل ذلك على مدى أطول، ريثما تهيىء نفسها هنا وهناك، لكي تخرج من حالة إلى أخرى بهدوء، خلال فترة، لكنها وجدت نفسها تعطي هذا الوعد، ووجدت أنها تحب أن تفعل، لكن بعد أيام وليس فوراً، قالت وهي تحاول منح نفسها هذا المدى:

ـ اليوم نخلص من تحضير البيت، وباچر، إذا الله أعطانا العمر، أجيب هدومي وأجي!

حصل هذا في منتصف الخريف، أو ربما في أواخره. وذنون الذي وجد أن من غير اللائق الاستمرار في بستان الحاج صالح، برقت في ذهنه، لا يعرف كيف، اللحظة التي يعتبرها مناسبة كي ينسحب بهدوء، خاصة بعد أن ترك بستان الأعظمية فترة طويلة، اضطر خلالها تكليف أحد من أجل أن يعتني به، بعد أن قرر تأجيل ترميم البيت إلى وقت لاحق.

ما كادت النسوة تغادرن إلى المشتمل، حتى قال ذنون، بعد أن التقط العود من يد سيفو:

ـ بهذي الدنيا، يا جماعة الخير، أكو أشياء تجي وحدها، تصير وحدها، أو مثل ما يقولون: العبد بالتدبير والله بالتقدير.

صمت وطال صمته، حتى ظن سيفو أن سيد ذنون يشير إلى التحول الذي حصل لأم قدوري بإعلانها الرغبة في العودة إلى البستان. أما الحاج صالح فقد ذهب إلى أبعد من ذلك، وهو يتذكر كتل الطين بعد أن تُعجن جيداً، إذ ما كان ذنون يرفع الكتلة، يرميها في الهواء، ويردد سؤالاً بذاته: «ها، حجي، هذا الطين الأعمى، اللي تشوفه هسه، شنو اللي راح يصير بيه؟» لم يكن سيد ذنون يريد جواباً، ولم يكن أي منهما يملك الجواب، ولكنها العادة. حتى إذا صمت الحاج صالح يتابع ذنون: «خلنا نبلش، وبعدها نشوف شنو اللي يصير». ظن الحاج أنه سؤال من تلك الأسئلة، لكنه يبدو أن ما يقوله سيد ذنون الآن مختلفاً:

ـ ردت أقول فد شي قبل كم يوم، لكن شفت نفسي ضعيف وعاجز.

تركزت عليه العيون، حتى حسون الذي كان يهمّ بجمع معدات الشاي ويمضي إلى غسلها تباطأ ثم توقف. تابع ذنون بلهجة مختلفة وحازمة:

ـ وحق هذا العود والرب المعبود، كانت الكلمة على طارف لساني، لكن ما أعرف شلون أقولها. . .

هجم صمت واسع سُمعت خلاله الأنفاس، تابع ذنون:

ـ ردت أقول يا جماعة، مثل ما يقول ربعنا، بدو الموصل؛ البل حنّت. ردت أترخص منكم وأبلغكم أن بستان الأعظمية ما له أحد غيري، ولازم أروح، لكن قلبي ما طاوعني، والكلمة مثل ما قلت كانت على طارف لساني، لكن هسه، وبعد ما سمعتم أن أم قدوري راح تجي، وبعدما انحدرت الشمس، وصار الطين ما ينشف بالعجل، لازم نوقف، وسبحانه خلق لكل شي أجل وميعاد؛ وهسه طب الشتاء ولا بد من زرع وتقليم، ولازم استعد!

خيم صمت ثقيل، ولم يكن لدى أي من الذين يسمعون توقع أو تصور لما قد يفعله ذنون، وفي محاولة لأن يخلق جواً بعيداً عن الحزن، أضاف:

ـ وأنت، يا أبو صالح، وبلسانك، وعدتني بزيارة قريّبة، ومو وحدك، راح تجي وكل الربع، فلازم أتحضر، لازم أبيّض الوجه!

قال الحاج صالح، وجاء صوته حزيناً:

- بعد هذي العِشرة الطويلة، وبعد الخبز والملح، ينطيك قلبك، يا أبو عمر، تتركنا وتمشي؟ هاي شلون تصير؟ شلون تقبلها؟

- آني وين رايح حجي؟ كلها خطوتين، وكل يوم والثاني ما تشوفني إلا يمّك!

- وهذي المسائل اللي سويتها، وقسم منها بعده على النص، تتركها وتمشي؟

قال نعيم في محاولة للوصول إلى تسوية، وبطريقة لا تخلو من دعابة:

- شحده يتركها، شنو الدنيا صارت قوترة؟ لازم عليه يخلصها ويسوي غيرها...

وبعد قليل وبمرح:

- هذي خليها يمي، حجي، والشي اللي ما كمل لازم يكمله، مو هالشكل أبو عمر؟

- تؤمر مولانا، والشي اللي تريده يصير!

سيفو الذي ظل صامتاً، وكأن ما يقال لا يسمعه أو لا يعنيه، كان غارقاً في حالة من الحزن، فقد أصبحت علاقته بالخيل غير قابلة للانفصام، أما التماثيل التي يصنعها سيد ذنون فهو ليس مفتوناً بطريقة تشكيلها فقط، بل عاشق لها. كان يساعد في إعداد الطين، في حمل الأعمال لوضعها في الفرن. أما وهو يخرجها فإن فرحه بها كان يصل إلى درجة الزهو. أكثر من ذلك كان يتفنن في إعطائها الأسماء والأوصاف، ويبدو بعضها طريفاً، وقد لا يخطر ببال. أسماء أناس يعرفهم، وصفات يخشى من زعل الذين قد تشي بهم!

الآن، وذنون يعلن هذه الرغبة، تبدأ مرحلة جديدة لا يعرف خلالها كيف يتصرف، أو كيف يملأ الفراغ. قال بصوت تخنقه اللوعة:

- بعدما تعودنا عليك، يا أبو عمر، وبعدما تولعنا بالمسائل التي تسويها، ما أدري نقدر على فرقاك أم لا؟ نقدر نتحمل الطين يظل طين، ما

يتحول إلى عرق أخضر أو فد شي يحكي ويبكي ويقول سبحان ما خلق!

رد ذنون وهو يتظاهر بالمرح:

ـ لا تسويها فراقيات يا أبو فلاح، يرحم والديك؛ لأن الله ما يرضى بعد ما شفت بعينك وسمعت بإذنك، وبدل ما ترقص بچفّية على جيّة أم قدوري، تريد تسويها عزا...

توقف قليلاً، تماسك، وجاء صوته حازماً:

ـ حتى لو بقيت، حتى لو ما راح تجي أم قدوري، وإنت تعرف: بالشتا، بهذا البرد اللي يقص المسمار، ما ينفخر الطين، يتفطّر وينكسر، ومن كل بد لازم نوقف.

ـ آني ما أقصد اليوم وباچر، يا أبو عمر، أقصد الأيام اللي راح تجي بعدين.

ـ من هذي الناحية طمّن بالك، يا أبو فلاح، لأن عمرنا يخلص وهذا الشغل ما يخلص، فأريدك تشدّ حيلك وتلحقني!

ـ والخيل؟ الخيل منو إلها غيرنا؟

ـ لا تخاف، نلقى ألف طريقة، يا معود!

قال حسون بانفعال:

ـ عمي سيفو... الخيل خليها عليّ، آني أطلع لها راس، وما تكون إلا راضي!

وقف نعيم، وقال بمرح:

ـ يا جماعة.. القضية ما وصلت لهذا الحد، أبو عمر بدل البستان الواحد صار عنده بستانين، والله بسماواته يحب العدل والإنصاف؛ وهذا الفرن اللي سويناه هنا ما راح نخبز بيه كليجة وخبز عروق، هذا سويناه مثل ما راده أبو عمر، حتى يفخر المسائل الحلوة اللي تطلع من بين إيديه، وراح يبقى هالشكل، فلا تحسّب هوايه، عمي سيفو..

وضحك، وهو يتطلع إلى مجموعة من التماثيل والأواني التي وضعت على طاولة قريباً من الجدار، وتابع:

ـ وهذي راح تبقى يمنا رهن، وظني أن سيد ذنون إذا أنطاه قلبه وتركنا، ما راح يترك هذي المسائل اللي حط بيها دم قلبه، وقال: ما أبيعها لو أعطوني مال الدنيا.

ـ على بختك يا أبو صالح، هذي المسائل، واللي راح تجي همين، على حسابكم، ويحرم عليّ أبيعها، لأن القضية من الأول للتالي قضية واهس مو قضية بيع وشرا!

قال الحاج صالح العلو، وخرج صوته مسكيناً:

ـ ما ينراد أحد يوصيك، يا أبو عمر، لكن لازم تعرف فد شي. . .

خيَّم الصمت انتظاراً لما سيقوله الحاج صالح، وجاء صوته بنفس الوقع:

ـ وإنت تعرف. . والجماعة يعرفون، لولا الخيل، ولولا القعدة الحلوة وياكم، ولولا المسائل الحلوة اللي يسويها سيد ذنون، وصرت أحبها مثل الأولاد والخيل، يجوز انقطعت خبزتي، ويجوز ما شفتوني قاعد بينكم اليوم!

أحس نعيم أن أباه قال كلاماً خطيراً، وربما يبعث على الخوف، فعلَّق ببرود وبحزم:

ـ وكِّل الله حجي، وكل شي راح يصير مثل ما تريد!

131

من مصادر عديدة، وكان ريتش لا يزال في الشمال، أخذت تتوالى إلى السرايْ تفاصيل الرحلة إلى الشمال. كان بعض هذه التفاصيل دقيقاً، ما قاله ريتش وما قيل له؛ وبعضه مشوشاً، لكن إذا جمعت التفاصيل إلى بعضها، ثم ذلك الود الذي بدر من ريتش أثناء زيارته للباشا، وما قاله عن استعداد بريطانيا أن تستقدم فنيين لدراسة مجاري النهرين لتصبح الملاحة فيهما ممكنة حتى الأعالي القصية، كل ذلك أقنع الباشا أن القنصل تأكد بنفسه أن مصادقة الوالي أحسن له وأسلم من معاداته، خاصة وأن رهانه على عليوي سقط، وعصيان بدو الفرات انتهى في أعقاب الحملة. حتى صادق بك، ابن سليمان الكبير، وكان المنافس الوحيد والأخير للباشا، وبعد مفاوضات لم تطل، عاد إلى بغداد نادماً مستسلماً، حين منحه الباشا الأمان والعفو. أما الشاوي الذي فرَّ بعد الحملة، فقد غيَّبته الأهوار، وربما تاه هناك، ولو فكَّر بالعصيان مجدداً لن يجد من يستجيب له أو يعاونه، ولا بد أن يأتي يوم يقبض عليه، وسيكون أمثولة.

الباشا إثر كل انتصار يحكم قبضته على الجيش والإدارة، فبعد أن تخلَّص من الآغا عليوي، أجرى تغييرات كبيرة، إذ سلم الرجال الذين يعتمد عليهم المواقع والقيادات، ثم التفت إلى الإدارة والدواوين، كما سمى حكاماً للمدن والمناطق، وقد اختارهم بعناية ودقة، وكان ضمنهم بعض الذين عملوا مع الولاة السابقين، نظراً لخبرتهم، ولأن الكثيرين عرضوا خدماتهم لما تأكدوا أن داود جاء ليبقى، وأنه يختلف عن غيره من

الولاة.

وإذا كان الباشا قد أولى أكثر الشؤون اهتمامه، فلم ينس التجارة وطرق القوافل «لأن أهل العراق يصدقون أعينهم أكثر مما يصدقون الكلمات التي تقال لهم» كما قال لنفسه، الأمر الذي يقتضي توفير الحاجات الضرورية، وأن تبقى أسعارها دون ارتفاع، وقد اضطر لهذا الاعتبار أن يقرّب شيوخ القبائل الذين تمر القوافل التجارية في مناطقهم، وأن يجزل لهم العطاء، وكلّفهم بحماية الطرق وحراسة التجار. كما بذل جهداً من أجل إغراء هذه القبائل أن تعتمد على التجارة، ووعد الشيوخ أن يشتري الجيش معظم المواد التي تأتي عن طريق هذه القبائل، وأن يدفع لقاءها سعراً مغرياً.

أما الحاكم الذي اختاره الباشا ليتولى إدارة البصرة، فكان من أقرب الرجال إليه، وقد منحه الثقة والصلاحيات «لأن البصرة عين العراق وأذنه، كما قال له، ومنها، أو عن طريقها، تأتي أكثر التجارة، وعن طريقها قد تأتي البلايا» وناظم أفندي الذي وافقه على هذا الرأي، ووعد أن يكون عند حسن ظنه، قال بصوت مرتبك:

- إنشاء الله ما تشوف إلا الخير يا باشا، أما البلايا فأنا كفيل بها!

وكاد يضيف، إلا أن الباشا قاطعه بغيظ ساخر:

- ويجوز الله يلهم ابن الشاوي ويصل إلى هناك، وإنت تكون ناصب له الشرك.. وينصاد!

توالت هزّات رأس داود باشا، وهو يستعيد مواقف وملامح عبد الله الشاوي، وتابع:

- إذا ظفرت بك يا ابن الشاوي راح أسويك عجبة وعبرة لكل من يريد أن يقف في وجه داود!

بعد هذه الترتيبات التي اتخذها داود باشا بدا واثقاً ومتفائلاً. أما حين جاءت الأمطار مبكرة هذه السنة، واستمرت الأسعار على حالها دون أن ترتفع، فقد اعتبر بوادر الخير وأيام العز أقبلت، خاصة بعد التعب، الذي وصل حدود الإجهاد، خلال الفترة الماضية.

قال لفيروز في ضحى أحد أيام شباط المشمسة، وكانا يسيران في الحديقة:

- إذا الله أعطانا العمر والعافية، وبعد ما انتهت المشاكل، ترى هذه الولاية راح تصير جنة!

ابتسم فيروز، ورفع يديه إلى السماء متضرعاً:

- يا مالك الملك، يا معطي يا مجيب، استجب لعبدك داود ومكّنه في الأرض وحقق أمانيه!

تشجّع الباشا واسترسل، كأنه يحدث نفسه:

- أهل العراق خوش أوادم، يا فيروز، شرط أن الواحد ما ينطّخ برزقهم أو كرامتهم. إذا أعطوا يعطون بلا حدود، وإذا حاربوا سباع؛ ومع أن وجوههم عابسة، وبعض الأحيان كلامهم نتر، إلا أنهم من جوا مثل الأطفال بحبهم وضحكهم. إذا أحبوا يحبون بصدق وبلا حدود، وإذا كرهوا... الله يستر!

- نسيت فد شي يا أفندينا!

توقف الباشا فجأة ونظر إليه، ولم تخل نظرته من حدّة وتساؤل.

تابع فيروز، وقد حاول أن يعطي كلامه مقداراً من التسامح:

- ما ينطون ثقتهم إلا نقطة.. نقطة، حبّاية وراء حباية، أما إذا انلدغوا فالله أكبر!

- تمام، لأن الملدوغ يخاف ويحسب ألف حساب!

- وليلهم غير النهار يا أفندينا!

- شلون؟

- بالليل يا أفندينا يمكن تتفاهم وياهم، يسمعون أحسن، يسمعون أكثر، ويجيهم عقل الرحمان. أما بالنهار فتشوف الواحد منهم مدلغم، ضايج، ويريد يتكاون ويّا ذبان وجهه، وبعد العيني والآغاتي يا الله يرد السلام!

الباشا الذي هزّ رأسه متفكّراً، وربما موافقاً، قال كأنه يحدث نفسه:

ـ الواحد منهم مثل الجوزة، باطنه غير ظاهره، وأبد ما ينحزر عليه!

اعترضت الشمسَ غيمةٌ في السماء فحجبتها، وتبدد الدفء قليلاً. رفع الباشا رأسه نحو السماء ليرى مقدار الغيمة. رآها مثقلة بظلال تتراوح بين البياض المشع والسواد القاتم.

قال ليغير الموضوع:

ـ والبك.. شنو أخباره؟

ـ يترس دماغه بدوا الأرمن وعلى الشجر يعلق خلقان، يا أفندينا، لأنه خايف من الفيضان الجديد!

ضحك الباشا وسأل:

ـ دوا الأرمن افتهمنا ليش، بس قضية الخلقان هاي شنو؟

وشرح فيروز للباشا أن واحدة من القضايا الهامة التي شغلت الكيخيا خلال الفترة الأخيرة، أو بالأحرى منذ دخول الشتاء، أنه وشمسي أميني يحضران ثياباً خلقة، وبعد أن يُقرأ عليها وتبخّر، تعطى لرسل مكلفين بسلوك طريق النهر، صعوداً حتى الموصل، وعند أماكن سُمّيت لهم، وعند منعطفات النهر، هناك تعلق الثياب والخرق على الأشجار، لتمنع جنون الماء وتحدّ من الفيضان، لأن شمسي أميني أكد للكيخيا أن أعداداً من الجن غافلت الملائكة حارسة المياه ودخلت إلى النهر، وهي التي تجعل المياه تجن وتسبب الفيضان، ومن شأن الثياب المقدسة أن تخيفها، وتمنعها من تجاوز حد معين!

كان الباشا يستمع لما يفعله كيخياه وهو يهز رأسه حزناً وأسفاً، وما أن انتهى فيروز، وبعد أن مرت لحظة صمت، خرج صوته من أعماق صدره:

ـ غلطنا بزمانًا وكلفناه...

وبعد قليل ارتسمت ابتسامة حزينة على وجهه:

ـ أفندينا بأول غزواته انكسرت عصاته؛ فقلنا لروحنا إذا ما يفيد للحرب يجوز يفيد لرد الفيضان، لكن تساوت هذي مع ذيك، تساوت القرعة مع أم الشعر، فالله يستر!

كانت السحابة كبيرة فظلت حاجبة للشمس، ومع احتجابها سرت في الجو برودة قارصة، وبينما هو متوجه للداخل، قال لفيروز:

ـ تقول لخلف يصيح الشاعر التميمي، خليه يوافيني الليلة، بعد صلاة العشاء!

كانت من عادة الباشا، إذا ضاق صدره، أن يستدعي عدداً من الشعراء ليتطارح وإياهم الأشعار والحكايات، وليدخل معهم في تلك المباريات حول إعراب بعض الكلمات، والمناسبات التي قيلت خلالها قصائد معينة، وما أعقبها من تعليقات وطرائف، وقد يطلب منهم إسماعه آخر ما نظموه من قصائد!

في هذه الليلة التي وافاه التميمي، وبعد أن تحدثا في أمور عديدة، وتوقفا عند عدد من الشعراء، والقصائد التي قيلت في أعقاب حملة الفرات الأوسط، كان الباشا يرغب بلقاء عدد من الشعراء، خاصة وأنه لم يلتق بهم منذ وقت طويل، مع أن عطاياه لهم لم تتوقف، ليقول لهم إن المرحلة الجديدة تقتضي إسهاماً من الشعراء لكي يحرّضوا الناس على المشاركة في مساعدة الدولة من أجل البناء والتنظيم، خاصة وأن الولاية مقبلة على عهد من السلم والالتفات إلى الإعمار بحيث تصبح بغداد، من جديد، عاصمة الدنيا، وقبلة العلماء والشعراء، ومركزاً للتجارة، ومحجّاً للسواح والزائرين. ولكي تصبح بغداد هكذا لا بد أن يبذل الصغير والكبير، الغني والفقير، الجهد والدم والعرق، والشعراء قبل غيرهم هم الذين يستطيعون أن يخلقوا مثل هذا الحماس عند الجميع.

قال الباشا للتميمي وهو يودعه:

ـ والشعراء ليسوا هم أول من يرفع راية الحرب فقط، بل وأن مهمتهم أيضاً: إعادة بناء روح الإنسان!

حين يتذكر الشعراء الذين حضروا اللقاء القديم بداود باشا، بعد أن أصبح والياً، ويقارنون ذاك اللقاء بما يشهدونه الآن يأخذهم العجب، لأن كل شيء تغير. . . عدا داود باشا! يقولون ذلك وقد تملكتهم الدهشة بعد

أن رأوا الحدائق الغنّاء، التنظيم المتقن، الجمال الذي يحيط بهم، وأيضاً الهيبة التي تجلل المكان.

فداود باشا الذي التقاهم في المرة الأولى بديوانه، وكان بانتظارهم، وقد بدا خجولاً أقرب إلى الارتباك، لم يزايله الخجل هذه المرة أيضاً، لكن استطاع أن يتغلب عليه بعد دقائق من اللقاء، وقد استقبلهم في «قاعة القناصل»، كما يطلق على القاعة الكبيرة التي يستقبل فيها كبار موظفيه وضيوفه، خاصة الأجانب. إذ بعد أن أدخل الشعراء إلى تلك القاعة، ومكثوا هناك وقتاً غير قصير، تغنُّوا خلاله بجلال وجمال ذلك المكان الذي تميز بجدرانه وأثاثه واتساعه، وبعد أن تبادلوا فيما بينهم الأحاديث القصيرة، همساً، فُتح أحد الأبواب الجانبية بحركة سريعة، لكن متقنة، ودخل الحرس والمرافقون، وتبعهم على التو الباشا!

قال الشعراء للذين سألوهم بعد هذا اللقاء، وقالوا فيما بينهم إن داود باشا، يعرف كيف يصغي، إذا أصغى بدا كأنه في محراب، مرهف كالسيف، يشتعل ذكاء كالجمرة التي لا تنطفىء، فيضيء كله ويضيء ما حوله. أما إذا تكلم فيحار الإنسان كيف استطاع أن يكتشف تلك الكلمات التي يعرفها الجميع، لكن تختبىء أو تضيع حين تمسّ الحاجة إليها، والتي وحدها الجميلة والمعبرة، أو وحدها التي تفي بالغرض. يتكلم بهدوء كأنه يقرأ في كتاب، أو كأنه حفظ الجواب على سؤال توقعه أو قرأه في وجوه الذين يجلسون أمامه أو حواليه. أما الشواهد الشعرية التي أتى بها فطالما رددها الكثيرون ثم غابت من الذاكرة. صحيح أن المرء يحس بها تهوّم حوله، تقبل وتدبر معاً، لكنها عصية كالخيول قبل أن تروّض، وقد تأتي مفاجئة كالفيضان، وتظل محوّمة مدوّمة!

هكذا قال الشعراء مسحورين بما سمعوا. أما التحيات التي تبادلوها مع الباشا، وتلك التعليقات التي سمعوها منه أو قالوها له، فسوف ينقضي العمر دون أن ينسوها، ولا بد أن تتغير، بالإضافة والتهذيب؛ وهم يروونها مرة بعد مرة، إلى أن تصبح بالقوام الذي يرضيهم، ويرضي، فيما بعد، من

يسمعها تتردد مرة بعد أخرى!

أما ما قيل عن المرحلة الجديدة، ودور الشعر فيها، فهذا ما كان يفكر فيه الشعراء تماماً، هكذا قالوا، وكان عدد منهم، بل كل واحد فيهم، يريد أن يقول هذا للباشا، لكنه سبقهم وقاله قبلهم!

قال واحد من الشعراء في اليوم التالي، وبعد أن عرف بالاسم الذي يطلق على القاعة التي تمّ فيها استقبالهم:

ـ والله لو كنت أعرف، لطلبت من الباشا أن يسميها بدل قاعة القناصل بديوان الشعراء.

وضحك بسخرية، وهو يضيف:

ـ منو هذول القناصل اللي الواحد ما ينعرف منو قرعة أبوه إذا تقارنوا مع الشعراء؟

رد آخر، وكانوا يجلسون في قهوة الجسر:

ـ القنصل، مولانا، مثل دلأل بسوق الهرج؛ صوته عالي، وعروق رقبته منفوخة مثل الحبال، ينادي ويصيح وكأن اللي يبيعه ملكه، فإذا تمت البيعة يطلع له من الجمل إذنه، وأبوك الله يرحمه!

ـ مو بس هالشكل، مولانا، هذا اللي تشوفه منفوش مثل الديك، الله أعلم أنه ببلاده ما يسوى بارة، أما إذا استعفى أو مات فهذا، مثل ما قال شيخنا، بالفلسين مردود.

وسُمع واحد من بعيد يقول بحدة:

ـ اتركونا يا جماعة من هذول الخرندعية، لأن اللي يظل يهجس بالطنطل ترى يطلع له!

وعاد الحديث مجدداً إلى اللقاء الذي جرى مع الباشا، وكيف أن الملابس التي كان يرتديها بسيطة أقرب إلى التقشف، خلافاً لسعيد باشا وحمادي، وأما الجمال الذي ميز السراي والحرس فمن أجل هيبة الدولة، وحتى يحترمها الصديق ويخشاها العدو. أما حين أخذوا بالحديث حول ما يجب أن ينظمه الشعراء، ورغم وضوح الكلمات التي قالها الباشا، فلم

يعرفوا كيف يمكن التعبير عن هذه الأفكار، أو ماذا يقولون. وإزاء هذه الحيرة، الأقرب إلى الاستحالة، قال أحد الشعراء وهو ينهض:

ـ الشعر يا جماعة يجي وحده، وبليا ما يحس الواحد، وكلكم تعرفون هذا الشيء؛ أما إذا صار بأمر وفرمان فيطلع مثل طيز الشادي، فخلونا هسه بالطاس والكاس، وبعدها ما ينعرف شنو اللي يصير بتوالي الليل!

والباشا الذي تعوّد أن يقضي لياليه مع صفوة من رجاله، كان يبدأ نهاراته مع محسنة. فقد تعودت الصغيرة أن تستيقظ مبكرة، وتسبقه إلى الغرفة الجنوبية المطلّة على الحديقة، حيث يشرب هناك قهوة الصباح. صحيح أنه ينهض مع الفجر لأداء الصلاة، لكنه غالباً ما يعود إلى النوم من جديد، إذا لم تثقله الأفكار والهموم، حتى إذا شعشع الضوء يتجه إلى الغرفة الجنوبية، وتكون محسنة قد سبقته بقليل، أو تلحق به بعد قليل، ومعها، في أكثر الصباحات، نائلة خاتون.

خلال فترة القهوة، وقد تمتد لساعة أو تزيد، هو يشرب قهوته على مهل، وهي تشرب الحليب، تبدأ رحلات لها أول لكن لا تنتهي، وكلها حكايا من حوادث اليوم والأفكار والأحلام، مما تفكر فيه الصغيرة، أو ما حلمت به، أو سمعته، وهو ما اختزنته ذاكرته وما قرأه في الكتب وما علّمته تجارب الأيام. وإذا كان الكثير من الذي تقوله الصغيرة أسئلة خطرت ببالها في التو، أو أسئلة اكتنزت بفكرها، فإن أسئلتها أخذت تكبر مع الأيام، وتصبح أكثر إحراجاً.

في الصباح التالي للقاء الباشا بالشعراء، وربما لأنه توسم، أو لعله رغب، أن تكون محسنة شاعرة ذات يوم، فقد كانت بداية حديثة معها عن الشعر والشعراء، قال لها إنهم أناس عظماء، يقولون أشياء جميلة لا يستطيع غيرهم أن يأتي بمثلها. إنهم يسهرون الليل كله بحثاً عن كلمة، وهم يكتبون ويمزّقون، إلى أن تستقيم لهم الأمور، وما يصلون إليه يبلغ حد الخلق والإعجاز.

ربما استعمل الباشا في حميا الانفعال والإعجاب كلمة «الخلق» أكثر

من مرة، والتقطت الصغيرة هذه الكلمة، وبدأت تسأل:

ـ بابا.. آني منو خلقني؟

ـ ربنا، سبحانه وتعالى، خلقك يا بنتي؟

ـ وأختي زكية؟

ـ ربنا يا بنتي!

ـ وليش خلقني مقرّمة وهي تمشي؟

ـ راح تمشين، يا بنتي، بس اصبري، كلها كم شهر وتمشين!

ـ لكن هي أصغر مني وتمشي!

ـ إنت تمرضت لما كنت صغيرة، والمرض أثّر عليك، وربنا راح يخليك تمشين فد يوم.

ـ وإنت منو خلقك، بابا؟

ـ همين ربنا خلقني.

ـ وأمي وباجي نائلة وخدوج؟

ـ ربنا خلق كل الناس، يا عيني؟

ـ والبزونة مالتي منو خلقها؟

ـ همين ربنا يا حبيبتي.

ـ وربنا، بابا، منو خلقه؟

مع أن الباشا تجاوز الخمسين ببضع سنوات، ورغم التجارب القاسية التي تعرّض لها في حياته، والإحراجات التي كانت تواجهه، خاصة حين كان مجاوراً في مرقد الشيخ عبد القادر، وكان يلقي دروساً هناك، وحين يسأل أحد البسطاء أسئلة ساذجة، لا يخلو بعضها من إحراج، كان يجد لها الأجوبة المناسبة ويقنع الذين يسمعون. الآن لا يعرف ماذا يقول لمحسنة، أو كيف يقوله.

لما خيّم الصمت، وعيون الصغيرة متعلقة به، تنتظر أن يجيب، قال وهو يحتضنها:

ـ بس تكبرين، يا بنتي، راح أشرح لك كل شي، وراح تفتهمين!

ـ صرت كبيرة، بابا، وأعرف أعدّ من الواحد للمية بليا غلط، وبالعجل.

وأخذت محسنة تعد. عصر الحزن قلب داود باشا، وهو يسمع الأرقام تتردد. كانت تتتابع واضحة في البداية ثم أخذت تتداخل، وحماس الصغيرة يزداد.

وفجأة، ولا يعرف داود باشا كيف تذكَّر أنه لما كان صغيراً شاهد قريبة للعائلة تحمل طفلاً كان يبدو كبيراً، لكن رغم ذلك لا يمشي مثل بقية الصغار، والأم تحمله من مكان إلى آخر. ويتذكَّر داود حين سأل أمه عن ذلك الطفل أجابته أنه مريض ويعجز عن المشي، لكن لم تمض فترة حتى شفي الطفل. لم يره يمشي، لكن أمه قالت هكذا، أو ربما لم تقله، وإنما تخيله، وقد يكون توهمه الآن فقط، وهذا ما جعله يرتدّ إلى زمن قديم، قديم جداً، بحيث تبدو الصور والملامح غائمة، متداخلة، ومليئة بالعتمة، كأنها حلم.

سألت محسنة أباها، وقد تجاوزت أرقاماً كثيرة لتصل إلى المائة:

ـ صدّقت بابا أني صرت كبيرة؟

استعادته من مكان بعيد، وهي تسأله. رد وكأنه يكلم غيرها:

ـ صدّقت، وباچر أو عقبه راح تعدين حتى الألف!

لأول مرة، منذ سنوات طويلة، شعر داود باشا بالحنين لأيام قديمة، لأهله، للأماكن التي رآها صغيراً. صحيح أن مشاعر من هذا النوع كانت تعاوده بين فترة وأخرى، لكنه كان حازماً في طيّها، في إبعادها عن مخيلته، إذ كثيراً ما يلجأ لأن يشغل نفسه بأمور راهنة، بوقائع تثير مشاعر مضادة، كأن يتذكر خصومه الحاليين، القضايا التي تتحداه الآن، وكان من شأن هذه المشاعر أن تطغى على غيرها، وأن تحرّض في داخله مشاعر مختلفة.

هذه المرة، ورغم أنه فكر بأمور كثيرة، وجد نفسه يعود مرة بعد أخرى إلى الأيام القديمة، وربما يكون سبب ذلك قصة الطفل الذي رآه عاجزاً عن

المشي ثم مشى.

لم يجد صعوبة في الإيعاز لنائلة خاتون أن تأخذ الصغيرة وتمضي، علّ المشاعر التي سيطرت عليه تنتهي. ومع أنه شغل نفسه بأمور كثيرة ذلك اليوم، وحاول أن يتذكر خصوماً عديدين، وتوقف طويلاً عند سعيد وحمادي، تذكر تصرفاتهما وطريقتهما في إثارة الكثيرين ضده، وتلك الإشاعات السوداء التي يطلقانها، خاصة عن طفولته، إلا أن مشاعر الحقد تصل إلى حد معين ثم تتوقف. حتى الآغا، سيد عليوي، الذي خلق له من المشاكل الكثير، لم يستطع أن يثيره الآن، أو يطغى على المشاعر الأخرى.

في تلك الليلة وجد نفسه محاصراً بقضية واحدة: أن يكتب لأمه. يجب أن تأتي لزيارته، ولو ليوم واحد. فقط يريد أن يراها، أن يسمع صوتها. سوف يقبّل وجهها ورأسها، سوف يمازحها، ويروي لها كيف عاش منذ أن وصل إلى بغداد. لكن فجأة شعر أنه عاجز ومليء بالخيبة، فالمرأة التي أحبها أكثر من أي إنسان آخر، ويحمل لها هذا القدر من الاعتراف والامتنان، لأنها حملته في بطنها تسعة شهور، وأرضعته، وعلّمته أولى الكلمات، وسهرت عليه الليالي، وقالت له، بالهمس والعيون، كيف تحبه؛ هذه المرأة التي يحمل لها كل هذا الحب، لا يعرف الآن كيف يخاطبها، كيف يقول لها ما يشعر به، بعد أن نسي لغته، لغتها، وأصبحا غريبين؟

لقد سبق أن كتب لأمه، وتلقى منها أجوبة على رسائله، وكانت مليئة بالشوق، لكنها لم تقل له، ولو من بعيد، أو بكلمات واضحة، أنها ستأتي. قالت إنها لا تزال تتذكره وتحبه، وتأسف لبعده، وتأسف أكثر لأنه غيّر دينه، وأنها، رغم البعد، مستمرة في إشعال الشموع في كنيسة القرية، طالبة من الله أن ينقذ روحه، وأن يجعله كما تريد.

وداود الذي استلم رسائلها، وبعث إليها، وإلى إخوته، بعض الهدايا، أكّد لها أن مشاغله تمنعه من السفر لرؤيتها، لكن سيبذل أقصى جهده لتلبية

ئل ما تطلب، وألحّ عليها مجدداً أن تبذل جهدها لكي تأتي لزيارته.

بعد ذلك، ولفترة طويلة، لم يكتب ولم يتلق أية رسائل. كانت نهاراته، وكذلك الليالي، مليئة بالمشاغل والهموم، مما اضطره إلى تأجيل الكتابة، خاصة وأن المسافرين الذين يتوجهون إلى جورجيا قليلون، ويريد مسافرين يمكن أن يسلموا الرسائل باليد، وأن يحملوا معهم الهدايا، ولم يتوفر له أحد من هؤلاء، واستمر يؤجل مرة بعد أخرى.

أما في هذه الليلة، وبعد أن استبدت به حالة من الجموح، وتذكّر كل شيء، فلم يستطع أن يستمر في التأجيل. لا يزال يتمنى حضورها، وإذا خانته الكلمات في التعبير عما يريد أن يقول لها، حين يلتقيها، فسوف يترك لعينيه، لدموعه، أن تنوب عنه، وأن تقول كل شيء.

وهكذا وجد نفسه في تلك الليلة يكتب لها الرسالة التالية:

«من ملك بابل السعيدة، من ابنك داود باشا

أهديك، يا أمي مريم وافر التحيات، والأمل، كل الأمل في مشاهدتك، يا أمي.

أما بعد:

فقد تسلمت رسائلك جميعها التي كتبتها إليّ، والمرسلة عن طريق أرضروم، أو عن طريق رجل من بيت زوبالا شويلي. وسمعنا كل ما كتبت، والآن أكتب رسالة إلى والي القفقاس ليجعلكم من طبقة النبلاء، وأبلغت كاتبي السابق بيتر بكل شيء، ولذلك يمكن أن تصطحبوه معكم أثناء زيارتكم لوالي القفقاس، وأن تقولوا له، وتطلبوا، كل ما تريدون.

وأكتب الآن إلى أندريه زوبالا شويلي بهذا الصدد ليساعدكم.

أرجو أن لا تهملي، يا أمي، رغبتي في مشاهدتك، فتعالي إلى بغداد، لأني أريد أن أراك. ولا تفكري بأي شيء آخر. أقيمي حيثما تشائين، وسوف أحقق لك كل رغبة، بما في ذلك عودتك إلى الوطن بالإكرام العظيم، ومتى ما تشائين.

وأما بعد:

فأهدي أخي شيو وأولاده وأخوتي جميعاً تحيات كثيرة. ثم أهدي أخواتي تحيات كثيرة، وأرجو أن أنال الدعوات من قلبك الرحيم. الإنسان يأتي إلى الدنيا ويغرس الكرْم لينال ثمره، فأنتم غرستم الكرم ولم تنالوا ثمره، وأنا أطلب من أمومتك الرحيمة أن تقدري على زيارتي، فلا تهمليها، وصلٌ من أجلي يا أمي الرحيمة».

ابنك ملك بغداد داود باشا

كتب الرسالة بسرعة، وقد تذكر الطلب الذي بعثت به إليه أمه، وشعر أنه تأخر وقصّر كثيراً، لكن الأعباء التي تثقل كاهله، لا تترك له أن يفكر بأعز الناس إليه، وأن يحاول مساعدتهم. شعر، للحظات، أن السلطة عبء وقيد، وشعر، في لحظات تالية، أنه من خلال السلطة يستطيع أن يفعل الكثير، وأن الكثيرين ينتظرون مثل هذه المساعدة.

ونام تلك الليلة، لكن نومه كان متقطعاً، مليئاً بالكوابيس. وقد تأخر كثيراً على محسنة في اليوم التالي، إذ كانت تنتظره، وقد حفظت أرقاماً إضافية، وكان لديها ما تسأله عنه. حين التقته، وقد لاحظت عينيه أكثر حمرة من أيام سابقة، نظرت إليه طويلاً، وسألت:

ـ بابا . . أكو أحد ضربك؟ أحد قهرك؟

وحين هزَّ رأسه بالنفي، سألته من جديد:

ـ ليش عيونك حمرا؟

أخذها بين يديه، بطريقة أقرب إلى الخطف. دفن رأسه في شعرها، وتذكر أشياء كثيرة، وحزينة، وظل هكذا، صامتاً وبعيداً، وقتاً طويلاً.

132

قبل أن ينقضي شتاء تلك السنة، ارتفعت الأسعار فجأة، واختفت بعض المواد الضرورية من الأسواق. قطّب التجار وجوههم ولبسوا الثياب القديمة. المتاجر تغلق مبكراً، وتخلو الشوارع من المارة، والريح الباردة تملأ جنبات المدينة.

الباشا يسأل رجاله عن سبب ارتفاع الأسعار، ورجال الباشا يسألون التجار، والتجار يغمغمون بكلمات غير واضحة، لكن يُفهم منها أن المواد التي كانوا ينتظرون وصولها من البصرة لم تصل، وقد يتأخر وصولها شهوراً، هكذا أبلغهم وكلاء السفر. فإذا ألحّ رجال الباشا في التدقيق والسؤال يسمعون جواباً من الجميع لا يتغير: «لا يكلف الله نفساً إلا وسعها؛ نحن نشتري البضائع من عزرا، ورجال عزرا يقولون إن الأسعار ارتفعت من بلادها، ولا يمكن أن نبيع بخسارة» وحين يسأل الباشا عزرا يرد أنه لا يعرف عن الأمر إلا القليل، نظراً لانشغاله بمفاوضة اسطنبول على ما يستحق لها من أموال، وأن اسطنبول لم تكتف هذه المرة برسائل تبعث بها إليه وتنتظره لكي يجيب، فقد أرفقت الرسائل بالرسل، وهؤلاء لا يتركونه لحظة واحدة، وهم، بالإضافة إلى الإلحاح، أخذوا في الأيام الأخيرة يهددونه!

وإذا كان الناس قد تفاءلوا بسقوط الأمطار المبكرة، وتوقعوا أن تكون هذه السنة من سنوات الخير، فإنهم يستغربون كيف ترتفع الأسعار في مثل هذه الظروف. لكن التجار، حتى الذين يتعاملون بالمنتجات المحلية،

يبررون رفع أسعارهم بأنهم يريدون شراء القهوة والشاي والسكر لقاء ما يبيعون، ولأن هذه المواد ارتفعت أسعارها، فلا بد أن يفعلوا. حتى باعة الباجلاء والشلغم، وكان أكثر هؤلاء يرابطون قريباً من المقاهي، أو عند الشرائع، وحيث يتجمع الناس، رفعوا أسعارهم، وكانوا إذا سئلوا عن السبب يجيبون أن كل شيء ارتفع سعره، وهم ليسوا أقل من الآخرين!

ما كادت أسابيع قليلة تنقضي حتى بعث حاكم البصرة، ناظم أفندي، رسالة إلى الباشا يبلّغه فيها أن المراكب انقطعت، وأن تايلور، وكيل ريتش في البصرة، هو السبب في انقطاعها. حتى المراكب التي وصلت، وكانت محمّلة بالمواد التي أوصى عليها التجار، بقيت رابضة مقابل الكمرك أياماً دون أن تفرغ حمولتها، ثم عادت وأبحرت من جديد بناء لأوامر من تايلور.

لم يصدّق داود باشا ما قرأه في رسالة ناظم أفندي. هل يمكن لتايلور أن يفعل ما فعله دون إيعاز من ريتش؟ وريتش إلامَ يهدف أو ماذا يريد أن يقول من خلال هذه الرسالة؟ هل بدأ حرباً من نوع جديد؟ أيريد أن يدخل من الأبواب الخلفية بعد أن عجز عن اقتحام بوابة السراي بالاتفاق مع عليوي؟ ولماذا كان هادئاً بشوشاً في زيارته الأخيرة، وقال إن موظفاً إنكليزياً كبيراً سيزور بغداد ويمكن أن يبحث أموراً كثيرة، بما فيها توسيع مجاري الأنهار ومشتريات السلاح؟

مرت هذه الأسئلة وغيرها، في ذهن داود باشا، بعد أن أخذت تصل إلى مسامعه الكلمات التي يرددها الناس في المقاهي والأسواق.

الباليوز ظل غارقاً في صمته الطويل، والذي بدأ منذ غياب الآغا عليوي، إذ لا يُسمع له صوت ولا يظهر رجاله إلا نادراً، خلافاً للأيام القديمة. أكثر من ذلك، أخذ ريتش يتناسى المناسبات التي كان يقيم فيها الاحتفالات ويدعو إليها المئات، فقد مرّ عيد ميلاد الملك، ثم عيد ميلاد زوجته، ولم يقم احتفالاً بأي من هاتين المناسبتين. كما أخذ يغيب عن القنصلية في رحلات صيده الشتوي، وكان بعضها يستمر أياماً. كل ذلك ليقول للباشا، بشكل غير مباشر، إنه مثل قنصل فرنسا، لم يعد هناك ما

يشغله من شؤون الولاية إلا القليل، وهذا ما يوفر له الوقت ليصطاد، ليداعب حيواناته، ليشارك ماري في تنظيم الحديقة، فإذا بقي له بعض الوقت يخرج بنزهات قصيرة حول مبنى الباليوز، وعند أطراف النهر، مع واحد أو اثنين من كلابه.

كانت هذه الرسائل كافية لإقناع الباشا أن ريتش تغيَّر، لأن الظروف تغيّرت، الأمر الذي يساعد لبدء علاقة من نوع جديد، وهذا ما كان ينوي الباشا أن يفعله.

الآن، ومن مكان بعيد، من البصرة، تأتي أولى الرسائل، والتي تقول شيئاً مختلفاً، فلماذا اختار ريتش هذا الوقت، ومن ذاك المكان؟

قال الباشا لعزرا بطريقة أقرب إلى الأمر:

ـ أريدك يا عزرا أفندي تترك كل شيء، وتشوف التجار، وتتفق وياهم على الأسعار، لأن الناس صاروا يشكون.

ـ ولكن الأسعار ارتفعت من بلاد المنشأ، يا فخامة الباشا، ولا يمكننا أن نفعل أي شيء لتخفيضها.

ـ المسألة، يا عزرا أفندي، متعلقة بعدم وصول المواد، أكثر مما هي متعلقة بارتفاع الأسعار من بلاد المنشأ.

ـ لكني سألت يا فخامة الباشا عن الأسعار فقالوا لي ارتفعت قاطين. . .

وفي محاولة ماكرة للإقناع، وبتفاصيل كثيرة فائضة، ذكر أنه، بالقلم والورقة، ومع الوفد الذي جاء من اسطنبول للمطالبة بما يستحق من عائدات، سأل عن أسعار عدة مواد، هنا وهناك، فتبين له أن الأسعار في بغداد أرحم من غير مكان!

رد عليه الباشا بحنق ظاهر:

ـ يرحم والديك لا تدوخني بحساباتك يا عزرا أفندي. كل ما أريده منك تجتمع بالتجار، مثل ما سويت يوم دخلنا بغداد، وتفهمهم: أي واحد يرفع الأسعار، أي واحد يخفي البضاعة، راح يتعاقب. . .

وبعد قليل، وهو يرفع يده في الهواء بنوع من الغضب:

ـ وهذول، أولها وتاليها، جماعتك وتعرف شلون تتفاهم وياهم.

ـ راح أبذل جهدي، يا باشا، لكن تعرف: هذول التجار قاتلهم الطمع، وما ينضمنون!

ـ من يجي منهم بالهلا والمرحبا ما لنا شغل وياه، لكن من يريد يخالف له عندنا الدواء.

وتظاهر عزرا أنه امتثل، لكنه لم يفعل شيئاً، إذ ظلت الأسعار ترتفع، وزادت الشكوى. وما كان يقوله الناس همساً، أخذوا يقولونه بصوت عالٍ وأمام الجميع. وما كان يسمعه الباشا من رجاله خفية، أخذ يسمعه من زائريه،.حتى دون سؤال!

بعث الباشا إلى عزرا وسأله من جديد:

ـ ها، يا أفندينا، شنو اللي سويته، وشنو النتيجة؟

ـ صحت على التجار، يا فخامة الباشا، ورزّلتهم، لعنت والد والديهم؛ قلت لهم هذا حرام، هذا ما يصير، ولازم يكون بقلبكم رأفة وحنّية، لأن التجارة إذا حلّلها رب العالمين، ما قال اسرقوا وانهبوا...

استراح قليلاً، كان الباشا يقرأ ملامحه وطريقته في الكلام، وما لا تقوله الكلمات كانت تشي به العيون، تابع عزرا:

ـ وبلّغتهم، يا أفندينا، ترى اللي ما يصير منكم آدمي، وتدخل لقلبه الشفقة، فالوالي عينه صارت حمرا عليكم، وما يندرى شنو اللي يسويه.

وافترض أن ما قاله يفي بالغرض، إذ تحرك قليلاً في كرسيه، انتظاراً لسؤال جديد، ولم يتأخر الباشا:

ـ هذا الكلام تقوله لغيري، يا عزرا أفندي، لأنه لا يعني لي شيئاً عملياً، فأنا أريد الأفعال، أريد النتائج.

ـ تعرف يا أفندينا: هذا سوق، أخذ وعطا، بيع وشرا، فإذا لحّينا عليهم زايد يوقف السوق، وإذا أكو اليوم بضاعة، ولو غالية، باچر ما نلقى شي، أيدينا والحصير، وعندها تاكلنا الندامة...

وبعد قليل، وبمرح، علّه يجعل قلب الباشا يلين:

ـ وهذول التجار، ومن يوم ما الله خلق الدنيا، ملاعين ومثل النمل، يحفرون ويطمّون، فإذا خافوا أزيد من اللازم، ترى قرصة الخبز ما تتحصّل، فمن رأيي يا باشا أن نصبر عليهم، والربيع صار قريب، وباچر الناس تشبع من نبات الأرض وتسكت. . .

وتغيّرت اللهجة، صارت أكثر ثقة:

ـ والتاجر إلى متى يقدر يضم البضاعة؟ شهر، شهرين، وبعدها؟ لا بدّ يبيع، ولو بخسارة، وهو اللي راح يندم!

ـ ورأيك، يا عزرا أفندي، ننتظر حتى يجي الربيع؟

ـ هذا رأيي يا أفندينا!

ابتسم الباشا بحزن وسخرية، وخرجت الكلمات دون إرادته:

ـ عيش يا كديش حتى يجيك الربيع، هالشكل تريد؟

صمت عزرا، فقد أحسّ أن موجة من الغضب تسيطر على الباشا، لأن الكلمات خرجت من بين أسنانه، وهو يعرف ماذا يمكن أن يترتب إذا واصل بهذه الطريقة. قال بمسكنة:

ـ أنا اللي أمرتني بيه سويته، يا أفندينا، وهسه إذا مطلوب مني فد شي فأنا جاهز ومستعد!

وقف الباشا، وخرجت كلماته بطيئة، لكنها حازمة، شديدة الوضوح:

ـ جميع التجار قالوا لي: البضاعة كلها ناخذها من عزرا أفندي وربعه، وقبل ما تطلبوا منّا تنزيل أسعارنا خلوا عزرا ينزل أسعاره، لأنّا ما نقدر نبيع بخسارة. . .

توقف الباشا قليلاً. بدا عزرا حائراً مرتبكاً، فهو لا يستطيع الإنكار أنه أكبر التجار، والأسعار التي يحددها تُفرض على السوق كله، كما لا يريد أن يعتبر نفسه مسؤولاً، وقبل أن يرد ليبرىء نفسه، تابع الباشا:

ـ ومثل ما قلت لك من قبل: اسطنبول وحساباتها خليها عليّ؛ وهسه، بوجهك من الديوان إلى الشورجة، وإنت أول من ينزّل الأسعار، ومن المخازن تطلّع مواد تكفي بغداد شهر، وبعدها نشوف!

في مواجهة هذا الطلب الواضح، ولأن كلمات الباشا كانت تتجاوز الحزم إلى نوع من الأمر، لم يستطع عزرا أن يعترض أو أن يرفض، إذ لو فعل يمكن أن يعامله الباشا بطريقة قاسية. قال وهو ينهض:

ـ لخاطرك يا أفندينا راح أتحمل الخسارة، وأسوي اللي أمرت بيه، وانشاء الله نتوفق.

ريتش الذي أمر بهذا الإجراء، كان يهدف إلى إرباك الباشا، أن يقول له، بطريقة غير مباشرة، إن وسائل الحرب لا تقتصر على القوات العسكرية، وإن لدى بريطانيا وسائل كثيرة يمكن أن تؤثر عليه، وقد تكون هذه الرسالة كافية الآن، قبل وصول الوفد الذي سيلتقيه ويبحث معه أموراً عديدة، كي يحمله على اتخاذ الموقف الصحيح، والذي يخدم الطرفين.

لم يُبلّغ عزرا بكل ما يريد أن يفعله، قال له ريتش بطريقة هي مزيج من الجد والهزل:

ـ واليكم كبر بسرعة، يا عزرا أفندي، حتى السفينة التي ساهمت بإسقاط نابليون ما كلّف نفسه أن يزورها وكانت على مسافة خطوتين من السراي، فما أدري متى يعرف حجمه ويتعلم!

عزرا الذي تظاهر أنه لم ينتبه لتعريض القنصل، رد ببراءة:

ـ كان ينوي زيارة السفينة، لكن أشغاله الكثيرة، ثم طريقة البدو لما يجوا للسلام، وبدل ما تكون الزيارة دقائق، تستمر ساعات وساعات، والباشا ما له عين أن يقطعها، وهذا ما جعله يؤجل الزيارة مرة بعد أخرى، إلى أن سافرت السفينة!

ابتسم ريتش، وهو ينظر إلى عزرا بمكر، وكأنه يقول: هذه التبريرات لا تنطلي على قنصل الامبراطورية البريطانية. يمكن أن تنطلي على قنصل فرنسا، وقد يصدِّقها قنصل إيران، لكن لدى قنصل بريطانيا من الوسائل ما يجلعه يعرف كل شيء!

قال لعزرا، وهو يبدأ موضوعاً جديداً:

ـ لست معنياً بالماضي إلا بمقدار ما يساعدني اليوم وغداً. فإذا لم

يستطع الباشا أن يستوعب معنى زيارة السفينة، فيمكنه الآن أن يسمع الإشارات الخفية التي تبعث بها السفن من بعيد!

واتفق الاثنان على أن يستجيب تجار بغداد لرسالة السفن قبل غيرهم، ومن خلالها يمكن أن يفهم الباشا رسائل عديدة: ماذا تعنيه بريطانيا دون أن تطلق رصاصة واحدة؛ دور التجار والأهمية التي يمثلونها لبغداد، وللوالي بالذات، إذا صادقهم أو عاداهم؛ وسوف يربح التجار في كل الأحوال!

عزرا الذي فهم الرسالة جيداً، أبلغ ريتش أنه لا يستطيع أن يقف في وجه الباشا، وأن التجار يمكن أن يضغطوا، لكنهم لا يستطيعون أن يحاربوا، لذلك سيتذرعون بعدم وصول البضائع لرفع الأسعار، وهذا أقصى ما يستطيعونه الآن، وعلى بريطانيا أن تتدبر الأمر، وأن تستعين بقوى أخرى، فإذا وصلت الجيوش لحصار بغداد، فيمكن عندئذٍ أن يثور الناس، ويؤازرهم التجار، كما حصل لسعيد، وينتهي كل شيء.

ريتش الذي قدّر ما يدور في ذهن عزرا، قبل أن يسمع كلماته، قال في نفسه: «لا يوجد في الدنيا من هم أجبن من التجار، وأكثر ضيق أفقٍ منهم، والسبب أنهم يفتقرون إلى المخيّلة ولا يجرؤون على المغامرة، فلو امتلكوا جزءاً من مخيّلة الشعراء، وجزءاً من مغامرة الأبطال، لضاعفوا ثرواتهم مرات ومرات، لكنهم لا يريدون!» وابتسم لعزرا، وقال كأنه يخاطب شخصاً آخر:

ـ مثل هذا الباشا لا يحتاج لأن تسيّر بريطانيا إليه الجيوش، على الأقل الآن، وقد يكون من الأفضل القضاء عليه خنقاً، أي أن يقتل من بُعد. . .

أخذ نفساً عميقاً وأضاف وتذكّر أشياء عديدة، وقد تداخلت في ذهنه:

ـ قبل أن تُخترع البنادق، كان المحاربون مضطرين لأن يواجهوا بعضهم بعضاً بالرماح والسيوف، وبعض الأحيان يتشابكون بالأيدي؛ وحين يخيم الظلام يتوقفون عن القتال انتظاراً لليوم التالي. أما الآن فإن ما يحدد المسافة بين المتحاربين هو مدى البندقية؛ وإذا كانت وسائل الحصار القديمة أن تصل القوات إلى أسوار المدن، فالوسائل الحديثة أن تُحاصر

المدن من بُعد، وهذا ما جعل بريطانيا تُولي الأسطول كل اهتمامها، وهذا ما مكّنها من هزيمة الآخرين، كل الآخرين، ولقد عرضنا على واليكم سفينة تكون بداية الأسطول وبداية القوة، لكنه لم يكلف نفسه حتى رؤيتها!

واكتشف ريتش أنه ذهب بعيداً، وهو يعرض أمام هذا التاجر اليهودي أفكاره وهذا الكمّ من المعلومات، قال في محاولة ليغيّر اتجاه الحديث:

ـ المهم، يا عزرا أفندي، أن نضيّق عليه إلى أن نسمع صوت الألم، وعندذاك يمكن أن يكون للحديث جدوى.

ـ لكن التجار ضعفاء في مواجهة الوالي، يا سعادة القنصل.

ـ إنهم ضعفاء وأقوياء بنفس المقدار. ضعفاء حين يحاربون وحدهم؛ وأقوياء إذا كانوا حلفاء للقوة العظمى: لبريطانيا!

وابتسم ابتسامة الواثق، وهو يضيف:

ـ لا أريد أن أنتقص من أهمية ودور التجار، لكنهم وحدهم عاجزون، أما إذا تحالفوا مع بريطانيا، واستطاع الباشا أن يفتح المخازن بالقوة، ويأخذ كل ما فيها، فلن يكفيه ذلك إلا لفترة محدودة، عندها سيصطدم بالقوة العظمى ولا بد أن يتحطم!

وترك عزرا المواقف مواربة، سيبذل ما يستطيع من أجل إرضاء الباشا وريتش معاً!

لم ترتفع الأسعار لمدة أسبوعين، بعد أن أنزل عزرا وآخرون بضائع إلى الأسواق، بناء لأوامر الباشا، لكن في الأسبوع الثالث عادت إلى الارتفاع من جديد.

وجاءت رسائل، وجاء رسل من البصرة، مع تأكيدات متزايدة أن المراكب انقطعت عن المجيء. وإذا صدف ووصلت سفينة، فلكي تتمون بالغذاء والمياه! وبدل أن يزور قبطانها وكبار مساعديه مقر نائب القنصل في البصرة، أصبح تايلور هو الذي يزور السفينة، ولا يُعرف ما يدور على ظهرها. هكذا قالت الرسائل، وهكذا أكد الرسل.

داود باشا لم يترك الأمور تمضي إلى أن يُحكم عليه الحصار.

إذ بعد أن استدعى عزرا مجدداً، وقد بكى عزرا خلال هذا اللقاء، وأقسم أن الخسائر التي لحقت به لا يمكن أن «توفى لولد الولد» وهجم على يد الباشا يريد أن يقبلها، لكي يعفيه من منصب الصراف باشي، علّه يستطيع أن يعوض جزءاً من خسارته، لأنه لا يقوى على تحمل خسارتين في وقت واحد: خسارة ثقة الباشا، وبالتالي ثقة اسطنبول، والخسارة المادية التي تلحق به يومياً نتيجة محاولاته للحفاظ على الأسعار.

الباشا الذي طيّب خاطره، طلب منه أن يستريح قليلاً، مع تأكيده رفض إعفائه من منصبه.

ولم يترك الباشا الأمور تحت رحمة عزرا بمفرده، فقد أرسل عدداً من التجار، برفقة بعض رجاله، إلى حلب وماردين ليتدبروا الأمر، كما بعث إلى الأحساء والبحرين وسنه، وأمر حكام المدن والمناطق أن يبذلوا أقصى الجهود من أجل تأمين حاجاتهم، وشراء المواد من الأسواق القريبة.

فعل الباشا ذلك بعد أن وصلته أخبار مؤكدة حول لقاءات تمّت بين ريتش وعزرا، حصل بعضها في الباليوز، في ساعة متأخرة من الليل، وحصل بعضها في بيوت أصدقاء للطرفين. ومع أن الباشا أشار من بعيد، وعلى شكل تساؤل لا يبغي من ورائه جواباً، حول رأي ريتش، ولماذا ترك الأمور تصل إلى هذا الحد، إلا أن عزرا لم يُجب على أسئلة اعتبرها غير موجهة إليه، وسأل، بدوره، وببراءة، ما إذا كان الباشا يقترح عليه لقاء ريتش والاستفسار منه حول إمكانية المساعدة، لكن الباشا هزّ رأسه بعدم اهتمام، وكأنه يعتبر ريتش مسؤولاً، فرد عزرا بمسكنة:

ـ هذول الغُرب، يا أفندينا، يواعدون هوايه لكن ما يوفّون، شايفين حالهم، وما عليهم بغيرهم.

ـ وبعدين المسألة من أولها لتاليها، أن الأسعار ارتفعت من بلاد المنشأ، وأن أسعارنا بعدها أقل من غير بلاد، مو هالشكل لو آني غلطان، يا عزرا أفندي؟

ـ أي نعم يا أفندينا.

- بهذي الحالة شيقدر القنصل يساعدنا؟
- ما أدري، يا أفندينا، بس يمكن نسأله، نستفسر منه!
- عنده ألف همّ، فخليه بهمومه، يا معوّد!
- قولتك يا أفندينا، لأن ما حك جلدك مثل ظفرك!

ولم يتأخر الباشا لكي يستدعي ساسون، ولم يتأخر ساسون في تلبية الدعوة.

كان ساسون ينتظر أن يُردّ له الاعتبار، كي يقول للباشا من هو وماذا يعني، وقد جاءت الفرصة الآن. لذلك لم يتردد في أن يخوض حرباً مع عزرا، والحرب بين الأقرباء تبدأ لكن لا تنتهي. يمكن أن تهدأ بعض الوقت، يمكن أن تختفي أو تموه، غير أن الحقد عميق الجذور، ويظل مؤثراً لفترة طويلة. وهذا ما جعل ساسون يركض في كل الاتجاهات من أجل أن يفضح عزرا أولاً، ثم لأن يحل مكانه، الأمر الذي كلّفه الكثير من الجهد والتضحيات.

ولم ينس الباشا روجينا، وما يمكن أن تفعل!

كانت روجينا في واحدة من حالاتها الصعبة، إذ بعد أن اعتزلت، وعانت كثيراً نتيجة اعترافاتها في محاكمة سيد عليوي، ذهبت إلى الكنيس ملتمسة عفو طقو موشي، وأنها قررت أن تبدأ حياة جديدة. غير أن المحيط حولها رفض استقبالها أو قبول توبتها، وهكذا دخلت في «المجاز»، كما أصبحت تطلق على الحياة التي تعيشها، فلا أحد يقبل بها، أو يعترف لها بحقها في أن تبدأ من جديد. وهكذا ظلت عند الحافات الخطرة بين ما كانت وما يمكن أن تكون.

ورجال الباشا الذين عرفوا روجينا، وتابعوها، لم يتأخروا في الاتصال بها، في محاولة لأن يستفيدوا من علاقاتها، وما تعرف عن عزرا.

قالت روجينا لرجال الباشا حين سألوها عن عزرا:

- من عزرا وأمثاله ما جتني إلا المصايب، فلا تسألوني عنه.

ولما ألحُوا، يريدون أن يعرفوا ما إذا له علاقات نسائية يمكن أن

تخبرهم بها، ردت وهي تبكي:
ـ لخاطر الله اتركوني بهمّي ودردي!
وألحُوا أكثر، فصرخت بألم:
ـ بابا.. آني عزّلت، وبالقلم العريض: ذيك الشغلة بطّلتها، وهسه طول الليل أصلي واندعي، يمكن الله يقبل توبتي، ويغفر لي!

ولم يستطع رجال الباشا أن يحصلوا على أية معلومات بشكل مباشر، فسلطوا عليها جميلة، والتي تمكّنت بالحيلة والمداورة أن تحصل من روجينا على أخبار مؤكدة أن لعزرا علاقات بلورا خليل، ولا تعرف ما إذا كانت هذه العلاقة مستمرة أم لا.

ولورا التي تعيش مع عارف زنجاري، ولا يُعرف إن كانت متزوجة أو مجرد عشيقة، لأنها لم تخلّف، كما تعوّدت أن تترك البيت لأيام، بين فترة وأخرى، نتيجة خلافات بين الطرفين، تكون صغيرة ثم تكبر، فتغادر ذاهبة إلى أمها في محلة أبو سيفين، هكذا تقول، لكن لا يُعرف إلى أين تذهب. فإذا جاء عارف بعد أيام ليصالحها، تدّعي أمها أنها بزيارة لإحدى خالاتها، وتعده أن تبعث وراءها لتؤنّبها على تركها البيت، وفي الغد سيجدها في انتظاره، وهكذا يذهب من يخبرها للعودة من بستان عزرا.

كانت هذه البداية للإمساك بخناق عزرا، من خلال علاقاته النسائية، خاصة وأن الباشا وافق على ترك عارف زنجاري كطعم، ما دام اضطر إلى التعاون.

ولم يتأخر خلف في لقاء عزرا، والتلويح له بهذه الورقة. صحيح أنه فعل ذلك بطريقة عفوية، أقرب إلى البراءة، مدعياً أن أحد أقاربه يريد الزواج من زكية أخت لورا، وقد أشارت زكية أن أختها تعرف عزرا!

نفى عزرا بشدة معرفته بامرأة اسمها لورا، «وأن النساء كثيراً ما ادعين معرفة رجال في السراي من قبيل التباهي والتفاخر، والأمر كله ادعاء وكذب» لكنه قدّر أن خبراً مثل هذا لو عُرف ثم انتشر يمكن أن يسيء إليه كثيراً لذلك بدأ يجامل خلف ويحاول استرضاءه.

في وقت لاحق لوّح له خلف أن أمر زواج قريبه يسير في طريقه، وقد التقى بزكية ولورا معاً، وأكدت لورا أنها تعرف عزرا! وأصرت الأختان أن يكون ضيف الشرف في حفلة الزواج: عزرا!

ومع أن عزرا نفى مجدداً معرفته بأي من هاتين المرأتين، رد بحدّة:

- يرحم والديك يا خلف تتركنا من هذي القضايا، لأن همومنا ما تحملها جبال!

وهكذا أصبحت بيد الباشا ورقة جديدة للضغط على عزرا، وإرغامه على الاستجابة لما يريد.

قال له الباشا بعد أيام من هذا اللقاء:

- ترى الناس ما عاد تتحمل، يا عزرا أفندي، لأن الأسعار صارت نار، فأريدك، نوبة ثانية تطلع البضائع من المخازن حتى تنزل الأسعار، وأريد منك تفكر معي شلون لازم نحل المشكلة بشكل دائم.

طلب عزرا أياماً كمهلة، علّه يجد حلاً، ولم يتأخر في فتح المخازن وإنزال بضائع جديدة، كما أرغم التجار الآخرين أن يفعلوا مثله، خاصة وأن الموفدين الذين أُرسلوا إلى حلب وماردين ومنطقة الأحساء، وإلى أماكن أخرى، بعثوا يعلمون الباشا أنه تم شراء كميات كبيرة من الشاي والسكر والقهوة، كما تعاقدوا على كميات إضافية لفترات لاحقة.

وما لم يقترحه عزرا كحل لهذه المشكلة التي يمكن أن تتكرر، اقترحه الحاج شبلي نيابة عن مجموعة من التجار: أن يتساوى تجار الولاية بالتجار الأجانب، وأغلب هؤلاء مقيم في البصرة، من حيث الرسوم الواجب دفعها إلى السراي، إذ إن التجار من رعايا الباب العالي يدفعون رسوماً تزيد ثلاثة أمثال ما يدفعه التجار المشمولون بحماية الباليوز، وهذا ما يضطر تجار الولاية للبقاء تحت رحمة التجار الأجانب، فتكون أسعارهم عالية.

لام الباشا نفسه لأنه غفل عن هذه القضية الهامة، إذ انشغل بأمور الجيش والإدارة، ولم يفطن للامتيازات التي حصل عليها الباليوز لرعاياه والذين تحت حمايته خلال ولاية الباشوات الذين سبقوه. كما أن عزرا لم

يتطرق لهذا الأمر من قريب أو من بعيد، وهو يبحث عن حلول لاستمرار وصول المواد ولأسعارها.

قال الباشا لنفسه بعد أن التقى مجدداً بوفد التجار «يجب أن يكون الجزاء من نوع العمل، وإذا كانت هذه الولاية قد قدَّمت الكثير للعالم عبر العصور، فلعل أول ما قدَّمته شريعة حمورابي، ومن جملة ما أكدت عليه تلك الشريعة: العين بالعين والسن بالسن، ولذلك يجب أن تكون بداية الرد على ريتش: رعايا الباليوز، وأولئك الذين تهافتوا لكي يكونوا مشمولين بحمايته، ليسوا أفضل من تجار الولاية، ولن يحصلوا على مزايا خاصة بعد اليوم، وهذا الإجراء حين يطبق سيوجع الباليوز أكثر من أي إجراء آخر، كما سيقول له من هو داود مقارنة بالولاة الذين سبقوه».

وجاءه ساسون الذي كان يملك شركة للبواخر، وقد تراجعت الشركة بعد أن سافر ابنه، واضطر أن يبيع قسماً منها لعزرا ولشركاء آخرين، ولم يستطع خلال الفترة الماضية أن يجدد المراكب، إذ أخذت تتزايد أعطالها نتيجة القدم.. جاء ساسون ليعرض على الباشا إمكانية شراء مراكب جديدة، وأن تتولى السراي عن طريقه تأمين ما تحتاجه من مواد مباشرة من البلدان التي تبيعها، وبهذه الطريقة لا تكون الولاية تحت رحمة الباليوز وتجاره والمراكب التي تحمل البضائع إلى البصرة.

بعد أن حسب الباشا ما يحتاجه من أموال لتنفيذ هذا الاقتراح، طلب أن يتعاون عدد من التجار لتأمين قسم من الأموال المطلوبة، على أن تتولى السراي تأمين القسم الآخر، من أجل شراء بعض المراكب «ولا يهم أن تكون قديمة، أن تكون صغيرة؛ المهم أن نؤمن حاجتنا، وأن لا نبقى تحت رحمة الغير». ولم يتأخر في إيفاد عارف زنجاري إلى عُمان، «وإذا اقتضى الأمر يمكن أن يذهب إلى أمكنة أخرى، إلى مصر وإلى مالطا، حيث نستطيع أن نحصل على الأرخص والملائم لحاجاتنا» هكذا أوصى خلف وهو يطلب منه تكليف عارف، وأضاف الباشا، وهو يبتسم ابتسامة تحمل أكثر من دلالة:

-. . . وعارف يسافر وحده؛ المسعدة، بنت الخليل، تبقى هنا، لأن هذا «الشريف» يجوز يلعب بذيله، وخاف تكون روحة بليا ردة!

كان الباشا يريد عودة عارف زنجاري، ولعل أقوى ما يشدّه: لورا، إذ لا يحتمل أن يبقى بعيداً عنها مهما فعلت.

ولئلا يقع خطأ من نوع ما، أضاف الباشا، وهو يوصي خلف:

- وتختار أشخاصاً تثق بهم حتى يرافقوا عارف، لأنّا نريد نعرف حساب الدنيا والآخرة، نريد نعرف بمن يتصل، أو إذا أكو بيع وشرا من وراء ظهورنا!

عزرا أفندي الذي طلب منه الباشا، أن يهيىء مبلغاً كبيراً، دون أن يقول له عن طريقة صرف هذا المبلغ، أو الغاية منه، تساءل باستغراب:

- إنشاء الله ماكو حرب جديدة؟

تطلع إليه الباشا طويلاً، وأجاب بمرح:

- هذي النوبة، يا عزرا أفندي، ما نريد نحارب، نريد نبني!

- غير السراي الجديدة يا أفندينا؟

- اي نعم، يا عزرا أفندي!

- وين. . وليش يا أفندينا؟

- لأن الدنيا تتغير يوم بعد يوم، يا عزرا أفندي، ولأنه مَنْ يزرع اليوم يحصد غداً أو بعد غد. . .

كاد يرد عزرا، وقد طوّقته بهذا القدر من الغموض كلمات الباشا: «وقد لا يحصد أبداً» لكن وهو يرى ابتسامة الباشا الرحبة، الواثقة، والتي لا تخلو من تحدٍ، جعلته يقول:

- كل شيء تبنيه يا أفندينا عساه يكون مبارك ومنزل خير وعز، لكن أخاف أقول لك يا باشا، أن فلوسنا على الحد، خاصة وأن رجال اسطنبول مثل ملك الموت لا يتعبون ولا يشبعون، وما عندهم إلا قولة هات!

- الظاهر أن اسطنبول حارقة قلبك.

- خلّيها على الله يا أفندينا، لأن المسألة مو بس المال، وإنما طريقة

طلب المال، ولأن الواحد منهم يقعد مثل الهمّ على الصدر.

ترك الباشا فترة من الصمت تمر، ثم قال بلهجة جديدة:

ـ ما أخفيك، يا عزرا أفندي، آني ندمان هواية لأن راحتْ عليّ زيارة ذيك السفينة!

قطب عزرا عينيه في محاولة لتذكر ما يعنيه الباشا، وسأل بمكر:

ـ أية سفينة تقصد يا باشا؟

ـ السفينة التي أسقطت نابليون!

ـ اي. . اي السفينة اللي جت بزيارة للباليوز!

ـ لأن اللي عنده مثل هذي السفن يقدر يسوي كل شي!

لم يشأ عزرا أن يعلّق، فقد أحس أن الباشا ينصب له كميناً. حين امتد الصمت وطال، قال الباشا:

ـ إنشاء الله ما يمر كم شهر، يا عزرا أفندي، إلا وتصير لنا مراكبنا، ونقدر نوصل وين ما نريد.

ـ شلون يا باشا؟

ـ راح نشتري مراكب من هنا. . من هنا، وما نريد نظل تحت رحمة أحد.

تحرك عزرا في مقعده بعصبيّة، فقد أيقن أن الباشا يذهب بعيداً في المواجهة، إذ من شأن خطوة كهذه أن تعتبر رداً على ريتش، كما سترتب أعباء مالية قد لا يستطيع مواجهتها. قال، وخرج صوته ثقيلاً وفيه رجفة:

ـ يجوز هالحمل ما نقدر عليه، يا أفندينا، لأنه ثقيل وينراد له هزّ كتاف وعصب قوي!

ـ لا تدير بال يا معوّد، حيلنا بعده بظهورنا، نحمل ونتحمّل، وعندنا هواية جماعة يعاونون ويفتهمون بهذي المسائل!

ـ واسطنبول يا أفندينا؟

ـ شبيها اسطنبول؟

ـ اسطنبول تطالبنا بكومات فلوس، يا باشا، وبعدين يجوز اسطنبول

تاخذ على خاطرها، وتفكر غير تفكير.

ـ مثل ما قلت لك يا عزرا أفندي، خلي اسطنبول عليّ: نؤجل، نقسّط، نلاقي طريقة للتفاهم؛ المهم أن تتحضر إنت ونادر أفندي، وبعدها كل شيء سهل!

ـ والسراي الجديدة يا أفندينا؟

ـ شبيها السراي؟

ـ ينراد لها فلوس هواية، والمقاولين يطالبون!

وقف الباشا، وهذا يعني أنه لم يعد يحتمل، فوقف عزرا. قال له الباشا بطريقة أبوية مازجها الغيظ:

ـ يا عزرا أفندي يسّرها ولا تعسرها، ومثل ما قالوا: اصرف ما في الجيب يأتيك ما في الغيب! فأريد منك تسمعني زين: إذا وصلتك مني الأوامر بالصرف تصرف وما عليك من غير شي. . .

اقترب الباشا من عزرا وقال له، وهو ينظر إلى عينيه:

ـ ما نريد الفلوس اليوم أو عقبه، يجوز يحتاج الأمر شهور، لأنّا قررنا إيفاد عارف زنجاري إلى أماكن عديدة ليسأل ويتقصى، وبعدها نشوف!

ذكر الباشا اسم عارف زنجاري بطريقة توحي بالإغراء والتهديد معاً، ولم يُطل وقوفه في هذه المحطة، إذ أضاف وهو يودع عزرا، وقد تعمد أن يشد على يده أكثر من مرات سابقة:

ـ طولة البال زينة يا عزرا أفندي، أمامنا بعد وقت طويل، ومن اليوم لذاك اليوم ألف باب ينفتح، وألف مشكلة تنحل، فشد حيلك، وقول الله!

حاول عزرا أفندي أن يبتسم وهو يقول:

ـ عليه توكلنا، لأن ما لنا غيره، يا باشا!

133

ما ان بدأت أولى القوافل بالوصول من حلب وماردين، حاملة السكر والقهوة والشاي، حتى شعر الناس بالارتياح، نظراً لهبوط الأسعار، ولأن الكلام الذي كان يردده رجال الباشا عن قرب وصول البضائع قد صدق، خلافاً لمرات كثيرة سابقة، حين كانوا يطلقون الوعود دون ان يُسألوا، او يلوذون بالصمت اذا وجهت اليهم الاسئلة.

التجار الذين ارتدوا وجوهاً جهمة، أقرب الى الأقنعة اضطروا الى نزعها مع الثياب القديمة، واخذت الابتسامات تملأ ملامحهم، اضافة الى المرح في الأحاديث والتصرفات، في محاولة للتغلب على التردد، وعلى ذلك الحذر الذي يميز تصرفات المشترين.

الأسطة عواد رفض رفع الأسعار في قهوة الشط، خلافاً لما فعله اصحاب المقاهي الاخرى، قال للذين حوله في احدى الامسيات:

ـ لا بد انكم لاحظتم يا جماعة الخير: القهوة كانت تنترس من غبشة الصبح حتى آخر الليل، ومطشر وعبدالله وحمودي يركضون وما يلحقون، واللي تعود يشرب استكان شاي صار يشرب اثنين!

ابتسم إبتسامة صغيرة ثم أضاف:

ـ ويجوز بعضكم شاف بعيونه شلون جا عليّ أصحاب القهاوي وقالوا: «يا معوّد راح تخرب بيوتنا، الأسعار اشتعلت، صارت نار جهنم، وانت بعدك تبيع بالسعر القديم، ولا كأنك حاسّ شنو صاير بالدنيا، وهذا مو زين لا عليك ولا علينا» واسألهم: شنو اللي رايدين مني؟ فيقولون:

ترفع الاسعار، وأقول لهم: أعزّل، أسدّ القهوة ولا آخذ فلس زايد، لأن اكثر اللي يجون للقهوة فقرا، على باب الله، وبعدين اولاد محلة، ومثل ما وقفوا ويانا أيام الشدة، وتحملوا، يلزم الواحد يقدّر ويعترف، ويقدم القهوة بنفس هنية، ويقول عوافي . .

ويهز رأسه بمرح، كأنه يعلن رضاه عن كل ما فعله:

ـ واذا زاد البيع، يا جماعة الخير، يوفي، يجمع، واذا الواحد ما ربح ما يطلع خسران، وهذا اللي صار، فالحمد لله والشكر.

علّق الاسطة اسماعيل بمرح:

ـ اللهم لا شماتة، لكن ما أريد اقول لكم شقد فرحت لما مراد سد قهوته، لأنه ابن الحرام چان موكر بصف السراي، وكل واحد له شغلة هناك، عنده قضية، لازم ينتظر بقهوته، وهو يقص فلوس. رفع السعر اول نوبة، قال الناس: ما يخالف. رفع السعر نوبة ثانية قال الناس: انا لله وانا اليه راجعون، اما النوبة الثالثة فقال الناس: هذا كفر وقلة دين. وقالوا: حتى الشاي ينزل لبطونًا مثل الزقنبوت، فلا نريده ولا نريد الشاي ماله. ويا سبحان الله، كل هذا الشي صار بدون اتفاق، بدون ما واحد يقول للثاني. ويوم بعد يوم وماكو أحد يطب قهوته . . . وعزّل.

قال سيفو بغيظ:

ـ حيل، لأن ابن الحرام، مراد، يستاهل أكثر، وكلكم تتذكرون شلون شاف روحه، وصار خشمه بالسما لما طبّ القنصل الانكليزي قهوته . . .

والتفت الى الاسطة عواد، وسأله بمرارة:

ـ تتذكر يا ابو نجم شقال بعد زيارة القنصل؟

ـ شلون ما اتذكر يا ابو فلاح؟ ويجوز ينقضي العمر وما أنسى. قال النغل: «قهوة مراد للاكبارية، للناس اللي على وجوههم نور، اما قهوة الشط فلكل مفلس طايح حظه، والواحد اذا قعد بيها يدوخ راسه من اللغوة ومن الريحة!

قال سيفو وهو يمد يده بحركة بذيئة:

ـ أبو هالدنيا الخايسة اللي صار بيها مراد يفتي ويقول، وكأنه نسي الخاتون، أمه!

قال الاسطة اسماعيل لينهي هذا النقاش:

ـ خلونا من هذي السوالف، يا جماعة، لأنا ولد اليوم.

وتزايد الصخب في القهاوي والأسواق، وأخذ يتفاوت من يوم لثان، من مكان لآخر، ما عدا السراي، فقد خيم عليها صمت ثقيل، وكأن لا شيء يستدعي تحرك رجال الباشا، او ان يقولوا خلاف ما يدور في كل مكان، خاصة مع تزايد وصول قوافل المؤن، والتي أخذت تصل من الشمال ومن جهة الاحساء. لكن مقابل صمت السراي انتفض الباليوز ثم هاج، انتفض مثل حيّات الشتاء مع أول نسمات الربيع الدافئة.

القنصل الذي صمت ثم غاب منذ إعدام الآغا عليوي، عاد الى التجوال في الأسواق، وكان يرافق تجواله الكثير من الهرج والتوقعات. أما بحّارة السفينة، فقد انشغلوا بإعادة طلاء الجوانب، ثم في إجراء تمرينات على ظهرها. فإذا انتهوا من ذلك اندفعوا الى الأسواق يمرحون ويمازحون الصبية بالإشارات البذيئة وبالكلمات. ولكن أغرب شيء رأته بغداد خلال تلك الفترة فكان سباق الكلاب الذي يجريه الباليوز صبيحة كل الأيام، عدا الآحاد، في الساحة المقابلة للمبنى الرئيسي.

هذا النوع من السباقات جلب عدداً كبيراً من الصبية والأطفال. واذا كان الكبار قد أبدوا ترفعاً ظاهراً في البداية، ولم يكلفوا أنفسهم الوصول الى الباليوز، فإن الاشاعات التي نشرها رجال القنصل عن سباقات اخرى ستجري للأسود والنمور، وقيل للفيلة أيضاً، دفعت عدداً غير قليل من الرجال للذهاب إلى هناك حباً بالاستطلاع والتفرج!

كان احد الذين تحمسوا، ومنذ البداية، لسباق الكلاب: حسون!

أصبح يعبر راكباً حصانه كل يوم إلى الرصافة، بعد أن يغسل الحصان ويزيّنه، ويرابط مقابل الباليوز.

قيل إن الحب عاود حسون كما تعاود الحمّى مريض الملاريا، إذ ما

كاد الربيع يعلن عن قدومه، بالدفء وبالزهرات الأولى لأشجار النارنج حتى انتفض حسون، ومعه إلى جانب الحصان كلب، لا يعرف من أين أتى به او كيف حصل عليه، وقد سماه كاسر، وقال إنه منع الثعالب من الاقتراب من البستان، أما اصطحابه الآن فلكي يتدرب ويتهذب ليصبح مثل كلاب القنصل! وقيل إن حسون نوى سرقة إحدى كلبات السباق، لتكون انثى لكاسر، وهذا ما جعله يأتي قبل الآخرين وينصرف بعدهم، عله يستطيع الوصول إلى واحدة من كلبات القنصل!

قال الذين عرفوا بالأمر في قهوة الشط: «حسون مثل ذنب الكلب، لو حطيته بالقصبة أربعين يوم يطلع اعوج». وقالوا «مرض حسون لا شفاء منه، ولا بد يسوي مكسورة!» أما رجال الباشا الذين كلفوا بمراقبة سباق الكلاب، وكانوا يأتون مع حسون، أو قبله ويبقون بعد أن ينصرف الجميع، فقد أبلغوا رؤساءهم «أان حسون أبو الخيل، والملقب بحسون الإنكليزي مشبوه، إذ لا يعقل أن يأتي كل يوم قبل الآخرين وينصرف بعدهم، لوجه الله!»

ومع كل قافلة جديدة تزداد حركة رجال الباليوز، وتزداد الإشاعات التي ينشرونها: «هذه آخر القوافل، وبعدها راح ترتفع الأسعار» «الوالي من جيبه يشتري بالغالي ويبيع بالرخيص، حتى يرضي الناس، وبين يوم والثاني راح يصير الوالي بارة سز» «بعث الباب العالي من يحقق مع الوالي، والتحقيق بداية العزل، وبغداد تنام على خبر وتقوم على خبر غيره، وربما يأتي وال جديد».

الإشاعات تنتشر كما ينتشر المرض، وبلغت الإشاعات ذروتها حين عرف أن عارف زنجاري ذهب لشراء السفن. قال رجال الباليوز: «الواحد يشتري قهوة وشعير، يشتري حنطة وكركم، وإذا راد يلهّي الناس يشتري كحل وديرم وشكرات، أما المراكب فغالية، وما تقدر عليها حتى الدول، والدول تطلّعها بروس الناس، فشدوا روسكم يا أهل بغداد».

لا تتوقف الإشاعات عند هذا الحد، تواصل رحلتها إلى الشمال وإلى

الجنوب، تقول إن القبائل ثارت أو على وشك الثورة، وان الشمال أعلن العصيان، و«الباشا بدل ما يشتري المراكب عليه أن يشتري رضى الناس».

حالة من الخوف والانتظار. السراي صامتة. الباليوز لا يترك شخصاً واحداً إلا ويقول له ما يجب أن يسمعه ليخاف أو يتحسب. ومع الخوف والتحسب تتغير الأخبار والتوقعات.

وبغداد التي أدمنت الخوف والانتظار، أخذت تتساءل أيضاً عما تخبئه لها الأيام. المقاهي التي تغلق أبوابها مع صلاة العشاء، بسبب الأمطار والبرد، أخذت لياليها تمتد وتطول مع بداية الدفء والسهر. والسهر اذا امتد وطال يفتح القلوب، وعندذاك يظهر الفرح وتبرز الجروح، وتتداعى الأشياء التي كانت متوارية. إذ تركض مع الكلمات الحلوة والابتسامات المتفائلة.

قال الاسطة اسماعيل، وقد جاء إلى قهوة الشط متأخراً بسبب كثافة العمل:

ـ الظاهر، يا جماعة الخير، ان الربيع يطوّل الشعر، ومثل ما الأشجار ينراد لها تزبير قبل ما يدخل القيظ، البني آدم همين ينراد له تزبير!

سيفو الذي ضحك مثل تيس، وهو يستمع إلى الاسطة اسماعيل يردد كلمات معينة، علّق بصخب:

ـ بمثل هذي الأيام ينراد تزبير غير شي، يا أبو حقي، لأن الشعر وحده ما يكفي.

رد الاسطة اسماعيل وهو يقهقه:

ـ لو كانت يمي، لو كان بإيدي، وما يزعل الناس، كان صرت قصّاب او زعرتي، وكل واحد مو خوش آدمي، ما يحفظ العهد، ينقصّ منه فد شي!

أجابه سيفو، وهو يقف:

ـ الله يسترنا منك، يا أبو حقي، لأني أشوفك متوازي!

ـ كل ما تشوف عينك، وتريدني أبقى عاقل؟ هاي وين صارت، أبو فلاح!

قال ذنون في محاولة لإطالة المرح:

ـ أترخص يا جماعة، لان عيون ابو حقي ما فارقتني من ساعة أطبّ القهوة، بس يباوع عليّ، وما عنده الا كلمة: الشعر مخلوف، فاذا سلّمته راسي كل هذي السنين، فهسه لعب الفار بعبي وخاف يقص أزيد من اللازم او بغير مكان!

ـ على بختك ابو عمر، رد الاسطة اسماعيل، لانك أخذت نص كلامي، آني قلت المو خوش آدمي، أما انت فماكو احد يعلى عليك، مولانا!

ـ الله يديمك مولانا، بس مع ذلك ما راح أسلمك راسي الا بعد الفيضان، لان اذا الله قدر، وخلصت خبزتنا من الدنيا، فأريد اذا قابلت ملائكة جهنم يخترعون مني وينهزمون، لعل وعسى نلقى لنا مكان بالمجاز، اذا عجزنا عن الوصول إلى الجنة!

وفجأة تبدى الفيضان بجبروته، وطغيانه، وقد كان غائباً عن الأذهان حتى تلك اللحظة، اذ ارتسمت في مخيلة الجميع صورة جنون النهر السنة الفائتة، وما خلّفه من آثار وخوف، قال سيفو بنزق:

ـ الله يمتحن عباده، لكن ما أدري ليش شادّ ويّا أهل العراق، وكأنهم اولاد الضرة، فشنو القصة، ما تفهّموني؟

قال ذنون، كأن يكلم نفسه:

ـ هذا مو من البارحة واليوم، هذا من أيام نوح وطوفانه الأول، وسبحانه واقع بينا دق، ولا بد تكون له معنا سالفة!

ـ على كيفك ابو عمر، رد الاسطة عواد، لأنه سبحانه ما يسوي فد شي إلا بيه حكمة وله غاية، ومثل ما قالوا من قبل: المصيبة اللي ما تكسر تقوي، فيجوز سبحانه وتعالى يريد يمتحن أهل العراق، يختبرهم شقد يتحملون، وبعد ما يتأكد يجازيهم.

قال سيفو بحدة:

ـ يا ابو نجم: كثر الدق يفك اللحيم، وخاف سبحانه وتعالى راح

زايد، والناس ما عاد بيها حيل.

ـ استغفر ربك يا ابو فلاح، لان ما باقي بينا وبين الفيضان إلا أيام، وخاف كفرياتك هذي تنقلب علينا!

ـ استغفر الله واليه أنيب!

ولم يتأخر الفيضان هذه السنة، جاء في أواخر آذار. ومع ان الناس، استعدوا له اكثر من سنوات سابقة، واصبحت لديهم خبرة أوسع في مواجهته ومقاومته، فان يحيى بك، بدءاً من أول آذار تواردت الأخبار عن مرضه، وأشيع أنه اصبح عاجزاً عن المشي، إذ انقطع عن عمله في السراي، وأخذ عدد من الأطباء يعودونه، ويحارون في تفسير مرضه، وبالتالي كيفية علاجه. فالشحوب يغطي جسده، ويداه ترتجفان، أما الصفرة التي تتبدى في عينيه، فقد جعلت الطبيب الهندي يؤكد انه اليرقان، الأمر الذي اضطر الباشا إلى عدم إسناد أية مهمة له، خاصة في مواجهة الفيضان.

لكن الفيضان جاء هذه السنة رحيماً، اذ بعد أن ارتفعت المياه مقداراً معيناً، عادت إلى الهبوط. ومع ان التحسب استمر، خوفاً من «غدرة النهر»، الا ان الارتفاعات اللاحقة لم تبلغ ما وصلته أول مرة، وبدا ان الفيضان سينقضي هذه السنة على خير.

ما كادت أسابيع قليلة تمضي على الفيضان، ومع تزايد الدفء والخضرة، أخذ يحيى بك يتعافى، وشوهد يتمشى في الحديقة الشرقية للسراي، وقيل إن ما عجَّل في شفائه ليس الدواء، الذي وصفه الطبيب الهندي، وانما دواء الارمن. حتى شمسي أميني الذي سأله خلف ما اذا كان الدين يبيح، في حالات المرض والضرورة، ان ينقطع الانسان عن الصيام والصلاة، رد على السؤال، وكانت نظرته مرتابة:

ـ الضرورات تبيح المحظورات. . .

واهتز رأسه بانفعال، مسح البياض حول شفتيه وتابع:

ـ الدين يسر ولا يعسر ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها. . .

وتغير صوته:

ـ وإذا كان الدين قد جوّز القصر والجمع في الصلوات، ما دام الانسان قادراً، فان حكم الصيام في المرض الكفّارة بإطعام المساكين، او بصوم المؤمن أياماً بديلة بعدد الأيام التي أفطر . . .

وكاد شمسي أميني يستمر، إلا أن ابتسامة خفيفة ارتسمت على شفتي خلف جعلته يرتاب اكثر، زم وجهه، فأصبح أشد صرامة مما بدا، وسأل:

ـ هذه الأسئلة، يا خلف افندي، لزيادة التفقه بالدين، ام لمعرفة الحكم الشرعي بالنسبة لاشخاص أو حالات محددة؟

ـ عمي الوجعان خابصني بهذي القضايا يا شيخنا، لأن كل الفتاوي اللي قلناها حتى يفطر ويؤجل الصوم ما فادت، فقلت له: ماكو إلا شيخنا بالسراي، الحاج شمسي، فعنده الخبر اليقين وحكم الشرع، وراح أسأله.

ارتاح الشيخ شمسي، فقد بدا له خلف جاداً، ويسأل عن أمور محددة فقال كأنه يخاطب نفسه:

ـ كبار السن، والذين تمتلىء أفئدتهم بالايمان والخشية، لا يصدقون إلا إذا صدرت الفتوى عن مرجع ديني، كي تطمئن قلوبهم، وانا أفهم الوساوس التي يبديها عمك ولا شك يريد ان يتأكد!

استغل خلف حالة الثقة والارتياح التي برزت من شمسي أميني، وترك فترة من الصمت تمر، ثم سأل:

ـ قلت يا شيخنا: ان الضرورات تبيح المحظورات، وعندي سؤال متردد أن أسأله!

ـ قل يا ابني، يا خلف، ولا حياء في الدين.

ـ اكو عندي فد صديق ياخذ بين فترة والثانية قمع عرق، ولما اسأله يقول: دوا، الحكيم وصّاني. فما ادري هذا الشي اللي يسويه، جائز لو لا؟

بدا الاحراج على شمسي أميني. تلفت إلى أكثر من جهة، تطلع بحقد إلى خلف، ظهر ذلك من زمة العينين، ومن انطباق الشفتين بطريقة حازمة. مرت فترة صمت، جاءت بعدها كلمات مرتجفة:

ـ هذا صديقك، والحكيم اللي يداويه، ذمتهم واسعة، بفتهمون الدين ويفسرونه بكيفهم، حتى صار بالنسبة لهم مثل جراب المگادي، كل شي جائز وتلاقيه!

وبعد قليل وبلهجة حازمة:

ـ الله يهديهم، ورحمة ربنا واسعة.

كان ذلك بمثابة قطع أية امكانية للاستمرار في الحوار، اذ تحرك الشيخ شمسي أميني، وهو يقول:

ـ لازم امشي حتى ما تفوتني الصلاة!

هذا الحوار ما كان ليأخذ هذا الشكل لولا الأخبار التي تسربت من الجناح الشرقي في السراي، ان الكيخيا يحيى بك، بعد أن وقع مريضاً، وعاده عدد من الاطباء، دون ان يشخِّصوا مرضه، رفض أن يتناول الأدوية التي وصفوها له، ولانه استعان بخبرة شمسي أميني، الذي كتب له الأحجبة، وراجع الكتب القديمة لمداواته، وحاجج الطبيب الهندي في أعراض بعض الامراض، وقال إنها في العراق تختلف عن أمكنة أخرى، خاصة الهند، وحين تأكد ان «دواء الأرمن» اذا تناوله الكيخيا، يهدأ وتتحسن احواله، ثم يخلد إلى النوم، فقد أفتى «ان دواء الأرمن، في حالات وبمقادير معقولة، اذا طلبته نفس المريض فلا يعتبر حراماً او معصية» وهكذا، بمرور الأيام، وزيادة الدفء تحسن الكيخيا!

قال له الباشا بعد أن رآه إثر إبلاله من المرض:

ـ بالنا يمك يا بك، وهواية تأثرت لما سمعت بمرضك، لكن هسه أشوفك، استعدت صحتك وقوتك، ونحن نحتاجك ونحتاج عونك.

ـ الله يلعن المرض، يا باشا، لكن أكثر ما حز بنفسي يا أفندينا أني كنت بعيداً، خاصة أيام الفيضان.

ـ سبحانه رأف بنا هذه السنة، ومرّ الفيضان على خير وبالسلامة، ويجوز رب العالمين على قصتك وبفضل دعائك نجانا ورحمنا!

مع انحسار مياه الفيضان وصل مركب من البصرة، وكان على ظهره

عدد من جنود الامبراطورية، انكليز وهنود، إضافة إلى بضعة مسافرين آخرين، ولم يكن على ظهره من المؤونة إلا ما يكفي أيام السفر!

حتى الموظف الكبير الذي كان يتوقع وصوله، كما أبلغ القنصل، لم يصل.

لما استفسر رجال الباشا المسافرين عن الجنود الذين رافقوهم، لماذا جاؤوا، والى متى سيبقون لم يكن المسافرون يملكون أية اجابة، بل ذكروا ان الجنود كانوا من البذاءة وسوء التصرف إلى درجة لم يمكّنوا المصلِّين من أداء صلواتهم، وانهم كانوا يشربون ويعربدون، وبلغ ببعضهم الحد انهم اذا رأوا صبية او نساء على ضفاف النهر أخذوا يلوحون باشارات بذيئة لا تخفى دلالاتها، وقد نبَّه عليهم القبطان أكثر من مرة لكن قابلوا تنبيهاته بالاستهزاء!

ساسون الذي تبرع لسؤال ميناس عن هؤلاء الجنود، وقال مازحاً إنه كان يتوقع وصول بضائع على المركب إلى بغداد بدل إرسال أفواه جديدة تأكل ما هو موجود، رد عليه ميناس بصوت بطيء وواثق:

- طمّن روحك ابو نسيم، لأن الجنود الجدد راح يحلون مكان الموجودين!

ولما بدا الارتياب على وجه ساسون، تابع ميناس بلهجة جادة:

- البصرة أرحم لهذول المساكين، لان صار لهم سنين ما شافوا مرية، خاصة بعد ما عزّلت روجينا، وانهجم بيتها!

- يعني أيام ويتغير حرس الباليوز!

- برجعة المركب، يا ابو نسيم، راح يرجع القدامى ويبقى الجدد.

وحين سافر المركب لم يحمل معه الا ثلاثة من العاملين القدامى في الباليوز، أحدهم التهم الكوسج ساقه، وأصبح عاجزاً. اما الاثنان الآخران فقد أصيبا بأمراض عصبية عجز طبيب الباليوز عن معالجتها، الأمر الذي اضطر ريتش للاستغناء عن خدماتهما منذ بعض الوقت، وكتب إلى نائبه في البصرة ان يرسل صاحب الساق المقطوعة إلى أهله في زنجبار، وان يرسل

الآخرين إلى الهند للمعالجة.

ومع ان ساسون نقل إلى السراي ما سمعه من ميناس، إلا أن الباشا تحسب وداخله الشك لمجيء الوجبة الكبيرة من العسكريين وكان اغلبهم من الانكليز، ثم لبقائهم مع الذين كانوا من قبل، بعد أن غادرت السفينة عائدة إلى البصرة. وأخيراً أصبح تحسُّب الباشا حذراً اقرب إلى الخوف، حين اخذ يشيع رجال الباليوز ان القنصل تعبيراً عن تقديره ومحبته لأهل بغداد، ينوي اقامة عدد من الاستعراضات للحيوانات، كما فعل خلال الشهور الأولى بعد أن استلم داود باشا السلطة، وقد يعقبها، استعراض لحامية الباليوز وبحّارة السفينة، بملابسهم الجديدة وأسلحتهم الكاملة «وسوف يعيش أهل بغداد ثلاثة أيام وثلاث ليال في جو من الاحتفالات والفرح لم يعيشوا مثلها طوال حياتهم، وسوف ينقل الذين شهدوا الاحتفالات للغائبين، ثم لأولادهم من بعد!».

بعث الباشا وراء محب الدين مرادي، يوم الثلاثاء، ليقرأ له طالعه من جديد، مع أنه استقبله في اليوم السابق. أثناء انتظاره قال الباشا لنفسه: «هذا الزعطوط ناوي الشر، ما نخلص من مكيدة الا ويدبِّر الثانية، وما نفلت من فخ الا وينصب الثاني، ولا بد ان نتغدى به قبل ان يتعشى بنا. واذا الله سلمنا حتى اليوم ما يندرى اي شيء يحصل غداً او بعد غد!»

ومحب الدين الذي استغرب دعوة الباشا، قدّر ان أمراً جللاً ينتظره في هذا اللقاء. قال للباشا، وهو يتعثر بخطواته:

ـ خير... خير يا أفندينا؟

ـ الله يجعلك بخير..

وترك لفترة من الصمت تمر، كي تمهد لما سيقوله:

ـ جاءني طيف في المنام يا شيخنا، وكان يلبس طربوشاً أسود، ويعلّق ي رقبته حية رقطاء، وقد اقترب مني بحذر، ظاناً أني نائم، لكني كنت ِاعياً أراقبه، وما أن أصبح على مسافة ذراع حتى أمسك الحية من رقبتها دفع رأسها نحوي، لكن صرختي المهددة المتوعدة أفزعته، فترك الحية

تسعى هاربة، وسقط هو، ولما دخل حرسي على سماع الصرخة، ورأوا الرجل، وجدوه ميتاً. . .

استراح الباشا قليلاً، أخذ نفساً عميقاً وسأل:

- ما تفسير هذه الرؤية يا شيخنا؟

- الحية حياة يا أفندينا، خاصة وهي لا تستجيب لما يطلب منها الرجل، وهو عدو. إما أن يموت الرجل دون ضربة سيف، دون أن يُمس، فهذا يؤكد أن أعداءك، يا باشا، سيحاولون لكنهم سيفشلون.

بدا الباشا مسروراً، لأن التفسير الذي قدَّمه محب الدين مرادي للرؤية يتطابق مع رغباته، ولما انتوى ان يفعله.

قال الباشا، وخرج صوته مرحاً:

- اذا الله كتب لنا الحياة، والتقينا يوم الخميس، أريد منك، يا شيخنا، أن تقرأ الطوالع، وأن تتأكد مما تقوله النجوم. . .

وابتسم ابتسامة واسعة قبل أن يضيف:

- ومن الكتب الزينة، المضمومة، ومن أهل المعرفة والكشف تسأل لتتأكد، لاني انتويت أمراً، وأريد أن يوافقني الطالع وأن تكون النجوم معي، فابذل اقصى ما تستطيع، يا شيخنا، وعسى أن تكون النتائج حسنة والريح مواتية!

الشيخ محب الدين، حين لاحظ سرور الباشا، من الكلمات التي قالها، ومن الملامح وطريقة التصرف، كان متأكداً أن الأمر متعلق بامرأة جديدة يريد الباشا أن يتزوجها، ومع ذلك، ولكي يكون أكثر اطمئناناً، سأل، وقد خفض صوته، فصار أقرب إلى الهمس:

- كتبنا كثيرة يا أفندينا، وانت تعرفها، وأهل الكشف لهم اختصاصات، فهل تريدنا أن نبحث في الخاص أم بالعموم، في ما يتعلق بالقلب أم بالرعية؟

رد الباشا بفخامة:

- بعد هذا العمر صرنا، يا شيخنا، نعرف كيف نداري شؤون القلب،

لكن الباقي علينا: الكفار، خاصة أبو عيون الرزق، وهذا، وانت تعرف، ناوي الشر، ولا بد كتبك تحكي وتقول، فاعتمادنا، كل الاعتماد، عليك!

وظهر الخميس، بعد أن أكد له محب الدين مرادي حسن الطالع، أوفد الباشا ناطق أفندي إلى الباليوز، مع رسالة خطية، يبلغ القنصل، انه ابتداء من مطلع مايس، سيعامل التجار المشمولين بحماية دار المقيمية كباقي تجار الولاية، من حيث رسوم الجمارك، وأن المزايا التي كانوا يتمتعون بها، من حيث الأفضلية بالنقل والاستيراد ستنتهي. وطلب الباشا من ناطق أفندي أن لا يدخل مع القنصل، او أياً من معاونيه، في حديث او تفسير عما تتضمَّنه الرسالة، وان مهمته تنتهي بتسليمها.

كما أوفد الباشا إلى ناظم أفندي، حاكم البصرة، كتاباً يكلِّفه فيه بتقاضي الرسوم من التجار المشمولين بالرعاية البريطانية مثل باقي التجار، وان يبلغه على جناح السرعة، بالنتائج وردود الأفعال التي قد تبدر من نائب القنصل أو التجار.

ريتش الذي لم يكن ميالاً لاستقبال ناطق أفندي، ومن باب الحيطة، طلب من ميناس ان يستبقي موفد الباشا بعض الوقت، ليطِّلِع على مضمون الرسالة التي يحملها. وناطق افندي الذي كان حريصاً اشد الحرص على الصمت، ولم يكن لديه ما يقوله في اي شأن من الشؤون، أتعب ميناس بصمته، وحين لم يجد ميناس ما يضيفه، ولو على شكل سؤال، دخل ريتش هائجاً مشعث الرأس والملامح، وكان يحمل بيده رسالة الباشا، وهو يهزّها في الهواء، وتدفقت كلماته:

ـ أيعرف الوالي معنى هذه الرسالة؟

ـ . . .

ـ ويعرف إلى أين يمكن أن تؤدي؟

ـ . . .

ـ إذا لم يكن لديك ما تجيب، فابلغ الوالي، ان ممثل ملك بريطانيا يرفض هذه الرسالة التي تخالف الاتفاقات الموقعة مع اسطنبول ومع ولاة

بغداد منذ سنوات طويلة، أتفهم ما أقول؟

ـ . . .

ـ إنها الحرب، وسوف يندم الوالي كثيراً.

وعاد ريتش من حيث أتى، دون أن يكلف نفسه تحية ناطق أفندي، لا في الدخول ولا أثناء المغادرة!

نقل ناطق أفندي، بالحرف، ما قاله ريتش، وأشار اشارات سريعة إلى الهيئة وطريقة التصرف، وأكد للباشا انه على أتم استعداد لتقديم كتاب تفصيلي يتضمن كل ما وقع منذ لحظة مغادرة السراي، فرد الباشا قائلاً، وكان يهز رأسه:

ـ اكتب كل شيء يا ناطق أفندي، وما ستكتبه، وبعد ان اقرأه بعناية، سوف أبعث به إلى اسطنبول، لأقول لمولانا السلطان، وللباب العالي، كيف يتصرف قنصل بريطانيا، وكيف يقعد بحضننا وينتف لحيتنا!

وخرج ناطق أفندي من ديوان الباشا، وقد أحس ان ثقل الدنيا كلها يربض على كتفيه، لان المهمة المكلف بها لا يعرف كيف يواجهها، خاصة وان عيني السلطان بالذات ستقع على كل كلمة، ولا بد أن يتساءل ثم يسأل رجاله عمن كتب الرسالة، وقد تكون لها نتائج لا يمكن أن يقدرها كلها، ومنذ الآن!

ونام الكثيرون في السراي تلك الليلة، عدا الحرس وناطق أفندي، الذي ارتأى ان من جملة ما قد يساعده في إنجاز المهمة، ان يبقى في البذلة الرسمية التي قابل بها الباشا ثم القنصل، ثم الباشا مرة أخرى، وجمح به الخيال عدة مرات وهو يتصور أن اسطنبول قد تستدعيه ليشرح ظروف اللقاء، وما قاله القنصل، وتبرير ذلك، وتأكيده ايضاً. وظل يردد الكلمة التي قالها القنصل: إنها الحرب، نعم إنها الحرب، وهو المسؤول!

134

لم تتأخر الحرب لكي تُعلن، والقنصل هو الذي أعلنها.

إذ بعد وصول الرسالة اندفع رجال الباليوز لشراء كميات كبيرة من المؤن للبشر والحيوانات والطيور. اشتروا أعداداً من البقر وقطيعاً من الخراف، اشتروا الشعير والسمسم، وأكياساً من الرز والسكر والشاي، كما أوصوا على كميات من التمر والدبس والطحين. أما الفواكه والخضار التي نُقلت إلى الباليوز فكانت العربات لا تتعب ولا تتوقف خلال يومين وليلة وهي تنقلها.

قيل إن الباليوز، بعد أن عجز عن وقف قوافل المؤن من الوصول إلى بغداد، أراد أن يشتري المواد من السوق ليرفع الأسعار من جديد. وقيل إن الباليوز ينوي دعوة أهل بغداد جميعهم خلال أيام الاستعراض، وهو يتهيأ لذلك منذ الآن! وقيل إن شراء هذه الكميات بهدف توزيعها على الفقراء، لكي يثبت القنصل أنه أكرم من الباشا!

وإذا كان المتبطلون هم الذين انشغلوا بالتفسير والتأويل، فإن أغلب الناس أصابهم الذعر. حتى التجار، وهم يبيعون، بأرباح أكبر، كانوا خائفين، إذ قد ترتفع الأسعار من جديد أكثر مما يقدِّرون، وقد تنقطع القوافل مرة أخرى.

رجال الباشا راقبوا كل حركة، وأحصوا كل شيء دخل إلى الباليوز. سجلوا المقادير والمواعيد، وعرفوا من الذي اشترى ومن الذي باع، ورفعوا المعلومات بسرعة إلى الديوان.

الباشا الذي وصلته المعلومات تباعاً قدّر أن القنصل ورجاله، بشرائهم هذه الكميات من المواد، يريدون إفراغ الأسواق ليثيروا الناس على السراي، لأن الأسعار سترتفع بكل تأكيد، وقد تُفقد بعض المواد، ومن شأن ذلك خلق البلبلة ثم الخوف. لكن حين بلغ الباشا أن كثيرين في صوب الكرخ شاهدوا جنود الباليوز منهمكين في حفر الخنادق وبناء الاستحكامات، فقد داخلته الظنون، فأرسل على جناح السرعة خلف إلى صوب الكرخ، وطلب منه أن يصعد إلى أعلى مكان لمراقبة ما يجري في الباليوز، وقد أعطاه منظاره المقرّب كي يتأكد من كل حركة.

بعد أن استطلع خلف عدة أماكن، وجد أن منارة جامع الشواكة أكثرها ملاءمة، لأنها تقابل الباليوز، ولارتفاعها. ومن هناك، وخلال بضع ساعات، تأكد من التغيرات، فنقل للباشا، وبالتفصيل، كل ما رآه: عدد الجنود الذين يعملون في الحفر والبناء؛ انهماك بحّارة السفينة بتدريبات مستمرة؛ الخدم وهم يملؤون أكياس التراب، وزوجة القنصل تشرف على عمل هؤلاء، وكانت ترتدي قبعة كبيرة من القش. وأكد خلف أيضاً أن القنصل ظل ينتقل بين هذه المجموعات، وكان يشير ويعطي الأوامر والتعليمات. وختم خلف كلامه بنوع من الأسف، إذ قال للباشا لو أن هناك جهازاً مثل المنظار المقرب يمكّن من سماع ما يقال في الباليوز لنقل إليه كل شيء.

بعد أن استمع الباشا إلى جميع التفاصيل، ووجّه بعض الأسئلة، ظل متسائلاً مستغرباً عما يدور في عقل هذا القنصل المغرور، وما يمكن أن يقدم عليه. صحيح أنه قنصل دولة عظمى، وربما يفكر بطريقة مختلفة عن الآخرين اعتماداً على قوة دولته، ولكن ماذا يمكنه أن يفعل هنا؟

استعاد الباشا صورة القنصل وطريقته في التفكير والتصرف. قد يكون جريئاً، وتوحي عيناه بالذكاء الممزوج بالمكر، وقد يساعده شبابه على العمل وسرعة الحركة. لكن هل يكفي كل هذا لأن يفكر بالحرب؟ ماذا يظن قوته وعدد رجاله مقارنة بما لدى الباشا؟ والمؤن التي كدسها هل

تكفي لأكثر من فترة قصيرة يضطر بعدها إلى الاستسلام؟ ألا يتوقع أن يحاصره الباشا ويقضي عليه دون طلقة واحدة؟

مرت هذه الأسئلة في ذهن الباشا، وقدّر أن الرجال في مثل هذا العمر قد تغريهم قوتهم، فيتصورون أنهم قادرون على الكثير، لكن حين يواجهون المصاعب والتحديات يكون تراجعهم سريعاً، أما إذا أصروا على أن يركبوا رؤوسهم، في محاولة لتبرير حماقاتهم، فسوف يدفعون ثمناً غالياً.

لكن هل يعقل أن يقدم ريتش على مثل هذه الحماقة منفرداً؟ وإذا لم يكن وحيداً فمن يحتمل أن يعاونه في هذه المعركة؟

وتتالت الاحتمالات في ذهن الباشا: البدو؟ ولكنهم الآن يلعقون جراحهم، ولا يقوون على تقديم أية مساعدة. كرمنشاه؟ حتى لو أراد الشاهزاده أن يتدخل، فان إرسال القوات يتطلب وقتاً وجهداً يكون القنصل خلال ذلك قد انتهى؟ وماذا عن البحرية البريطانية؟ هكذا سأل الباشا نفسه، لكن المعلومات التي وردته من البصرة لا تشير إلى هذا الاحتمال. وحتى لو أرادت البحرية أن تتدخل فإن البصرة وما حولها ستكون الهدف، وقد يطالها الأذى، أما إذا حاولت هذه البحرية أن تصعد في دجلة إلى بغداد، أو أن تأخذ طريق الفرات إلى مكان قريب من بغداد، فإن المقاومة التي ستواجهها من الضفاف ستكون قاسية. يكفي قنص الليل لإلحاق خسائر كبيرة بها وإعاقتها، ثم هناك الجسور وإمكانية إغراق عدد من المراكب في النهر لتأخيرها وإشغالها. أما إذا وصلت إلى بغداد فسوف تتكبد خسائر لا تطيقها، وسيكون ريتش أول الضحايا. . وقبل أن تصل السفن.

ومع أن الأسطول ظل أقوى الاحتمالات، إلا أنه غير قادر على الوصول بهذه السرعة. وفجأة لمعت في ذهن الباشا صور رجاله. هل يحتمل أن يكون قد تم الاتفاق مع واحد منهم، وأن ينقض في الوقت المناسب؟

سأل فيروز، وهما يسيران في الحديقة الجنوبية للسراي:

ـ ما هي أخبار البك؟

ـ البك، يا أفندينا، تخارب ويّا شمسي أميني!

ـ خير؟ أنا أعرف أن الواحد تك للثاني، فعلى أي شيء، اختلفوا؟

ـ البك دز الشيخ شمسي حتى يخطب له بنت محب الدين، ومثل عادته الشيخ، قبل ما يطلب البنية سأل عنها، فقالوا له ماكو بحسنها وجمالها ببغداد كلها، والشيخ بدل ما يخطب البنية للبك خطبها لنفسه. . ووقعت بين الاثنين!

هز الباشا رأسه بحزن وسخرية، وقال:

ـ لا بالله حصلنا، لأن بمثل هؤلاء الرجال راح ننتصر على أبو عيون الزرق!

ـ باچر يتصالحون، يا أفندينا، لأن عركاتهم مثل القرباط ما يندرى ليش تعاركوا وشوكت يتصالحون!

ـ الا بقضايا الحريم، يا فيروز.

ـ حتى بهذي القضايا، يا أفندينا، مثل هالشكول يلقون درب حتى يتصالحوا!

وحاول فيروز أن يبتسم، لكن بسرعة وضع يده على فمه لئلا يسيء الباشا فهم ابتسامته، وتابع:

ـ إذا كان الشيخ شمسي يلقى فتوى لكل قضية، ويعرف شلون يحلل ويحرّم، وشلون يذبحها على القبلة، فلا بد يلقى فتوى لنفسه ولغيره!

ـ قول الله، ونحن ما علينا لأن الحجّاز بمثل هذي القضايا يناله أكثر من صاحب القضية!

خيم صمت قصير، سأل الباشا من جديد:

ـ وشيخنا وكاتم أسرارنا، محب الدين، شقال؟

ـ مثل ما تعرف يا أفندينا: المال يعمي القلب والعيون، وشيخنا ما أعطى موافقته بزواج بنته إلا بعد ما حلب حتى النملة!

ـ شلون؟

ـ للشيخ محب الدين عيون هوايه، وقبل ما يوافق، ويقول أي عرف أن البك نفسه بالبنية، فوصّل خبر أن اللي يدفع أكثر، البنية له! لكن غضب البك من مكسورة الشيخ شمسي خربت الشغل، قال: البنية طلعت من نفسي، لا أريدها ولا أريد أسمع بطاريها!

قال الباشا وهو يتوجه إلى الداخل، وكان مهموماً:

ـ لا تنسَ، يا فيروز، تدز للبك، وللشيخ شمسي أميني قرّابة عسل لكل واحد منهم، ومع القرّابة خمسين طير حمام، لأني بمثل هؤلاء الرجال أريد أن أفاخر الأعداء يوم المعركة!

وبعد قليل

ـ وتذكّرني . . . لازم ندفي ايد شيخنا محب الدين بكم فلس، خاف الرجّال يكون محتاج . . وما ندري!

ـ أمرك أفندينا.

رواد قهوة الشط الذين شهدوا خلف وبيده المنظار المقرّب، لاحظوا مروره السريع على جامع سوق حماده، وتحدثه، للحظات، مع ملا حمادي، ثم عرفوا انه ذهب إلى جامع الشواكة، واعتلى المنارة، فقدروا أن شيئاً ما جعل خلف يعدل عن هذا الجامع ويذهب إلى ذاك. وجمح الخيال ببعضهم أن السبب وراء ذلك هو الملا وليس المنارة، الأمر الذي جعلهم يتندرون، من جديد، على الملا حمادي. ولو كان الوقت غير هذا الوقت لدُبّرت المقالب ورويت القصص، ومع ذلك فان رسالة وصلت بعد أيام إلى قهوة الشط باسم الملا، وقيل إنه ورد فيها الكثير من التهديد والوعيد، كما وُصف صوت الملا إنه يشبه ما ذُكر عن الصوت القبيح في القرآن! وورد في نهاية الرسالة «أن على الملا حمادي تحضير نفسه للعقاب، لأنه هزّم أهل الكرخ من الصلاة والعبادة».

كان يمكن لمثل هذه الرسالة أن تحدث اضطراباً، قد يصل إلى حد الخصومة، كما حصل قبل سنين بالنسبة لرسالة حسون، غير أن الملا، بعد أن قرأ الرسالة، انحدرت من عينيه دمعتان، وقال للذين حوله إن مثل هذا

الكلام لا يكتبه إلا عدو حاسد أو كافر فاسق. وبعد أن كفكف دموعه، وترك فترة من الصمت تمر، سأل الذين حوله:

ـ صحيح يا جماعة. . ما سألتكم عن أبو فلاح، شلونه وشلون أخباره؟

الذين لا يعرفون بالخصومة بينه وبين سيفو ردوا أن أبا فلاح بصحة جيدة، وأنه شديد الانشغال بالخيل، لكن سؤاله، وطريقة السؤال، أكدتا أن الملا حمادي يعتبر سيفو وحده وراء هذه الرسالة!

وحاول بعض رواد المقهى، ومن قبيل الدعابة، بعد أن رأوا المنظار المقرّب الذي يحمله خلف، وعرفوا مزايا هذا المنظار، أن يرتبوا مكيدة لحسون، خاصة بعد أن التهب قلبه مجدداً بحب زوجة القنصل، ومرابطته الطويلة أمام الباليوز علّه يراها. فقد فكر هؤلاء بإقناع أو إغراء حسون بشراء منظار مؤيد الصالحي المعروض للبيع، أما مسألة الثمن فيمكن رهن الحصان مؤقتاً، إلى حين جمع الثمن المطلوب، وكاد حسون يتورط بهذه المكيدة، لكن ما أن عرف الأسطة عواد حتى لعلع صوته، وهو يجر المنظار من يد حسون، ويقول له:

ـ لك بومة، لشوكت تخلي الناس يقشمروك؟

وحسون الذي فوجىء بغضب الأسطة عواد، رد بخوف مشوب بالحزن:

ـ وداعتك، عمي، ما مسوي فد شيء مو زين!

وحين وضع الأسطة المنظار في مجرّ الطاولة وأقفل عليه، تابع حسون بنفس اللهجة:

ـ اللي ردته، عمي، أباوع للبعيد، لأنه بكل الداير منداري ما شايف فد شي يفرّح، فحرام إذا فرحت؟ إذا شفت شنو اللي راح يصير باچر وعقبه؟

بعد أن هدأ الأسطة عواد، قال لحسون بأبوة:

ـ يا حسون، يا ابني، إنت بفكرك شي، وهذول الحبربش اللي يريدون بيع المنظار بفكرهم شي ثاني، فخليك عاقل ولا تدير لهم بال. . .

والتفت الأسطة إلى صالح الأعور، الذي كان وسيطاً لبيع المنظار:

ـ وإنت صالح، إذا ما تبطّل مكسراتك أكسر راسك، سمعت لو لا؟

ـ على كيفك أبو نجم، رد صالح بغضب، ولازم تعرف إن اللي يقدر يكسر راسي بعد الله ما خلقه!

وتوجه بحدة يريد الخروج، وهو يقول:

ـ يحرم عليّ أطب هالقهوة بعد اليوم!

قال سيفو بمرح:

ـ تمشَّ صالح، خذ لك قمع وثاني، وبعد ما تنام وتستراح نتفاهم!

طويت هذه القصة تماماً في اليوم التالي، لأن نقطة الحراسة التي خصصتها السراي للباليوز منذ وقت طويل، لم يُطلب رفعها بطريقة لبقة ورسمية، وإنما لجأ ريتش إلى طرد جنود الحراسة، وأبلغهم بعصبية أنه لا يريد أن يرى وجوهم مرة أخرى، وأن بريطانيا العظمى تعرف كيف تحمي نفسها!

لم يكتف ريتش بذلك، فقد أقام نقطتي حراسة، واحدة في كل طرف من الشارع الذي يقع فيه الباليوز، ومنع المرور في ذلك الشارع، حتى الذين يسكنون فيه ضيّق عليهم إلى أقصى حد. كان الحرس من القسوة والفظاظة، وعدم معرفة اللغة، إلى درجة أن سكان الحيّ ضجوا بالشكوى بعد أن أشهر الحرس السلاح في وجوههم، ومنعوا بعضهم من الوصول إلى بيوتهم!

أما عندما بدأت سفينة الباليوز بتوجيه مدافعها نحو السراي، فقد أمر الباشا أن يُنقل أحد المدافع إلى جانب الكرخ، وأن يوضع بالقرب من جامع الشواكة، مقابل الباليوز تماماً.

كان انتقال المدفع مهرجاناً كبيراً، فقد رافقه أحد أبرز عسكريي قلعة الفرسان. وبعد أن عبر الميدان الكبير نُقل بالمركب الأخضر، وهو أحد أكبر المراكب التابعة للسراي. ورغم أن الكثيرين شعروا بالزهو أثناء مرافقتهم للمدفع، إلا أنهم لم يحافظوا على مسافة الأمن، كما أطلق ناطق أفندي على المسافة الواجبة بين الناس والمدفع، أو كما قال لهم: «هذا

مثل البهيم: لا يفهم ولا يسمع، ويجوز يرفس. ومثل ما البني آدم يخلي بينه وبين البغل مسافة، حتى ما تلحقه اللبطة، ويجوز هذي تحصل من قرادة أو ذبانة، يمكن هذا العربيد يساوي نفس الشيء، وكان يشير إلى المدفع، ولهذا السبب، يرحم والديكم، خلوا بينكم وبينه مسافة الأمن» والناس الذين امتثلوا، وكانوا أشبه بمن يرافق عريساً، من حيث الزهو والمسافة، وبما يشبه الفخر، تم نقل المدفع إلى صوب الكرخ.

أصحاب البلام والقفف، وحتى بعض السباحين، رافقوا المدفع أثناء عبوره، أما الذين لم تتح لهم مثل هذه الفرصة، ولم يُهيئوا أنفسهم لعبور النهر سباحة، فقد ركضوا كالمجانين لعبور الجسر، ولا يُعرف كيف أبلغ الناس في جانب الكرخ، أو كيف أحسوا، أن حدثاً كبيراً ينتظرهم، ولذلك اندفعوا كالأمواج لملاقاة المدفع. فما إن توقف المركب الأخضر في شريعة السويدي، وبدأ الاستعداد لإنزاله، حتى ارتفعت أصوات التكبير والترحيب، ومعها هلاهل النسوة، وكانت بين هاته النسوة: زينب كوشان.

إنه يوم مشهود من أيام الكرخ، ومع إنه عرف، منذ وقت مبكر، أن بستان زيدان الملاصق لجامع الشواكة هو المكان الذي يقابل الباليوز على الضفة الأخرى من دجلة، وشوهد بعض العمال في اليوم السابق يهدمون السور الطيني القريب من البوابة الضيقة للبستان، ويمهدون الأرض إلى جانب النهر، وبالتالي سيكون المدفع في ذاك المكان، ومعه مجموعة من الجنود لمراقبة الباليوز، فان الكثيرين حاولوا أن يكون المدفع قريباً منهم، قالوا ذلك بصوت عالٍ وهم يرافقون الموكب وكانوا يهزجون ويغنُّون.

قال سيفو، وكان على رأس المستقبلين في شريعة السويدي:

- هذا الطوب طوبنا، علّمونا عليه وبعدها ما عليكم. ما راح نخلي من هناك يطلع مخبّر!

والذين رافقوا المدفع من المسؤولين لم يسمعوا كلام سيفو، ولم يكونوا ليهتموا حتى لو سمعوه، إذ واصلوا طريقهم نحو بستان زيدان. قال صالح الأعور الذي كان بين المستقبلين، وكأنه يرد على الأسطة عواد:

ـ لا تروح زايد أبو فلاح، هذا طوب مو استكان شاي!

ـ الطوب بإيدين أمينة وعند اللي يحبونه، يا صالح. وراح تشوف شلون يصيح وشلون يجاوب، لأن مثل أهل الكرخ ما يلقى. نحرسه بعيونّا، ونسهر عليه الليل كله، وإذا برد نغطّيه، وإذا ضاج نعرف شلون نونسه، مو مثل غير ناس: يبيعون ويمشون!

ـ لا تصچم أبو فلاح، والدلالة مو عيب!

ـ حاشاك، صالح، وسالفتنا هسّة غير سالفة!

واستمر المدفع في طريقه إلى بستان زيدان. ما أن دخل عبر السور المهدوم، واستقر في مكانه، مقابل الباليوز، حتى سمع الكثيرون زينب تقول، في لحظة صمت:

ـ صار لي سنين ألوب على من يحصّل لي حقي، ولا من يسمع ولا من يقول. ومن هذي الساعة، وبعد ما جانا واحد من نسل حيدر، بعد ما صار الطوب بصوبنا، ارتفع بيرقنا، وهسه بحيل صدر نقدر نحچي ونقدر نقول!

ولم تنتظر، طشّت مقداراً من الملح على المدفع، وهي تهلهل، ثم تقول:

ـ ملح العباس يشفي ويعمي. كل من يحب الفقرا، ويحمي الضعفا ويقول لا إله إلا الله، يشفيه ملح العباس. ويعمي كل ظالم وابن حرام، وكل واحد يأكل حقوق الناس...

الذين فوجئوا بكلام زينب كوشان، استمعوا بصمت لما تقول، فشجّعها صمتهم فتابعت:

ـ بصاية أبو الخيمة الزرقا، وبصاية هذا الهداد الرداد، وكل واحد عنده مروة، راح محلة الشيخ بشار ترجع لأصحابها، وإلكم عليّ سبعة أيام بلياليها، دقّ وغنا للفجر، فأريد مروتكم يا نشامئ!

وألقى عدد من الشعراء قصائد تحية للمدفع، والملا شعبان باركه وقرأ عليه بعض الأدعية، أما أكثر مشهد مؤثر ومعبر فكان مشهد غالب، حفيد الحاج صالح العلو، وهو يحمل باقة من الزهور ويضعها على المدفع، ثم

يقول بصوت صغير مرتجف:
ـ هذي من جدي وبيبتي.
كان فرح الناس، في تلك اللحظات، لا يوصف، وقد التفت أكثرهم بحثاً عن الحاج صالح العلو.
كان الحاج، في نهاية البستان، جالساً على حافة السور الواطىء وهو يتوكأ على عصاه. كان وجهه يضيء، خلافاً للفترة السابقة كلها، وإلى جانبه الأسطة إسماعيل وسيفو.
قال الأسطة إسماعيل للذين حوله:
ـ من زمان ونحن ننتظر مثل هذا اليوم!
ـ والحمد لله صارت بغداد صوب واحد مو صوبين، قال الحاج صالح.
سيفو الذي كان فرحاً معتزاً كاد يقول: «هذا اليوم يومك يا بدري»، لكنه ابتلع كلماته في اللحظة الأخيرة حين التقت عيناه بعيني الحاج صالح الحانيتين، إذ هتف بنشوة:
ـ وين تروح من أهل بغداد يا أبو الدقايق، يا أبو عيون الزرق؟
قال ضابط القلعة المسؤول عن المدفع، وبدا فخوراً:
ـ بليا مطرود يا جماعة الخير، ومثل ما تعرفون: الطوب لازم يستراح ولازم يتحضر، حتى إذا جَتّ الساعة يعرف شلون يحچي!
ولما بدأت كتلة البشر تتفكك وتتحرك، امتثالاً لطلب ضابط القلعة، قال بمرح:
ـ وخلوا قلوبكم صخر جلمود إذا سمعتم صوت الطوب.
كانت مشاعر الناس، وهم يأوون إلى فراشهم تلك الليلة، مزيجاً من الفخر والترقب، إضافة إلى أسئلة لا تنتهي عما تخبئه لهم الأيام.

135

«من يضغط على الزناد قبل الآخر؟»

هذا هو السؤال الذي كان يتردد على ألسنة الكثيرين في بغداد، وهم يرون وجوه حرس الباليوز تزداد قتامة يوماً بعد آخر، ويزداد معها منع المرور أو الاقتراب من الباليوز. أما حين قام ميناس بزيارة ساكني الجوار، وطلب منهم إخلاء مساكنهم قبل أن تقع فوق رؤوسهم، «لأن الباشا عمّر المدافع ونشر الجنود، وقد يضرب اليوم قبل باچر»، فقد تأكّد أن الحرب واقعة لا محالة.

في جانب الكرخ، بالقرب من بستان زيدان، أصبحت هوسات المدفع طقساً يومياً، إذ وجد الكثيرون أن الحمية تقتضيهم توجيه التحية للزائر الجديد ومرافقيه؛ وحمْل الأكل والشموع والبخور إليه، ثم لعقد التجمعات، وإجراء المراهنات عن مدى المدفع، وما يمكن أن يفعله، ومواصفاته من حيث الدقة في التصويب. كان ذلك يجري في جو من الأخوة والمرح، وكان الجنود المكلّفون يجيبون على الأسئلة، ويبدون مقداراً من التسامح والمشاركة، إلى أن صدرت الأوامر بمنع اجتياز سور البستان، فكان ذلك دليلاً أن ساعة الحسم قد اقتربت، ويمكن أن تقع الحرب في أية لحظة.

الحاج صالح العلو، بعد أن انتهى الاحتفال باستقبال المدفع، طلب من ابنه نعيم وذنون إبلاغ ضابط قلعة الفرسان «أن يتفضل بالموافقة ويعتبر نفسه وجنده ضيوف صوب الكرخ، وأن الأكل سيصلهم ثلاث مرات يومياً،

وكل ما هو مطلوب أن يحدد الوقت والعدد التقريبي». وأضاف نعيم، في محاولة للتغلب على أية ممانعة أو تردد:

- وأهل صوب الكرخ حاضرين لأكثر من هذا، وما يردّ الكريم إلا البخيل!

أما الأسطة عواد فقد ذهب بنفسه في اليوم التالي، وقال لضابط قلعة الفرسان:

- قهوتكم والشاي حسابها واصل، والجماعة في قهوة الشط يقولون: هذا أضعف الإيمان، بس جيت اليوم حتى أسأل: تريدون واحد من وِلد القهوة يكون هنا بخدمتكم، أو تريدون ندز القوري والاستكانات ومعها السكر والشاي وانتو تخدرون؟

والضابط الذي ابتسم وهز رأسه ببطء دلالة الامتنان، رد بارتباك:

- ما نريد نجرّبكم يا أهل هذا الصوب، شجاعتكم وكرمكم مضرب المثل، وهذا الشي مو من البارحة أو اليوم، فما نريد نسوي زحمة عليكم ونشغلكم بأكلنا وشربنا. . .

وزادت ابتسامته، وهو يمد يده ملاطفاً إلى كتف الأسطة عواد، ويتابع:

- وبس نخلص من هذي القضية، ونكمل الواجب، لك عليّ أن أمر على قهوة الشط، والجماعة كلهم وياي، وبدل استكان الشاي نشرب ثنين وثلاثة.

- هذي، مولانا، سالفة ثانية. وبعدين جيّتكم للقهوة شرف إلنا؛ أما سالفتنا هسّه، وسؤالي: تريدون أحد يجي هنا للقهوة والشاي، أم ندزها من هناك؟

قال الأسطة عواد للذين حوله في القهوة:

- يبيّن ضابط الطوب شهم وخوش ولد، وإذا الله ما كذبني يجوز أعرف أبوه! لما سألته عن اسم العائلة، رد بأدب وبصوت ناصي: العطا، ولما سألته عن اسم الأب قال: فاضل. قلت له: طلعنا قرايب، لأن أمي من الشيخ عمر!

قال الأسطة إسماعيل، وكان يهز رأسه في محاولة للتذكر:

ـ فاضل العطا... فاضل العطا...

وبعد قليل وقد التقط طرف الخيط:

ـ ليش تروح بعيد، أبو نجم، مو هذول بيت عطا اللي كانوا يتاجرون بالدهن؟

ـ جبتها يا أبو حقي. تمام. هسه تفطنت!

ـ وإذا أتذكر أزيد، يا أبو نجم، أبوه لهذا الضابط اللي تحچي عليه، أكثر وقته بالعرب، ويّا العربان، حتى يحصّل دهن زين!

قال سيفو بنزق:

ـ وآني تذكرته، فإذا نفس الشخص، فكان، الله يستر عليه، مغلواني، أسعاره نار!

ـ لكن دهنه زين وينضرب بيه المثل، رد الأسطة إسماعيل.

بعد أن خيمت لحظة صمت، قال الأسطة إسماعيل ليغير الجو قليلاً:

ـ إذا إنت، يا أبو نجم، وويّاك الحاج صالح، كسبتم الدنيا والآخرة: واحد يدز الأكل والثاني يدز القهوة والشاي، فآني طلعت ملص...

وبعد قليل وهو يقهقه:

ـ لا خيل عندي أهديها ولا مال، فشنو اللازم أسوّيه؟

هدأ قليلاً، وكانت العيون لا تزال تتابعه وتنتظر ما سيقول، لم يتأخر:

ـ بلغوا ابن العطا: زيانه وزيان جماعته عليّ... وببلاش!

قال سيفو، وهو ينهض:

ـ أبو فلاح ما عنده لا مال ولا صنعة، لكن يعرف شلون يحط الآدمي الزين ببطن عينه، وشلون يخدم اللي يستاهلون!

مثل هذه الأحاديث، أو ما يشابهها، دارت في المقاهي والأسواق، ثم انتقلت إلى المحلات، حتى البعيدة، وإلى الدرابين. وإذا كانت أحاديث الرجال اتسمت بالوقار، وقد خالطها الخوف والانتظار، فان أحاديث النسوة اتخذت، ومنذ البداية، جانب التحدي والهزء من هذا «الزعطوط

اللي يريد يرسم ويحكم وشواربه بعدها ما خطّت، وحريمته كأنها بزونة يتيمة ما توزن مسواك. . . وهمين تركب خيل!» أما الصبية فكان لديهم كل يوم أهزوجة جديدة، إذ كانوا يدورون في الشوارع وهم يرددون الأغاني، ولا بد أن يجتمعوا عند المدفع مرتين أو ثلاث مرات كل يوم، إلى أن صدرت الأوامر بمنعهم من الاقتراب.

ظلت السراي تراقب وتنتظر. أما حين أرغم الباليوز، وبأشكال شتى، سكان الجوار على ترك مساكنهم، فقد قرر الباشا أن يتحرك. أوفد عزرا أفندي، صراف باشي، ومعه ناطق أفندي، للقاء القنصل، والتفاوض معه من أجل تهدئة الموقف والوصول إلى حلول مناسبة، خاصة بالنسبة للسكان الذين رُحّلوا، وللمرور في شارع النهر، وأيضاً لاستمرار وصول المراكب الحاملة للمؤن.

قال الباشا لعزرا يوصيه:

- . . . وتقول له: الصلح سيد الأحكام، ونحن جماعة لا نريد الحرب أو الاختلاف؛ لازم ترجع المراكب مثل قبل، وترجع الناس لبيوتها وأشغالها، ومن يقول لنا مرحباً نقول له مرحبتين. . .

وبعد أن صمت قليلاً تابع، فجاءت لهجته ودودة وواثقة:

- وإنت، يا عزرا أفندي، تعرف القضية من الأول للتالي، فتقول «لصاحبنا»: إعقل، خلِّ الرحمان، مو الشيطان، يقود خطواتك، وأكثر من هذا ما أريد أوصيك!

أما لناطق أفندي فقال الباشا:

- تصير لعزرا مثل ظله، تسمع كل ما ينقال وتنقشه براسك، حتى اللفتة والضحكة لازم تبلِّغني بها، أما الغمزة، يا ناطق أفندي، فتقول الكثير، وما أظنها تفوتك. . .

ابتسم الباشا ثم أضاف:

- إنت عيننا وإذننا بهذي القضايا الكبيرة، وعليك الاعتماد، وبعد ما نجتاز هذه المرحلة تنتظرك أشياء كثيرة. . يا ناطق أفندي!

رغم الموكب الرسمي الذي حمل عزرا وناطق، إلا أن حراس الباليوز لم يسمحوا له بالمرور إلا بعد مشاورات طويلة وانتظار، مع أن قائد مجموعة الحراسة عرف عزرا لكن قال بأسف:

ـ إنها أوامر سعادة القنصل، يا سيدي، ولا يمكن مخالفتها!

عزرا الذي بدا مرحاً خلال اللحظات الأولى، معتبراً الأمر عادياً ولا يستوجب الانفعال، بل وخرج من العربة وحرّك جسده كأنه يتريض، إلا أن مرور وقت غير قصير دون أن ترد موافقة ريتش جعله يحتد ويتساءل. أما عندما بدأ حديثاً مع قائد مفرزة الحرس فقد اضطر ناطق أفندي للنزول من العربة أيضاً كي لا تفوته أية كلمة أو تصرف!

بعد انتظار طال كثيراً، كاد خلاله يقفل عزرا راجعاً، وصل ميناس. وبعد أن سأل عن الغاية من الزيارة، سمح للموكب أن يواصل مسيرته نحو الباليوز.

لأول مرة في حياته يشعر عزرا أنه صغير ومهان. أما الحرس الذين كانوا يرافقونه فقد تبادلوا فيما بينهم الهمسات وبعض الكلمات، ومع إنها لم تُسمع إلا انها قالت الكثير حول موقف القنصل من رجال الباشا، بمن فيهم عزرا!

كان القنصل في الحديقة، تحت عريشة من الجهنميات تفرد ظلها الوريف. لم يتوقع أحد وجوده هناك إلى أن ترجل عزرا وناطق أفندي، وبدل أن يقودهما ميناس إلى مبنى الباليوز توجه نحو تلك العريشة. على بعد خطوات من ذلك المكان برز ريتش. كان بملابسه العسكرية الكاملة، وقد وضع مجموعة من النياشين على صدره، وحمل عصا قصيرة، لكنها متينة ولها غلاف فضي في نهايتها.

ظل ريتش في مكانه وعزرا يتقدم نحوه. كان عابساً، محمر الوجنتين، وقال ناطق أفندي، وهو يصف للباشا منظر ريتش: «. . . وكان المنظار المكبّر معلقاً برقبته، وكانت شفتاه ترتجفان، وعيناه لا تستقران في مكان. أما العصا فكان يحركها بطريقة عصبية، وكأنه يهش بها على غنم، وكان

بين لحظة وأخرى يخبط الأرض بقدمه اليسرى».

سأل ريتش، قبل أن يطلب من عزرا أفندي الجلوس:

- هل جئت بصفتك الشخصية أم مكلفاً من الوالي؟

رد عزرا، في محاولة لأن يخلق جواً من الألفة:

- أول شيء، يا سعادة القنصل، يردون السلام، وبعد أن نقعد ونستريح يمكن توجيه مثل هذه الأسئلة.

- أريد أن أعرف الصفة أولاً، لكي نحدد طريقة التعامل.

- جئت، يا سعادة القنصل، بالصفتين، جئت بصفتي صراف باشي، وممثل لفخامة الوالي؛ ولأن معرفة أقرب إلى الصداقة تربطنا!

- إذا جئت ممثلاً للوالي فليس لدي ما أقوله لك، ولست على استعداد سماع أية رسائل من جانبه، ويبدو لي أنك بهذه الصفة جئت، لأن السيد، لا أتذكر ما اسمه، جاء معك. أما الصداقة التي تشير إليها فليس هذا وقتها و هذا مكانها.

أخذ عزرا أفندي نفساً عميقاً، وكأنه من خلاله يستمد قوة، ورد:

- إن الغضب، يا سعادة القنصل، لا يحل المشاكل، كما يفسد علاقات بين أناسٍ يمكن أن يتفاهموا.

- عزرا أفنديَ.. لا أريد أن أخوض في أي موضوع قبل أن أعرف صفة، وبأي شيء أنت مفوض...

- إنني مفوض بالتفاهم مع سعادة القنصل حول كل الأمور.

- ليس هناك سوى أمر واحد: الرسالة التي جلبها السيد، وأشار إلى ناطق أفندي، لا تعتبر لاغية فقط، بل وأريد رسالة إعتذار عن كل ما ورد فيها، فإذا كانت لديك مثل هذه الرسالة يمكن أن نواصل الحديث، أما غير ذلك...

وتحرك ريتش، وهو يشير بعصاه القصيرة إلى العربة التي أقلّت عزرا وناطق، وإلى الخيول التي ترافقها، وخرجت الكلمات حادة:

- يمكن أن تركب العربة وتعود من حيث أتيت لتجلب الرسالة التي

أريدها، وبعدها نتحدث.

قال عزرا، بعد أن عب نفساً عميقاً:

ـ يا سعادة القنصل...

ـ قلت لك شيئاً محدداً، ولست مستعداً أن أسمع أي شيء آخر.

في هذه الأثناء تقدم من مبنى الباليوز خمسة من العسكريين، وقدّر ناطق أفندي أن هؤلاء من الدفعة التي وصلت أخيراً. تقدموا بخطوات متمهلة، واثقة، باتجاه القنصل. شعر القنصل بزهو كبير، قال دون تردد، وقد رفع صوته:

ـ عليك أن تذهب بعربتك إلى الوالي، وبعد أن تحمل منه كتاب الاعتذار، والتراجع عما جاء في كتابه السابق، يمكن أن أستقبلك مجدداً، ليس اليوم أو غداً، وإنما بعد الغد!

حاول عزرا أفندي أن يبتسم، أن يحيي القادمين، لكن القنصل لم يترك له أية فرصة، قال، وخرج صوته أقرب إلى الزعيق:

ـ قلت كلاماً واضحاً، وأي رجل يحترم نفسه، بعد أن سمع هذا الكلام، عليه أن ينسحب!

ـ سعادة القنصل...

ـ اسمع يا عزرا أفندي: لا أحتمل هذه المداهنات الشرقية، ولا أحب المراوغة، الأفضل أن تغادرنا الآن... وبعد أن تأتيني برسالة واليك، وبالشكل الذي ذكرته، يمكن أن نتحدث!

ابتسم عزرا أفندي، ونقّل نظراته بين ميناس الذي يقف بموازاته، وبين الضباط الذين وصلوا للتو، وقد أدوا التحية للقنصل، وقال بطريقة ودية:

ـ سعادة القنصل، الأفضل أن نجلس ونتحدث.

ـ استغرب تماماً كيف تحاول الالتفاف على الموضوع، وتلجأ إلى المخادعة...

وبعد قليل، موجهاً الكلام إلى ميناس:

ـ يمكن أن تقود هؤلاء، وأشار بعصبية بعصاه، إلى طريق الخروج!

قال ناطق أفندي، وخرج صوته مرتجفاً:

ـ نحن نمثل السراي، يا سعادة القنصل، وعليك أن تستمع لما نقول!

ابتسم ريتش بسخرية، وخرج صوته بطيئاً:

ـ استغرب أن يبعث بك الوالي لتبلغ رسالة ونقيضها، ولا بد أن يكون أحدكما قليل التبصر.

قال عزرا بحدة:

ـ سعادة القنصل.

لكن المقاطعة كانت حادة وحاسمة:

ـ إذا لمْ تغادرا هذا المكان فسوف آمر بإعتقالكما فوراً.

وقال ناطق أفندي للباشا «وهز في وجوهنا عصاه، وكاد يقترب من عزرا، الذي تراجع في الوقت المناسب، وكانت الشفتان ترتجفان، والقدم اليسرى تخبط الأرض بعصبية، وفكرت أن أتدخل، يا أفندينا، لكن رأيت أن أصمت، امتثالاً لتعليمات جنابكم، وهكذا اضطررنا لمغادرة المكان.».

قال الباشا لطلعت باقة، وهو يطلب منه أن يعبر إلى جانب الكرخ:

ـ إنت عسكري ومجرَّب. إذا رأيت حركة غير عادية، وقبل أن يضربوا السراي.. إضرب!

ابتسم ابتسامة صغيرة ومشفقة وأضاف:

ـ حرام ننجّس أيدينا بدم هذا الثعلب، لأنه إذا تصوب أو مات، يصير قضية وبيرق، والأحسن نخليه يصوم صوم ذي الكفل.

سأل طلعت باقة بمكر:

ـ بقضايا الدين آني ما افتهم، يا أفندينا، فقل لي: شنو اللازم أسويه؟

ـ ما ينراد أقول شنو اللازم يسويه عسكري مثلك، لكن تعرف: الخنق أحسن من السكين، لأن الخنق يمّوت سنطة، بليا ما يحس أحد، أما الدم فيلحق البني آدم في المنام وإلى يوم القيامة!

ـ يعني نصبر على صاحبنا؟

ـ عفاريم . . .

وبعد قليل :

ـ ومع أول طلقة ، وإذا تمكنت قبلها ، تخليه أثراً بعد عين !

وقال الباشا لخلف :

ـ بعد اليوم ، يا خلف ، ما أريد يوصل للباليوز خِلالة ، وأريد أشوف هالثعلب شقد يتحمل ، وشوكت يصيح : آخ ، وينكم يا عباد الله ، وينكم يا أهل المروة .

انقضى أسبوع لم يخرج أحد من الباليوز ، ولم يصل إليه أحد .

مدفع الكرخ يحمحم ، خاصة بعد أن زاره طلعت باقة ، وبعد أن صعد إلى منارة الشواكة ، وراقب كل شيء . أما حين اختار أمجد السامرائي ليراقب الباليوز ، فقد كان مطمئناً أن أمجد يرى جيداً ، ويستطيع أن يقدر الحركات وما يحتمل أن ينجم عنها ، ولم يطل إقامته في الكرخ . قال للباشا ، وهو يمتلىء بالزهو :

ـ مثل رأيك يا أفندينا : الخنق أحسن من الدم ، والدنيا ينحزر عليها من مظاهرها !

لم يرد الباشا مباشرة ، ولكنه استعاد بيتين من الشعر :

ـ وإنّا لنلقى الحادثات بأنفسٍ كثير الرزايا عندهن قليل

يهون علينا أن تصاب جسومنا وتسلم أعراض لنا وعقول

ومع أن الاستعدادت لم تتراخ في الباليوز ، إذ استمرت التدريبات وحركة الجند ، وكان ريتش يُشاهد مرات عديدة في اليوم وهو يتفقد الاستحكامات ، وهو يصعد إلى ظهر السفينة ، وشوهد أيضاً وهو يستعمل منظاره المقرّب لمتابعة ما يجري في الضفة الأخرى من النهر . وحين أبلغ أمجد رجال المدفع أن القنصل يراقب تحركاتهم من خلال منظاره ، فقد صفّوا أحذيتهم عند طرف النهر ووجهوا أسفلها نحو الباليوز !

بعد أسبوعين والحالة لا تزال تراوح مكانها ، شعر القنصل أنه وضع نفسه في مأزق ، إذ لا يقوى على مواجهة الوالي بما لديه من قوات ، كما لا

يستطيع أن يتصل بأحد لنجدته، وأن الباشا في وضع يمكّنه من الانتظار. وهكذا بدأ ريتش يفكِّر بفك الحصار. جمع أركانه: الضباط الذين جاؤوا خلال الفترة الأخيرة، إضافة إلى نائبه وطبيب الباليوز، وطلب من ماري أن تكون حاضرة أيضاً «لدراسة الموقف وإتخاذ القرار» ومع أن ماري أشارت بضرورة حضور ميناس لهذا الاجتماع «لأنه أدرى بعقول الناس هنا وكيف يفكرون، وماذا يمكن أن يفعلوا» إلا أن ريتش رفض الاقتراح بحزم، إذ قال لها، وتعابير الاشمئزاز ظاهرة على وجهه:

- يجب أن تكوني على ثقة، يا عزيزتي، خاصة بعد اعترافات الخونة على الآغا عليوي، أنه لا يمكن الثقة مطلقاً بأي إنسان شرقي...

وحين رأى الاستغراب على وجهها، ولديها ما تقول، تابع بحزم:

- حتى ميناس، يا ماري، لا يمكن أن نثق به كل الثقة، أو كما نثق برجالنا، لأن لا أحد يعرف متى يتغير هؤلاء الشرقيون! دائماً لديهم ما يبررون به مواقفهم، إذ يتذرعون بالخوف، أو أنهم وقعوا تحت ضغوط لم يستطيعوا مقاومتها، وربما لأنهم يعتبروننا غرباء، ولا بد أن نرحل في يوم من الأيام، وهم سيبقون هنا للحفاظ على الثروات التي جمعوها، وعلى العلاقات التي تربطهم بالناس هنا.

- لكن أمه، يا كلود، قالت لي مرات عديدة: لا يمكن أن نبقى يوماً واحداً بعد رحيلكم، ولا بد أن نسافر معكم!

- إنهم يقولون أشياء كثيرة يا ماري، لكنهم لا يعنونها، ثم بسرعة ينسون أنهم قالوها!

- ولكنه أكثر منا خبرة بهؤلاء القوم، يا كلود!

- هكذا يدّعون...

وابتسم وهو يضيف:

- ثم إنه مضى على إقامتنا هنا ما يزيد على عشر سنين، وأصبحنا نعرف البلد أكثر من أهلها، فلا داعِ لأن نتوهم بوجود أشياء لديهم لا نعرفها!

سلّمت ماري، على مضَض، برأي زوجها.

سأل ريتش رجاله، وقد تصدَّر الطاولة البيضاوية:

ـ هل نستطيع، بما لدينا من رجال وعتاد ومؤونة، أن نفك الحصار؟

ومع أن الإجابات كانت متفاوتة، ولوّن بعضها الحماس والانفعال، إلا أن المحصلة الأخيرة للنقاش وتبادل الآراء والاقتراحات، دلت أن المشكلة لا تنتهي بفك الحصار عن الباليوز، وإنما تبدأ بعد ذلك، لأن الأهازيج التي يرددها الناس في الشوارع، وتلك الخرق التي تكتب ثم تربط على أجساد الكلاب وتطلق نحو الباليوز، وهي مليئة بالشتائم والتهديد، تدل على حقد الناس، وبالتالي فإن فك حصار الباليوز يعني الغرق وسط هذه الجموع المنفعلة الغاضبة التي لا تبالي بأي شيء، ويمكن أن تقتل وتنهب دون أن يرف لها جفن.

طبيب الباليوز، وهو في العادة قليل الكلام، لكنه إذا تكلم يعرف كيف يكون لاذعاً في سخريته، قال هذا الطبيب، وهو ينقل عينيه بين الوجوه الصارمة حوله:

ـ يجب أن نكون شاكرين لهذا الوالي لأنه جنّبنا، حتى الآن، لقاء الجموع الغاضبة أو التعامل معها!

وحين تركزت عليه النظرات، تابع بمرح:

ـ حالنا الآن كمن يهرب من النهر الصغير ليرمي نفسه في البحر الهائج، ولذلك علينا أن نبقى في هذا النهر، ، أو أن نخرج منه إلى الضفاف القريبة.

ولما بدا الكلام الذي قاله غير مفهوم بالمقدار الكافي، أضاف بسخرية:

ـ إذا لم يكن سعادة القنصل ينتظر نجدة سريعة، ولا أدري من أين، اقترح أن نفك الحبال التي ربطنا أنفسنا بها، أي أن نتفاهم مع الوالي.

تصدى أكثر من عسكري للرد على الطبيب، وقد غمزت الردود من قناته لعدم إلمامه بشؤون الحرب، وظل القنصل يستمع ويدقق كي تكون كلمته الأخيرة والحاسمة.

قال ريتش في نهاية الاجتماع:

ـ إذا قدّر لي أن أتصل برجالنا، وهم موجودون في أماكن عديدة، وطلبنا منهم المساعدة، فسوف لا يترددون لحظة واحدة، وقد ينقلب الموقف لصالحنا.

ـ هذا هو السؤال، قال الطبيب، لأن من كان داخل القفص لا يستطيع شيئاً!

وتم الاتفاق على أن يرسل ميناس إلى السراي، ويطلب إرسال وفد للتفاوض معه.

كاد يُمنع ميناس من مغادرة محيط الباليوز، فقد أوقفته نقطة الحراسة التابعة للسراي، والتي لا تبعد إلا قليلاً عن نقطة حراسة الباليوز، لكن بعد مشاورات واتصالات لم تطل، وبعد أن عُرف أنه متوجه إلى السراي، طُلب منه أن يتابع.

كان يوماً من أيام نيسان العابقة برائحة الطبيعة، فالحرارة التي تملأ الجو تجعل للأشياء نكهة مميزة، وكأنها خارجة لتوها من وهج ولادتها الأولى: الأشجار بالغة النضارة، الطيور، خاصة اليمام، تملأ السماء، أما البخار الذي يتصاعد من أوعية الباعة فإنه يعطي للهواء مذاقاً لذيذاً. حتى أصوات الناس، بعد هذا الانقطاع عن سماعها، بدت في أذني ميناس جديدة، خاصة وقد فتح عينيه وأذنيه على اتساعهما، بعد أن طُلب منه مغادرة عربة الباليوز عند نقطة الحراسة، وأن يصعد إلى العربة التي وصلت تواً من السراي، «حفاظاً على روحك، ولأن مسؤولية حمايتك تقع علينا»، كما أبلغه مندوب السراي الذي اصطحبه!

بعد أن زايل الحذر، الأقرب إلى الخوف، نفس ميناس، أخذ يرقب كل شيء في طريقه، وقد عرف الكثيرين الذين مر بهم، دون أن يميزه أحد منهم. أما عندما اقترب من السراي، ورأى أن الوضع يختلف عن كل المرات التي وصل فيها إلى هنا، فقد استغرب، خاصة وهو يقارن ما يشهده بما كان يعيشه في الباليوز.

ومع أن عربة القنصل أو الخيول التي ترافقه تصل في العادة إلى حد

معين لا تتجاوزه، فقد اقتيدت هذه العربة إلى طريق جانبية، وما لبثت أن وصلت إلى مكان شديد القرب من ديوان السراي، وبعد أن خطا ميناس بضع خطوات وجد نفسه أمام صفوت قرداغ.

بوجه محايد استقبله صفوت. والصمت، بعض الأحيان، شديد القسوة وينم عن التجاهل أو العداء. فقد عقد صفوت يديه فوق الطاولة، وتطلع، صامتاً، إلى ميناس، طالباً منه أن يتكلم. لم يسأله عن صحته، عن الباليوز، عن السبب لمجيئه. ترك الصمت وحده يسأل. قال ميناس، وقد تلفت، حذراً، إلى أكثر من مكان:

ـ سعادة القنصل يبلِّغ تحياته ويطلب مجيء وفد من السراي للتباحث حول الإشكالات التي حصلت في الفترة الأخيرة.

ـ وفد من السراي؟

ـ أقصد إرسال شخص أو أكثر للتفاوض.

ـ دون كتاب اعتذار؟

ـ لم يشر سعادة القنصل إلى أي طلب خاص.

ودون استئذان، غادر صفوت الغرفة لبعض الوقت، وكان معنى ذلك مشاورة رؤسائه قبل أن يرد. خلال هذه الفترة تمعن ميناس بأثاث الغرفة، فبدا عليه الاستغراب لأن كل شيء جديد، لامع، وبالغ النظافة والذوق، وكأنه وصل أو وضع للتو، انتظاراً لوصوله!

أما حين امتد بصره، عبر النافذة، فقد رأى جانباً من الحديقة. كانت ريانة مليئة بالزهور، ولما حمل الهواء نسمات إلى الداخل فقد تضوعت الغرفة كلها وبدت مثل مركب عطر في هذه المساحة الممتدة. قارن هذه الزيارة بزيارات سابقة، قال في نفسه: «داود باشا يختلف عن غيره من الولاة» وشعر أنه يقدره ويخشاه في آن واحد!

لم يطل غياب صفوت قرداغ، عاد بعد بضع دقائق. لم يبد على وجهه أي جواب، سلباً أم إيجاباً. جلس وراء طاولته. عقد اليدين فوق الطاولة. تطلع بإمعان إلى ميناس، إلى عينيه تماماً، وكأنه طُلب منه أن يقرأ الوجه

قبل أن يعطي الجواب. ارتبك ميناس قليلاً، شعر أن العينين معاديتان، ونتيجة لذلك لا بد أن يكون الجواب سلبياً. وحين طال الصمت قليلاً، تحرك ميناس في مقعده. عند ذاك جاءت كلمات صفوت:

ـ السراي موافقة على التفاوض، وسوف يصل الوفد عصراً!

لم يقل صفوت كلمة واحدة إضافية. وقف تعبيراً عن انتهاء الزيارة. أما حين مد يده للمصافحة فكانت باردة ورخوة.

كان وفد السراي من أربعة: عزرا أفندي، ساسون أفندي، خلف، وناطق أفندي. قال الباشا لخلف:

ـ شروطنا بسيطة: ترجع المراكب محملة مثل قبل؛ تجّارنا مثل تجّاركم؛ أنتم ضيوفنا ونحن حراسكم، فترفعوا الحراسات إلى داخل السور؛ ومن رحل يرجع إلى مكانه، والشارع ملك لله ولكل عابر سبيل، ونحن لكل شيء حاضرين!

قال خلف لساسون أفندي، وكانا في ذات العربة، وقد بدت نقطة حراسة الباليوز:

ـ ما نقبل الوقفة عند النقطة إلا رفة عين، إذا تأكدوا نعبر، وإلا ماكو أسهل من ردتنا، أسهل من شربة المي!

ـ تمام، وهذا اللازم يصير!

ـ وقفة بين يدي ملك الموت ماكو، هو يقعد ونحن قبله، وهذا شليلنا يا جماعة، وكل كلمة ولها ردها وجوابها، فإذا رادوا الخير نحن معهم، وإذا رادوا الشر فعلى خيرة الله، ونشوف!

ـ تمام، وهذا اللي ببالي، وهذا اللازم يصير!

لم تتأخر العربتان والحراسة التي ترافقهما أكثر من ثوانٍ، إذ فتح الطريق. وكان ميناس عند البوابة ينتظر. بدا فرحاً وهو يرحب بالضيوف، وقادهم مباشرة إلى الداخل. وبعد أن استراح الضيوف قليلاً في الغرفة التي تفضي إلى ديوان القنصل فتح الباب من الداخل، وقال الخادم الذي فتحه بصوت عالٍ، لكنه مرتجف:

ـ سعادة القنصل بانتظاركم!

كان ريتش في نهاية القاعة، لكن مع خطوات الوفد كان يتقدم، وقد التقى الطرفان في منتصف القاعة تقريباً، إذ ظل ريتش يتطلع إلى الأمام، دون أن يوازن خطواته تماماً، لمعرفة مع من سيتفاوض.

كان القنصل لا يزال بملابسه العسكرية، وبيده العصا، ولم يستطع ناطق أفندي أن يتأكد ما إذا هي العصا ذاتها، فقد اختلطت عليه الألوان!

تم تبادل التحيات بسرعة، وإن تركزت نظرات القنصل على وجه ناطق أفندي أطول مما على الآخرين، أو هكذا قدَّر ناطق.

كان إلى جانب القنصل نائبه وأحد العسكريين. وما أن أخذ الجميع مقاعدهم، وكانوا متقابلين، حتى بدأ القنصل:

ـ لقد مرت في الفترة الأخيرة أحداث ما كنا نريدها أن تقع، لكنها وقعت، ويجب أن نجد لها حلولاً.

ـ من أجل هذا الأمر جئنا، يا سعادة القنصل، رد عزرا أفندي.

ـ وعلينا أن نعتبر ما حصل وكأنه لم يكن، قال القنصل.

ـ نحن موافقون يا سعادة القنصل، قال خلف، لكن بشروط.

ـ ما هي الشروط؟.

هكذا سأل ريتش، وهو ينقل نظراته بين الوجوه ليكتشف إلى أي حد يوافق الآخرون على هذا الكلام. تابع خلف:

ـ شروطنا بسيطة، يا سعادة القنصل: ترجع المراكب محمَّلة مثل قبل. تجارنا مثل تجاركم. أنتم ضيوفنا ونحن حراسكم، فترفعوا الحراسات إلى داخل السور. ومن رحل يرجع لمكانه، والشارع ملك لله ولكل عابر سبيل، ونحن لكل شيء حاضرين!

رد ريتش بحدة:

ـ ولكن المعاهدات والاتفاقات بين الدول هي الأساس للعلاقات، وهذه لا يمكن إلغاؤها أو تغييرها إلا بالتفاوض.

ـ الوالي مع المعاهدات والاتفاقات إلا المخالفة للشريعة . . .

هكذا رد خلف، وأخذ يعدد الأسباب والدوافع التي تتطلب إعادة النظر في بعض الأحكام إذا تغيرت الظروف.

ورغم انه طُلب من ناطق أفندي أن يراقب ويحفظ، وأن لا يتدخل إلا عند الضرورة، فقد وجد فيما قاله خلف فرصة لإفحام ريتش:

ـ يجب أن تعرف، يا سعادة القنصل، أن الله سبحانه في كتابه الكريم لم يفرض على عباده بعض الأحكام إلا بالتدريج، لأنه يقدر ظروف هؤلاء العباد، وأعتقد أن لا أحد فوق أوامر الله!

ابتسم ريتش، وكانت الابتسامة أقرب إلى السخرية، قبل أن يسأل:

ـ لم أفهم ما تقصد إليه، أيها السيد!

ـ الخمر مثلاً، يا سعادة القنصل، لم يحرّمه الله فجأة ودفعة واحدة، بل بالتدريج وعلى دفعات!

ـ وما علاقتنا هنا بالخمر، أيها السيد الذي نسيت اسمه؟

حاول ناطق أفندي أن يجيب، لكن ساسون أفندي قاطعه:

ـ ليس المقصود أن ندخل في مناقشات دينية، ولكن ناطق أفندي يقصد أنه في أحيان كثيرة تجري إعادة النظر بالاتفاقات بين الدول.

ـ هذا ما أقصده تماماً.

هكذا عقّب ناطق أفندي بعصبية، وكاد يضيف أشياء أخرى، غير أن نظرة خلف جعلته يصمت ويكتفي بما قال.

فرك ساسون يديه، وارتسمت ابتسامة كبيرة على وجهه، وهو يقول:

ـ يا سعادة القنصل، إن تجار السوق يشعرون بالحيف، لأن الرسوم المفروضة عليهم أكبر من الرسوم المفروضة على غيرهم، وهذا يستدعي إعادة النظر بالاتفاقات.

بعد مناقشات طويلة، وقاسية في بعض مراحلها، قال ريتش، وكان يقف، تعبيراً عن انتهاء هذا اللقاء:

ـ دعونا نتوقف الآن، على أن نلتقي مرة أخرى، وفي وقت قريب، لكي نناقش الأمور ونكون أكثر نشاطاً واستعداداً لسماع بعضنا.

قال عزرا للباشا بعد اللقاء الأول:

ـ القنصل الآن مستعد للتفاهم، ومن رأيي أن نتفاهم، أن نصل معه إلى منتصف الطريق.

أما ساسون الذي التقى به الباشا على إنفراد فقد قال:

ـ رغم أن صوته عالي وكأنه يتحدث ويّا طرشان، لكنه محصور أو مراهن على فد شي!

خلف اختصر كل شيء بكلمات:

ـ لو يلعلع صوت طوب الكرخ، حتى على غيره، ترتخي ركبه، وبعدها نتفاوض، يا أفندينا.

أما ناطق أفندي الذي كان لديه الكثير ليقوله للباشا، فقد اضطرب تماماً، إذ بدأ بنقطة الحراسة، ثم الاستقبال فالدخول إلى القاعة الكبرى، وقد تحدث عن الأثاث والملابس وملامح الوجوه، وحين أخذ يصف بداية الحديث ضرب على جبهته، وقال برجاء أقرب إلى التوسل:

ـ الموضوع ينراد له صفنة يا أفندينا، لأن الأمور بالنسبة لي، خاصة بهذي الساعة، صوف بشوك، فإذا تكرمتم وتركتم لي الفرصة، فسوف أقدم لكم تقريراً شاملاً يوفي بالمرام ويحقق المراد.

رد الباشا. وهو يبتسم:

ـ ما مستعجلين يا ناطق أفندي، والتقرير إذا ما جهز باچر يجهز عقبه، وسالفتنا مع الجماعة طويلة.. ما تنتهي بيوم أو اثنين.

وقال الباشا لخلف:

ـ عزرا أفندي نَفَسه قصيّر، يريد المسألة تنتهي اليوم قبل باچر، أما أنا وإنت، ويجوز ساسون نتحمل أكثر.

وابتسم ابتسامة واسعة، وأضاف، كأنه يحدث نفسه:

ـ ولازم ننتظر تقرير ناطق أفندي، لأنْ الله بعده ما فتح عليه، والرجّال طلب مهلة، فقلنا له: على كيفك، ومعك حتى صياح الديك بثالث يوم، ولازم نوفي الوعد!

136

قبل أن ينتهي اليوم الثالث، أرسل الباليوز ميناس مرة أخرى إلى السراي.

ومثلما استقبله صفوت قرداغ في المرة السابقة، استقبله هذه المرة: حياد بارد كأنه الجليد، والصمت وحده طريقة الكلام. كانت يدا صفوت ترتاحان متشابكتين على الطاولة، وعيناه فقط هما اللتان تسألان. ومع أن ميناس بذل جهداً كي يبدو طبيعياً، إلا أن مخاوف الباليوز التي انفجرت فجأة مع طغيان المياه في مستودع المؤن، وما ألحقته تلك المياه بالمواد المحفوظة، خاصة الطحين والسكر، هذه المخاوف التي حاول ميناس كبحها رافقته إلى السراي، وما كادت عينا صفوت تطلاّن عليه بتلك الطريقة الكاوية، حتى قال بصوت شابته رجفة ظاهرة:

ـ سعادة القنصل يسأل عن موعد عودة المفاوضات.

ـ أي مفاوضات تقصد؟

ـ المفاوضات التي بدأت قبل أيام على أن تعاود من جديد.

ـ ولكن القنصل هو الذي طلب وقفها. . .

ولأول مرة تفتر شفتا صفوت، وهو يضيف بتساؤل ساخر:

ـ وأظن أن القنصل أبلغ زوّاره أنه مرهق، ويحتاج إلى بعض الوقت للراحة والتفكير، فهل أنا مخطىء؟

استغرب ميناس أن صفوت أفندي يملك هذه التفاصيل، في الوقت الذي لا يعرف هو ما دار من مباحثات. حتى لما رافق الوفد إلى ديوان

القنصل، وبعد أن تم التعارف وتبادل التحيات السريعة، أشار إليه القنصل بالخروج، فاعتبر الأمر عادياً وخرج. الآن يكتشف أن الوالي يثق برجاله، ويطلعهم على أمور لا يفعل القنصل مثلها، ولذلك يجد نفسه محرجاً في مواجهة الأسئلة التي يوجهها صفوت. رد ميناس بارتباك:

ـ أبلغني سعادة القنصل أن المباحثات لم تنته، ويطلب أن تستأنف مجدداً، وبأسرع وقت.

قال صفوت قرداغ بصوت بطيء:

ـ أخشى أن لا نستطيع ذلك بسرعة، نظراً للاحتفالات الدينية التي تصادف هذه الأيام. . .

وبعد قليل وبكيد ظاهر:

ـ حالما تنتهي هذه الاحتفالات سأكون مستعداً لاستقبالك مرة أخرى، وأرجو أن نتفق آنذاك على تحديد الموعد المناسب!

ـ ولكن الأمر لا يحتمل التأخير، يا صفوت أفندي!

ـ كل الأمور تحتمل التأخير، يا ميناس أفندي، عدا الموت، أليس كذلك؟

هكذا سأل صفوت قرداغ، ويداه المتشابكتان تتحركان على الطاولة بطريقة تشعر من يرقبهما وكأنهما مخلوقان منفصلان عنه، إذا تتعانق الأصابع وتنفصل، تتشابك وتتداخل. وأبرز ما تتبدى تلك الحركة في الإبهامين، إذ يتحركان بلين مرة، بعصبية مرة، بعراك مرة، وبمودة ظاهرة مرة أخرى، ومن يراقب هذين الأصبعين يشعر بالإثارة الأقرب إلى الاستفزاز، وربما يدرك صفوت ما لهذه الحركة من تأثير فيلجأ إليها تبعاً لمن يتحدث إليه، وللحالة النفسية التي تسيطر عليه.

بعد أن ترك صفوت لميناس أن يراقب ويتملى حركة الإبهامين، فك يديه ونقر على الطاولة وهو ينهض إيذاناً بانتهاء المقابلة. وقف ميناس أيضاً، لكنه لم يتحرك، سأل ويد صفوت ممدودة نحوه:

ـ ان سعادة القنصل يلح على ضرورة الإسراع لإنهاء المشاكل المعلقة،

ويريد تحديد موعد ثابت.

ـ سنبلغكم بهذا الموعد.

لم يجد ميناس بداً من الحركة ثم المصافحة، استجابة للجو الذي خلقه صفوت قرداغ، وفي محاولة أخيرة، وهو يفتح الباب ليغادر، قال، وكانت لهجته راجية:

ـ آمل أن يكون الموعد قريباً.

ما كاد ريتش يتبلّغ أن الموعد سيتأخر، وقد يكون ذلك متعمداً، بغض النظر عن الاحتفالات الدينية التي أشار لها ديوان الباشا، حتى قال لميناس بطريقة لا تخلو من غيظ:

ـ الوحيد الذي يعرف كيف يتفاهم مع هؤلاء: بطرس، فهو يداورهم ويلجأ إلى أساليب تطرب الشرقيين، لكي يصل في النتيجة إلى ما يريد!

ميناس لا يعتبر الصفة التي يشير إليها رئيسه ميزة، لأن بطرس مع الجميع هكذا، الأمر الذي يجعل سلوكه منفراً، وهذا لا يرتضيه ميناس لنفسه. ولأنه لم يعلّق على ما سمعه، فقد تابع ريتش:

ـ إذا استمر الحصار أياماً أخرى، نتيجة تأخر المفاوضات، فكيف يمكن تأمين ما تحتاجه المقيمية من الخبز والسكر، بعد أن تلف معظم المخزون؟

ـ أرى يا سعادة القنصل أن نستعين بالشمس لتجفيف ما يمكن من السكر والطحين، وأن نوزع على الجنود التمر.

ـ وغير ذلك؟

ـ أن نقلل وجبات الطعام، وأن نباعد بين وجبة وأخرى.

ـ وماذا أيضاً؟

ـ يمكن أن نعتمد على الرز والأسماك، ونأمر رجال الحامية صيد أكبر كمية من الأسماك!

لم يكن ريتش في وضع نفسي يمكّنه من مواصلة النقاش بهدوء، فترك الأمر كي يفكر فيه ومواصلة البحث مع ميناس وغيره عن حلول لهذا الإشكال

الذي لم يخطر ببال أحد: أن تتلف المياه جزءاً كبيراً من المؤونة. ذهب الخيال بريتش أن أمراً كهذا ربما تم بتدبير من السراي، كأن تُفتح أنفاق جوفية لتسريب المياه، وقد يكون هناك عالم كامل تحت الأرض، كما هو الحال في مدينة النجف، أو ربما تم هذا بفعل بعض العاملين في دار المقيمية!

عصر اليوم التالي، الخميس، أوفد الديراني مجدداً للسراي، مع رسالة قصيرة: «. . . بعد أن شرعنا بالمباحثات من أجل الوصول إلى حلول للمشاكل التي وقعت في الفترة الأخيرة، يعرب قنصل امبراطورية بريطانيا العظمى، عن أسفه لتلكؤ السراي في مواصلة هذه المباحثات. ان من شأن ذلك تعقيد الأمور، وقد تترتب نتائج تسيء إلى العلاقات بين لندن واسطنبول، وعليه تطلب قنصلية الامبراطورية أخذ هذه الأمور بعين الاعتبار. . دون تأخير!»

ولأن صفوت قرداغ كان غائباً عن السراي عصر ذلك اليوم، فقد استلم أحد مساعديه الرسالة، وقال للديراني:

ـ لن يكون صفوت أفندي على رأس عمله غداً، والرسالة سترفع عن طريقه إلى المقامات العليا بعد غد على أقرب تقدير!

قال الباشا لخلف في ذات الليلة:

ـ نحن الآن بيوم الخميس، وغداً علينا الصلاة بالكاظم، وعزرا وساسون ما يفوتون صلاة السبت ولو بقطع الراس، وما دام «صاحبنا» دب الصوت فالأحد يوالمه حتى لو كان يوم صلاته، فبلغ الإخوان وقابلوا القنصل يوم الأحد!

حين أبلغ الباليوز أن الموعد يوم الأحد، وقد تم هذا الإبلاغ عن طريق نقاط الحراسة، صبيحة يوم السبت، بدا بعيداً ولا يخلو من تحدٍ، خاصة وأن السراي لم يكلِّف نفسه إرسال أحد رجاله الرسميين لتبليغ الموعد.

وما زاد في التحدي أكثر أن ماري هيأت نفسها للاحتفال بعيد الفصح، وأرادت أن تكرم العسكريين الجدد، وكان بظنّها أن احتفالاً مثل هذا، وفي تلك الأجواء، سيرفع معنويات الجميع، ولا بد أن يوّلد شجاعة إضافية في

القلوب، خاصة حين ترتفع الابتهالات، ويعم جو من الفرح.

لقد شعر ريتش بحقد يغلي داخله، إذ بعد أن كان أي والٍ يبغي رضاه، وكان المتنافسون يتسابقون لنيل بركاته، لعل أحداً منهم يصل إلى الباشوية ويصبح والياً؛ وبعد أن كان الخائفون من انتقام الوالي يلجؤون إليه لحمايتهم، يجد نفسه الآن وحيداً، وحيداً ومحاصراً، لا أحد يقوى على أن يقدم له المساعدة، كما لا يعرف ما تخبئه له الأيام.

تراءت له صورة داود باشا في مراحل متعددة. صحيح أنه لم يفرضه والياً، كما كان الأمر بالنسبة لسعيد، لكن كان بإمكانه أن يمنع وصوله. لو تحرك، لو اعترض، لما تمكن داود من الوصول. ولا يعرف لماذا ترك الأمور تجري بتلك الطريقة، وكأنه يراقب جريان المياه أو سباق الخيل، وكان يروق له أن يتمتع بمراقبة ذلك السباق الأعمى بين مجموعة من المتنافسين، وكل ظنّه أن الجميع سوف يلجؤون إليه. لكن داود، هذا الماكر، الذي بدا وديعاً في البداية، وقد لا يختلف عن الكثيرين الذين مرّوا قبله، بدأ يفلت خطوة بعد أخرى، يوماً بعد آخر، إلى أن كشف عن الأحقاد العميقة التي تترسب في صدر كل واحد من الشرقيين، ولا تظهر إلا في الوقت المناسب: وقت ضعف الآخرين!

بعد مشاورات مع مساعديه، لم يجد ريتش مفراً من الموافقة على الموعد، وأن يستعد له. صحيح أن لحظات عديدة، وهو يبحث مع هؤلاء المساعدين، ومع ماري بشكل خاص، كانت صعبة، ولا تخلو من حرج، ومع ذلك احتملها برباطة جأش، وبمرح أيضاً، لكنّه شعر في الأعماق بالألم، كما لو أن في داخله جرحاً ينزف ولا يقوى على وقف هذا النزيف، خاصة وأن بعض خطواته كان متسرعاً، ولا يخلو من خفة، على الأقل من حيث التوقيت، لذلك يواجه الآن المصاعب كلها دفعة واحدة.

قال لنفسه، وهو ينتظر ذلك الأحد الحزين: «لا تظهر الشجاعة إلا في الأوقات الصعبة، ولا يبرز القادة الحقيقيون إلا من خلال التحديات الكبرى. وإذا كان الولاة السابقون قد أتاحوا لي الشعور بالتميُّز والأهمية،

فإن داود، العدو الوحيد الذي يجدر بي أن أنازله لأثبت لنفسي، قبل أن أثبت للآخرين، كيف يمكن أن أحتمل الجروح والمعاناة، وأن أحاول. . . لست متأكداً من النصر، لكنني متأكد انني لن أسلِّم، ولن أخضع لما يريد. . . وحالما أفلت من هذا الحصار، سأعرف كيف أرد عليه، وألقِّنه درساً لن ينساه».

لقاء يوم الأحد، رغم مظاهر الهدوء التي حرص عليها الطرفان، وهما يلتقيان حول الطاولة البيضاوية في الباليوز، كان عاصفاً، ولم يخل من تحديات متبادلة. فريتش يعتبر أن المزايا التي حصل عليها التجار الذين يتمتعون بحماية بريطانيا هي حقوق ثابتة لا تقبل النقاش، لأنها تمت منذ وقت طويل، قبل أن يصبح داود باشا والياً، ولأنها حصلت بموافقة لندن واسطنبول. ووفد السراي يعتبر أن تجار الولاية متساوون، ويجب أن تطبَّق عليهم جميعاً نفس الشروط. وإذا حصل تجار الباليوز في السابق على مزايا، أمّنت لهم أرباحاً طائلة، فيكفيهم هذا، «ثم إننا أولاد اليوم والناس متساوون» كما قال خلف بحدة، وهو يشير إلى المصاعب التي واجهت الولاية خلال الشهور الأخيرة نتيجة انقطاع البواخر، ومحاربة القنصل للسراي، وختم كلامه، مؤكداً أنه ليس مستعداً لأي تنازل:

ـ وإذا تحمَّلنا طوال هذي السنين الخسائر والمهانات وسكتنا، فإن للصبر حدوداً، وللطمع حدوداً، ولأن الحق يعلو ولا يعلى عليه!

بعد الكثير من المداولات، وقد حاول عزرا تلطيف الجو أكثر من مرة بأن تدخَّل حين احتدم النقاش بين ريتش وخلف، إلا أن ريتش بطريقة فخمة ولا تخلو من تحدٍ، قال:

ـ إذا تعذر علينا التفاهم، وإذا استمرت السراي في فرض القيود والحصار، فأعتبر أن لا فائدة لوجودي واستمراري في بغداد، ولذلك أطلب منكم، أيها السادة، أن تبلغوني بالموعد الذي استطيع فيه لقاء الباشا لأشعره بعدم قدرتي وعدم رغبتي في البقاء فترة أطول.

ونهض إيذاناً بإنتهاء اللقاء.

لما استقبل الباشا الوفد الذي أرسله للباليوز ليعرف ما حصل، قال عزرا يلخِّص النتائج:

- عناد القنصل، يا أفندينا، مؤقت، وكان رد فعل للكلام اللي سمعه منّا، فإذا تركناه كم يوم يهدأ ويمكن التفاهم معه، ومثل ما قلتم فخامتكم، وانتم توصونّا: الصلح سيد الأحكام، فمن رأيي خطوة منّا وخطوة منه ونصل إلى منتصف الطريق... ونتفق!

ساسون كان له رأي آخر:

- هذا القنصل لغير هذي الأيام، يا أفندينا، لأن كل ما فتحنا باب يسده، وكأنه ما مصدق شنو صاير بالدنيا، عباله الدنيا مثل قبل؛ ومن رأيي إذا قابل جنابكم ترزّلوه وتقولوا له: فتّح عينك زين!

أما ناطق أفندي الذي ظل صامتاً خلال اللقاء الثاني في الباليوز، وظل صامتاً أثناء لقاء الباشا بالوفد، فقد طلب من فيروز أن يلتقي بالباشا على انفراد، لأن لديه ما يقوله. ولم يتأخر الباشا في استقباله. قال، وهو لا يستطيع أن يخفي فرحه:

-.... ولما كان ينذكر اسمكم، يا أفندينا، كنت اشوف وجهه يصير سم، أكثر من السم، والوحيد اللي قال كلام زين: خلف. حكى ويّاه بحيل صدر، وقال له: إنت وين رايح، هذا الوالي اسمه داود، وهذا اللي يريده لازم يصير. وقال له: فتح عينك زين، فهذي الأيام غير أيام، وتجار الولاية مثل سنان المشط كلهم مثل بعض وماكو ناس أحسن من ناس. وكلام خلف، يا أفندينا، يطلع نتر، وهو يباوع بالعين، مو مثل عزرا اللي بس يفرك إيديه ويقول: تمام... تمام!

ولما وجد ناطق أفندي الباشا يصغي والابتسامة تملأ وجهه، تابع بانفعال:

- وتعرفون، يا أفندينا، آني ما عليّ بالسياسة والتجارة، ويجوز مو هالقد بهالمسائل، لكن اللي حسيت بيه، وشفته شوفة عين، أن القنصل ما يريد يصلّي على النبي، وما أظنه راح يحلب صافي، ويجوز ناوي على

شر، لانه ينقط سم، فإذا راد يمشي، وطلب موافقتكم، فأبوس إيدك يا أفندينا تقول له: الله وياك، ودرب الصد ما رد، لأني هوايه خايف.

تحولت ابتسامة الباشا إلى قهقهة، وهو يستمع إلى ناطق أفندي، وهو يرى انفعاله، وبعد أن هدأ، قال له بمودة:

ـ كلامك، يا ناطق أفندي، واضح، وأحسن هوايه من الكتب اللي تسطرها، وبعد اليوم أريدك تقول لي كل شيء، بدل من كتابنا وكتابكم، شنو رأيك؟

ـ آني بالخدمة سيدي، لكن بعض المرّات الكلام يشكل بالنسبة إليّ وأتوه، تنلاص عليّ!

ـ خلص... من اليوم صارت المسائل واضحة!

ولم يتأخر الباشا في استقبال ريتش.

كان موكب القنصل مختصراً حين وصل إلى السراي، كان معه نائبه وواحد من العسكريين، إضافة إلى خمسة من الفرسان. وحين استقبله الباشا لم يجدا الكثير ليقولاه، خلافاً للمرّات الكثيرة السابقة، ولما خيَّم صمت ثقيل، قال الباشا، وخرج صوته صلباً:

ـ طلبتم مقابلتي، ولا بد أن يكون لديكم ما تقولونه، فأنا جاهز لسماعكم، يا سعادة القنصل!

أخذ ريتش نفساً عميقاً قبل أن يبدأ:

ـ ليس لدي الكثير لأقوله، يا فخامة الباشا، لكن أشعر أن الأجواء التي أعمل خلالها لم تعد مريحة أو مرضية، ولذلك أفترض انني إذا غادرت أفضل للطرفين.

ـ فيما يخصنا لا نجد أن هناك أسباباً تقتضي المغادرة، فقد تعوّدنا، خلال هذي السنين، على وجودك بيننا، أما إذا كنتم ترون العكس فهذا، يعود إليكم!

ـ لقد حصلت أمور عديدة في الفترة الأخيرة أشعرتني بالضيق وبالعجز عن مواصلة مهامي، وهذا ما جعلني أقرر المغادرة.

ـ وكيف كانت مشاعر الآخرين، يا سعادة القنصل، حين ارتفعت الأسعار، حين انقطعت المؤن؟

ـ هم أقدر على تحديد مشاعرهم والتعبير عنها!

ـ بالتأكيد هم أقدر على ذلك، وقد احتملوا هذه المصاعب وتجاوزوها!

ـ هل تطلب أن أبقى محاصراً في دار المقيمية، وعاجزاً عن فعل أي شيء؟

ـ السراي لم تطلب إلا أقل المطالب: أن تعود السفن حاملة المؤن، أن يعود أصحاب المساكن المحيطين بدار المقيمية، بعد أن تم ترحيلهم.

ـ والرسوم المتوجبة الدفع على تجارنا؟

ـ كما هي على الآخرين.

ـ إنني، بإسم حكومتي، أرفض ذلك، وأعتبر أن هذا الإجراء غير قانوني، ويخالف الاتفاقيات المعقودة بين لندن واسطنبول، وما لم يلغ هذا الإجراء، يبدو لي أن الأجواء ستبقى ملبَّدة، ويصعب في ظلها العمل أو البقاء.

ـ كما أن لكم تحديد ما يناسبكم من صيغ وإجراءات، فإن السراي تملك تحديد ما يلائمها.

ـ افهم من ذلك، يا فخامة الباشا، أنكم غير مستعدين للتراجع عن الإجراء الذي اتخذتموه بخصوص الرسوم؟

ـ لقد اتخذنا الإجراء وهو يسري عليكم كما على غيركم.

ـ إذن أبلغكم بقراري مغادرة بغداد.

ـ تقصد العراق؟

ـ أي نعم، وسوف آخذ طريق النهر إلى البصرة.

ـ يمكن أن تأخذوا الطريق الذي يلائمكم، وسوف نبلِّغ رجالنا لتسهيل مروركم، ولكن، ولئلا يساء فهم هذه المغادرة، نريد رسالة من قبلكم تؤكد هذه الرغبة، وإنها تتم بناء لطلبكم دون ضغط أو إكراه.

ـ إعتبر كلامي، يا فخامة الباشا، بمثابة الرسالة التي تشيرون إليها.

ابتسم الباشا ابتسامة واسعة، تطلع إلى مرافقي القنصل، ثم إلى رجاله، وقال:

ـ لا أشكّ لحظة واحدة في أن الكلام الذي يعبر عن هذه الرغبة واضح وصريح، والسادة الذين يشاركوننا هذا اللقاء شهود على ذلك، لكن، وكما هو جارٍ بين الدول، أو حتى بين الأفراد العاديين، إن ما يجري الاتفاق عليه يدوّن، لأن المسألة، كما يقال، حياة وموت، ثم هناك النسيان، يا سعادة القنصل، أو ربما تغيُّر الظروف!

ـ هذا يعني أن السراي لا تكتفي بهذا الكلام الواضح، بل تطالب بوثيقة خطية؟

ـ تماماً يا سعادة القنصل، لأن المسألة تتعدى أشخاصنا!

ـ سأغادر إلى مقر عملي الآن، وسوف أفكر بما طلبتوه، يا فخامة الباشا!

قال هذه العبارة بغيظ ظاهر، إذ عبق وجهه، واهتز رأسه ربما دون إرادة. رد عليه الباشا ببطء وبما يشبه السخرية:

ـ لديك كل الوقت، يا سعادة القنصل، وحالما استلم خطابكم سوف أوعز لرجالنا لتسهيل مروركم ومرافقيكم!

بعد يومين من هذا اللقاء، أرسل ريتش إلى السراي الخطاب الذي طلبه الباشا. أما خلال هذين اليومين فقد انشغل جميع العاملين في الباليوز بنقل أشياء لا يعرف ما هي إلى السفينة الحربية المرابطة، لأن ريتش قرر ركوبها، وبمرافقة مركب آخر، إلى البصرة.

قال سكان صوب الكرخ إنهم رأوا رجال الباليوز يقفون رتلاً، وكل فرد يناول الآخر كيساً لا يعرف ما يحتوي عليه. وقالوا إن الرجال ظلوا يرفعون هذه الأكياس إلى السفينة طوال النهار. أما في الليل فشاهدوا حريقاً جانب السور، وربما كانت أوراق هي التي تحرق، لأن بعض الصيادين حملت إليهم الريح أوراقاً محروقة، ولا يعرف ما إذا استمر تحميل السفينة في الليل.

أمجد السامرائي، ومن خلال المنظار المقرّب، أكد أن كميات كبيرة من الكتب حملت إلى ظهر السفينة، كما حملت أحجار كثيرة لا يعرف طبيعتها أو لأي شيء تستعمل!

أما طلعت باقة، وبعد توارد الأنباء من رجاله، ومن الآخرين، أن أشياء غامضة تجري في الباليوز، فقد ذهب بنفسه إلى منارة جامع الشواكة ليتأكد، وقد شاهد بوضوح أن كميات كبيرة من الأثاث تحمل على ظهر السفينة، وكان هذا دليلاً أن القنصل ينوي الرحيل.

صباح الأربعاء وصل ميناس إلى السراي ومعه الخطاب، وكان يتضمن بالإضافة إلى إشعار المغادرة، قائمة بأسماء الذين سيغادرون مع القنصل، وأسماء الذين سيبقون في دار المقيمية، ولقد لفت نظر الديوان في السراي أسماء: روجينا وأم ميناس ولورا خليل. وإذا كان الباشا قد وافق على سفر روجينا وأم ميناس، فقد ضرب باللون الأحمر على اسم لورا. قال لخلف الذي كان يطلعه على الخطاب والقوائم:

ـ لورا تبقى هنا، لأن خاف يروح الخيط والعصفور!

وابتسم بسخرية وهو يتابع بلهجة مختلفة:

ـ وتقولون لجماعة الباليوز إن المرية ما تقدر تسافر بليّا موافقة الزوج، وبعودة عارف زنجاري، بالخير والسلامة، ندز لكم الصوغة!

ولأن الانفعال بلغ أقصاه، خاصة في صوب الكرخ، لما عرف الناس بقرب سفر القنصل، فإن الهوسات والتجمعات حول بستان زيدان زادت عن الحد، وكلها تحرّض على استعمال المدفع، ولو من قبيل التخويف. وقد تفنن الصبية والأطفال، وعلى رأسهم زينب كوشان، في نظم الأهازيج والأغاني، وكلها تحرّض على أن «يشتغل الطوب».

ذنون الذي هجر، مجدداً، قنبر علي وبستان الأعظمية، وأخذ يقضي معظم وقته في قهوة الشط، وينام في المسافرخانة التابعة لها، كي لا يفوته أي شيء، قلق لغياب الحاج صالح العلو، وحين سأل عنه قيل إن ألماً في ساقه حدّ من حركته، فقرر أن يزوره في بستان المتولي، ليطمئن عليه،

وكي يبلّغه بالتطورات المتسارعة التي تجري.

ظهر الخميس غادرت سفينة الباليوز. وقف الكثيرون على ضفتي النهر يتفرجون على المغادرين؛ لم يكن على ظهر السفينة إلا مجموعة من الحراس الهنود، أما الآخرون فقد اختفوا داخلها.

المركب الأخضر رافق السفينة، لكن احتفظ بمسافة بعيدة نسبياً.

ذنون بعد أن شهد نهاية الرحلة، توجه إلى بستان المتولي وحده، وكان يستعيد في ذاكرته أحداثاً كثيرة، ولا يعرف هل ما شهده منذ البداية حتى تلك اللحظة حلماً أم حقيقة. كانت الأحداث تتراكض في رأسه، وكانت الوجوه والملامح والأسماء تتداخل وتختلط.

دفع باب البستان ودخل بهدوء. كان راغباً في أن يرى الحاج صالح وأن يرى تماثيله، وكان يود المرور على الخيول أيضاً.

اتجه إلى حيث التماثيل أولاً. رأى أم قدوري تهيىء عقوداً من الياسمين، وما أن تنتهي من خرزها، حتى تقول، وهي تناول الحاج عقداً جديداً:

ـ وهمين هذا خلص...

ويستدير الحاج نصف دورة ويلتقط العقد ويعلّقه على أحد التماثيل.

كانت التماثيل مطوّقة، معظمها، كلها، بعقود الياسمين!

حسون الذي رابط في البستان، بحجّة إطعام الخيول، لم يقوَ على مشاهدة السفينة تغادر، وعليها زوجة القنصل، ربما أحسّ، أو قال له شلال، ان أحداً جاء. خرج على مهله، رأى ذنون يتقدم بخطوات صغيرة باتجاه المشتمل والدموع تتساقط من عينيه. قال له بهمس:

ـ عبالي الكبار ما يبكون، عمي ذنون!

ـ ماكو أحد ما يبكي، حسون، بس بكا عن بكا يفرق... وأنا اليوم فرحان!

دمشق / بيروت

1997 ـ 1999